دكتور محمود أحمد الحفني

يقدم



فردريك شوبان

وزارة المعارف العمومية

سلسلة التاريخ الموسيقى

فردريك شوپان

تأليف

دكتور محمود أحمد الحفنى

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية



فردريك شوپان

المقدمة

ان حياة العبقرى تنبع من عالم أسمى ، لذا فهى تعيش غريبة عن حياة سائر الناس . وهذا يفسر ما عساه يبدو فى كيان العبقرى من الشذوذ . فلا ينبغى أن تفهم حياته فهما هندسيا ، ولا أن يتخذ مقياس عقله شكلا منطقيا ، ولا أن تستعرض أيام وجوده فيما تقاس به حياة غيره من الناس فى تصرفاتهم وتقلباتهم ، وفى مجرى الحوادث وآثارها فيهم ، وفى خضوعهم للبيئة وتأثيرها عليهم .

وبين يدينا الآن من ألوان العبقرية سفر مفصل يقدم « فردريك شوبان » الى قراء العربية ، ويعرض له فى مراحل حياته المختلفة فى اطار من التحليل والتعليق .

ولم يكن من الميسور أن يلتمس « شوبان » الا فى مجموعة من المصادر والمراجع والوثائق التاريخية ، وفى لغات متعددة . على أن هذه المجموعات الضافية لم تخل فى أحيان كثيرة من التناقض والتضارب ، فكان على المؤرخ الأمين أن يستجمع ويحلل ويقارن ويوازن ويضع جميع الحوادث تحت منظار البحث الدقيق حتى يستخلص الحقيقة من هذه التيارات المتعارضة والآراء المتناقضة . وهذا ما أخذت به نفسى عند تصنيف هذا الكتاب ليكون بالنسبة الى تاريخ « شوبان » أحد مصادره العلمية العالمية ، محتويا على عصارة العقول الفاحصة التى تبارت فى حلبة التصنيف والكتابة

عنه مائة عام متواصلة . وهو بهذا يعتبر آخر ما سجل التاريخ وخاتمة ما انتهت اليه البحوث الى الآن .

ولا ندعى لهذا الكتاب أنه التفصيل الجامع والموسوعة الشاملة لكل خطوات « شوبان » وتراثه الفنى فان ذلك غير مستطاع فى مؤلف واحد وانما نهدف الى التعريف به والابانة عنه بما فيه كفاية وغناء لما يتطلبه المثقف والدارس ومحب الاطلاع . وفيما بعد ذلك يتسع مجال المزيد لمن يريد .

وقد أتاحت لنا حياة « شوبان » فرصة ذهبية نكشف فيها عن شخصية بارزة للفنان الذى يكون فى حياته مثال الانسان الرفيع ؛ والوطنى الغيور ، والصديق الوفى . والابن البار . والأريحى العطوف والمحب المتفانى ؛ والفنان المستغرق ؛ والموسيقى الشاعر ، والقارىء المستطلع والرحالة الباحث . والمكافح الصبور . وفى هذه الحياة أمثلة بارزة لأسمى طرائق التربية ووسائل التهذيب . وهى تحقق كثيرا من الأهداف التى يطمح اليها ولا يستغنى عنها المربون . وما ظنك بعبقرى والده معلم مجرب ، وهو أيضا معلم تخرج فى مدرسة الأيام بعد مدرسة أبيه .

ولو أتيح لنا أن نقدم « شوبان » فى منظره ومظهره ومخبره بريشة المصور فماذا عسى أن نتبين من هذا العبقرى ؟.. نرى شابا وسيم الطلعة ، طلق المحيا ، متوسط القامة ، رقيق الحاشية ؛ تعلو وجهه ابتسامة خالية من كل مرارة حتى فى أمر آلامه ؛

له شعر غزير ناعم كالحرير . وقد بدا أنفه فى اعوجاج خفيف على الأسلوب الرومانى . يشبه كثيرا ملامح والدته . وهو متجمل فى ملبسه ، متأنق فى حركاته : أرستقراطى فى مظهره وفى معاملاته كأنبل الأشراف . لا يسع من يراه لأول مرة الا أن يحكم بأنه انسان من طراز غير عادى . فهو مرح الروح ولكن قلبه مثقل بالجوى والأحلام ، قليــل التحدث عن أحاسيسه . محبب الى المجتمعات ، تتخاطفه « صالونات » باريس مما كان يضطره الى التردد على ما يربى على الثلاثين منها ليرضى من لا يحصى عددهم من محبيه والمتشوفين الى الاستمتاع بفنـه وعبقريته وشخصيته المحبوبة . وقد كلفه ذلك ثمنا باهظا من صحته التى أفنـاها فى تلك الليالى الساهرة التى سنرى الى أى حد كان أثرها فى حياته .

وكان عظيم الاعتزاز بفنه ، مقدرا له فى غير ما صلف ولا غرور . ولم يحـاول قط أن ينتقص فنـانا فى قيمته ، بل كان يقــدر لزملائه فضلهم ويعرف لفنهم قــدره . على أنه لم يكن ليمتدح شاعرا أو موسيقيا أو مصورا مالم يكن ذلك صادرا عن ايمان مبعثه الحمد والثناء . فربما تنكر لانتاج أقرب أصدقائه لديه اذا لم يجد فيه ما يرتاح اليه .

واذا قلنا ان « شوبان » كان انسانيا محسنا بارا فسترى فى هذا السفر أمثلة تنطق بذلك وحدها . وحسب القارىء أن يعلم أن أولى حفلاته فى طفولته كانت لمساعدة شاعر هرم ، كما كان آخر حفل له فى حياته من أجل مساعدة مهاجرى بولونيا فى لندن .

وكان أحب شيء اليه مواساة الصديق ، بقدر ما كان يبغض من يحاول استغلاله .

وكان « شوبان » يمقت الأثرة ، ويحتقر عباد المادة . أقام مواطنــه عازف الكمان الشهير كارل لبنسكى (Carl Lipinski) عدة حفلات فى باريس عام ١٨٣٥ فالتمس منه « شوبان » أن يخصص ايراد بعض حفلاته لمهاجرى بولونيا الفقراء فاعتذر بأن ذلك يغضب روسيا التى يعتزم اقامة بعض الحفلات فى عاصمتها . فوجد « شوبان » فى هذه الاجابة من القحة والنذالة ما جعله يتخلى عن صداقته الى الأبد .

ومع أن « شوبان » كان مسيحيا كاثوليكيا فلم يكن يميل الى الجدل الدينى أو النقاش السياسى ، وان كان لا يرفض الاستماع الى الأحاديث فيهما .

أما اتجاهه الفنى فهو الأخذ بأقرب جديد وأحدث مدرسة . وقد وجد فى باريس أول عهده بها قطبين يرفعان علم الاتجاه الموسيقى الجديد وهما برليوز ولست . وكانا أكبر مناضلين يكافحان ضد مدرسة الكلاسيك . ومنذ عام ١٨٣٢ ارتبط « شوبان » بهذين العلمين وانتظم فى عقدهما عاملا معهما على تحقيق رسالة المذهب الجديد الذى أطلق عليه الفن « الرومانتيكى » . وقد ظل مخلصا لهذا الاتجاه طوال حياته .

ولم يكن يعنيه أمر الدعاية لمؤلفاته ومحاولة فرضها والاعلان عنها . وحسبنا فى ذلك ما كتبه الى أحد أصدقائه يقول :

« انى لعلى ثقة من أن القيمة الحقيقية لمؤلفاتى هى التى ستعلن عن نفسها . أما انها ستعرف اليوم أو غدا فذلك عندى سواء » .

وكان « شوبان » يبالغ فى الاهتمام بانتاجه والعناية باجادته ، عا سد على النقاد مسالك الانتقاص الذى حاولوا تلمسه فى فنه فلم يجدوا اليه سبيلا . بل لقد كان هو ناقد نفسه يلقى عا لا يروقه فى سلة المهملات ، مما لو وقع لغيره لأعجب به وعده من المفاخر .

ولما تألق نجمه فى سماء باريس وأصبح فنانا تعتز به أمة ، وتفاخر به قومية ودولة ، أخذت الأجناس تتنازعه وتتبارى فى نسبته اليها لتضيف به صحيفة مجد فنى الى سجل مفاخرها . فهذه ألمانيا التى لا تنقصها ثروة النبوغ الموسيقى بفضل أعلامها الأفذاذ العديدين تحاول أن تنسب « شوبان » اليها بحجة أن أسرته تنحدر من احدى عشائر اللورين وهى أرض ألمانية . وتلك فرنسا تنسبه اليها بعراقة الأصل ، والدم ، والبيت ، والسلالة ، والقرابة ، والاسم .

أما « شوبان » نفسه فقد كان معارضا لكل شىء يخالف نسبته الى بولونيا . فبولونيا هى وطنه الذى يعتز به فينطق بلغته ، ويعتد برنينها الموسيقى ، ويصفها بثرائها فى التعبير الذى يجمع بين الرقة والقوة . وقد نطق تاريخ حياته فى جميع مراحلها بمبلغ اعتزازه ببولونيا قولا واحساسا وانتاجا . وفى أدوار تاريخه من هذا الكتاب ما يوقفك على مبلغ تمسكه بحب بولونيا التى هى عماد قوميته ومبعث وطنيته ، فكأنه يقول بلسان الشاعر العربى :

بلاد بها نيطت علىّ تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

* * *

وهذا المصنف عن « شوبان » يصدر لمناسبة الذكرى المئوية لوفاته . فقد غرب نجم عبقريته الفذة فى السابع عشر من أكتوبر عام ١٨٤٩ ، ففى مثل هذا التاريخ من أكتوبر سنة ١٩٤٩ يكون قد انقضت مائة عام على وفاته . وقد اعتزمت دولته بولونيا أن تقيم لتكريم هذه الذكرى وتخليد تلك العبقرية مهرجانا عاما تعقد فيه أكاليل المجد لهذا الذى جعل قلبه وقفا على حب وطنه ، وموسيقاه نشيدا لاعلاء فن بلاده .

وقد شاءت الحكومة المصرية أن تساهم فى تكريم هذا التراث العالمى ، وأن ترفع صوتها فى طليعة من يقدرون الفنان العظيم قدره من دول العالم وشعوبه . فمصر أم الموسيقى ومصدر اشعاعها الأول منذ فجر التاريخ ، وعلى شاطىء نيلها جلجلت أبواق الفن بتقديس الآلهة ، تلبى اليوم الدعوة لتكريم ذكرى « شوبان » وهى جد مغتبطة بأن يتاح لها اظهار شخصيتها الفنية واثبات كيانها الموسيقى . والأمة التى تستطيع أن تعبر عن وجودها فى أعياد الموسيقى ومناسباتها هى فى الواقع تترجم عن وجودها فى جميع نواحى النهضات ، لأن الموسيقى هى التصوير الصادق لكل ما فى حياة الأمم . وقد فوضت مصر أمر تنظيم القيام بواجبها والمساهمة بنصيبها فى هذا التكريم الى لجنة مشكلة من أجل الشخصيات التى يتمثل فى مجموعها مزايا العلم والفن والمكانة فى الدولة .

ولما كان من أهم ما تتجه اليه جهود هذه اللجنة تصنيف كتاب عن « شوبان » فى مناسبة هذا المهرجان ، وكنت معنيا فى جميع

دراساتى الموسيقية بهذه الناحية التاريخية من حياة هؤلاء الأعلام ، ومن بينهم عبقرى بولونيا . هذا الذى ألمت بتاريخه فى عدة فصول ، منها ما أصدرته عام ١٩٢٤ ومنها ما ظهر عنه أيضا فى كتابى « أعلام الغرب » فى السنة الماضية (١٩٤٨) . لهذا فقد أولتنى اللجنة شرفا عظيما يوم أسندت الىّ مهمة وضع هذا الكتاب . وأرجو أن يكون هذا المجهود المتواضع وافيا بالغرض الذى تنشده اللجنة ، وأن أكون فى الوقت عينه قد قدمت لأبناء وطنى ولقراء العربية تاريخ شخصية ممتازة جمعت فى طرافتها من الحوادث والمزايا والآثار الفنية الخالدة ما يسترعى اهتمام كل مؤرخ ،وعناية كل باحث ، واطلاع كل أديب . فحياة شوبان فى نشأته ، وتربيته ، وأطوار نبوغه ، وفى انتاجه ومآثره ، ومسراته ومآسيه ، قصة انسانية يتسع فيها مجال العبرة والتأمل لمن أراد أن يضعها فى كل ناحية من هذه النواحى تحت مجهر الفحص والتحليل . وما أحرى بنا فى نهضتنا الحاضرة الى دراسة رجال من نوع « شوبان » .

وانى لآمل أن تجد مصر والعروبة فى هذا المؤلف ما اتجهت اليه من هذه المعانى التاريخية والفنية ، والمزايا الأدبية والانسانية . كما أرجو أن تكون مصر قد أدت بهذا الكتاب واجبها نحو تقدير هذا الفنان ، بما هو جدير بمقامها الدولى فى الفن ، ومكانتها العالمية فى الموسيقى ، متجها الى الله أن يكتب لنهضتنا الموسيقية دوام التوفيق فى ظل جلالة مليكنا المعظم ، حامى الفنون وراعى الموسيقى ، فاروق الأول ، حفظ الله ملكه ، وأدام باليمن عهده .

المؤلف

الأبوان

فى عام ١٧٨٧ كانت مدينة وارسو سعيرا محتدما تغلى فيه مراجل الثورة النفسية المشبوبة ، والجماهير تجوب مسالكها وطرقاتها قلقة متطلعة ترقب فجر اليوم الجديد الذى يسفر عن انعقاد أول برلمان يضع حدا لفوضى مظالم الماضى ، ويحكم الأساس الوطيد لبنيان المستقبل المجيد . والآمال معقودة على أن تصبح بولونيا دولة قوية الشوكة منيعة الجانب ، تستطيع النضـال عن كيانها والنضح عن كرامتها والذود عن حماها .

ولو أتيح لك أن ترى شوارع العاصمة الكبرى لراعتك هذه الأفواج الصاخبة من الشعب وهى تخطر فى أزيائها المتباينة وملابسها العديدة الألوان وقد انعكس عليها شعاع الأمل البراق فجعل من صورها العديدة مناظر سحرية تشف عن الايمان العميق ، وتنم عن الشعور المتوثب الطموح .

وفى وسط تلك المواكب المؤلفة من شتات المظاهر والأزياء ، وبين تلك الحركات غير العادية كنت تلمح شابا فرنسيا قد اندمج فى صفوف تلك الجماهير المائجة ، وهو لم يعد الشهور الأولى من هجرته من فرنسا وطنه الأول الى بولونيا وطنه الثانى . انه الفتى نيقولاس شوبان(Nicolaus Chopin) منحت « فردريك شوبان » الموسيقار الخالد .



نیقولاس شوپان ، والد فردریك شوپان ،



جوستينا كرزيزا نوڤسكا (والدة فردريك شوپان)

ولد هذا الفتى الفرنسى فى الخامس عشر من ابريل عام ١٧٧١ (وليس فى السابع عشر من ابريل عام ١٧٧٠ كما كان هو الزعم السائد فى تاريخ مولده) بنانسى أحدى مدن اللورين . وكان والده «فرنسوا» محترفا للنجارة، كلفا باستخراج النبيذ. ودرج نيقولاس بين ربوع نانسى الى أن بلغ السابعة عشرة من عمره حيث هاجر منها الى بولونيا عام ١٧٨٧ تاركا بيته وأهله ومسقط رأسه. ومنذ هذا الحين تلاشت من لوح ذاكرته تلك الأسرة التى ألقى بها وراء حجاب الماضى المجهول، والتى كانت تتألف يوم فارقها — مودعا أو غير مودع — من أبويه وشقيقتيه. فانه ما كاد يهبط الوطن الجديد حتى انخرط فى مجتمعه، وقاسم الأهلين شعورهم وأحاسيسهم، وعاش فى آلامهم وآمالهم كما لو كان يمت اليهم بالقربى القريبة والنسب العريق والدماء المشتركة والتقاليد الموروثة. ولأمر مجهول، ولسبب خفى، لم يعد أحد يسمع منه كلمة يذكر بها أسرته فى فرنسا. وقد بلغ من تجاهله لها وتناسيه اياها أن تنكر لذكرياتها، وأصبحت فى طوايا نفسه سرا مكتوما يحتجزه عن أقرب الناس اليه، ويخفيه حتى عن أفراد بيته الجديد فى بولونيا. وبلغ من أمر هذا التناسى والكتمان أن والده «فردريك» الموسيقار بعد أن ناهز العشرين من سنه، وطار به نبوغه وشهرته الى باريس، وأقام بها نجما لامعا فى سماء العظمة وبعد الصيت وعلو المنزلة، لم يكن حتى ذلك الحين يدرى أنه يوجد له فى قرية غير نائية عنه عمتان تعيشان العيشة القروية البسيطة بين صغار الزراع.

ومن الثابت تاريخا أن « نيقولاس شوبان » لم يتوان عن اظهار رغبته فى الحصول على الجنسية البولونية منذ وطأت أرضها قدماه ، تلك الرغبة الملحة التى تجلت آثارها فيما بعد وهو يتحدث عن فرنسا باعتبارها احدى الدول الأجنبية عنه .

وكان يعمل فى بداية اقامته بوطنه الجديد كاتبا فى أحد مصانع التبغ ، ثم حدثت انقلابات سياسية عصفت رياحها بهذا المصنع وسواه ، حيث ارتطمت البلاد كلها بموجة شديدة من الفوضى وتزلزل الأمن وعدم الاستقرار . وقد حملته تلك الشدائد الطاغية والفاقة المنذرة بالفناء على أن يبحث عن فرنسا فى أطلال الذكريات ليعود اليها طلبا للنجاة . ولكن مرضا مضنيا أقعده عن تحقيق ذلك فواصل اقامته فى بولونيا طوعا أو كرها . وهو فى اقامته تلك صادق العزيمة قوى الايمان ، فما تكاد بولونيا تتعرض لمشكلة من مشاكل السياسة فى السلم أو الحرب حتى نراه فى الطليعة ، يحمل العبء ويرفع العلم ، كوطنى يجرى فى عروقه الدم البولونى الصميم . ففى عام ١٧٩٤ وهو فى الثالثة والعشرين من عمره تطوع فى الجيش البولونى وامتشق الحسام فى حرب ضد الروس دفاعا عن وارسو . ولما انتهى النضال بتغلب روسيا واستيلائها على المدينة فكر ثانية فى العودة الى فرنسا ، وهو لايفكر فيها الا حين ترغمه الأحداث وتضيق به أرض بولونيا وتتجهم له فيها الحياة . ولكن مرضا أعنف من مرضه السابق قعد به هذه المرة كذلك ، وقد كان منه على شفا الموت . وبعد أن عوفى من مرضه ذاك استبعد من آماله العودة



المنزل الذى ولد فيه فردريك شوبان فى زيلازوقا وولا

الى فرنسا حتى الأبد . ورسخ فى نفسه الاعتقاد بأن لله مشيئة فى ألا يغادر بولونيا وقال فى ذلك : « لقد حاولت العودة الى فرنسا مرتين ولكنى أصبت فى كل مرة بمرض كاد يسلمنى الى الموت فلم يكن لى بد من أن أخضع للارادة الالهية وأبقى حيث يريد الله لى » . ومن بداية ذلك الحين وجه جهوده الى تعليم اللغة الفرنسية فى دروس خاصة لأبناء أسر الأشراف فى بولونيا .

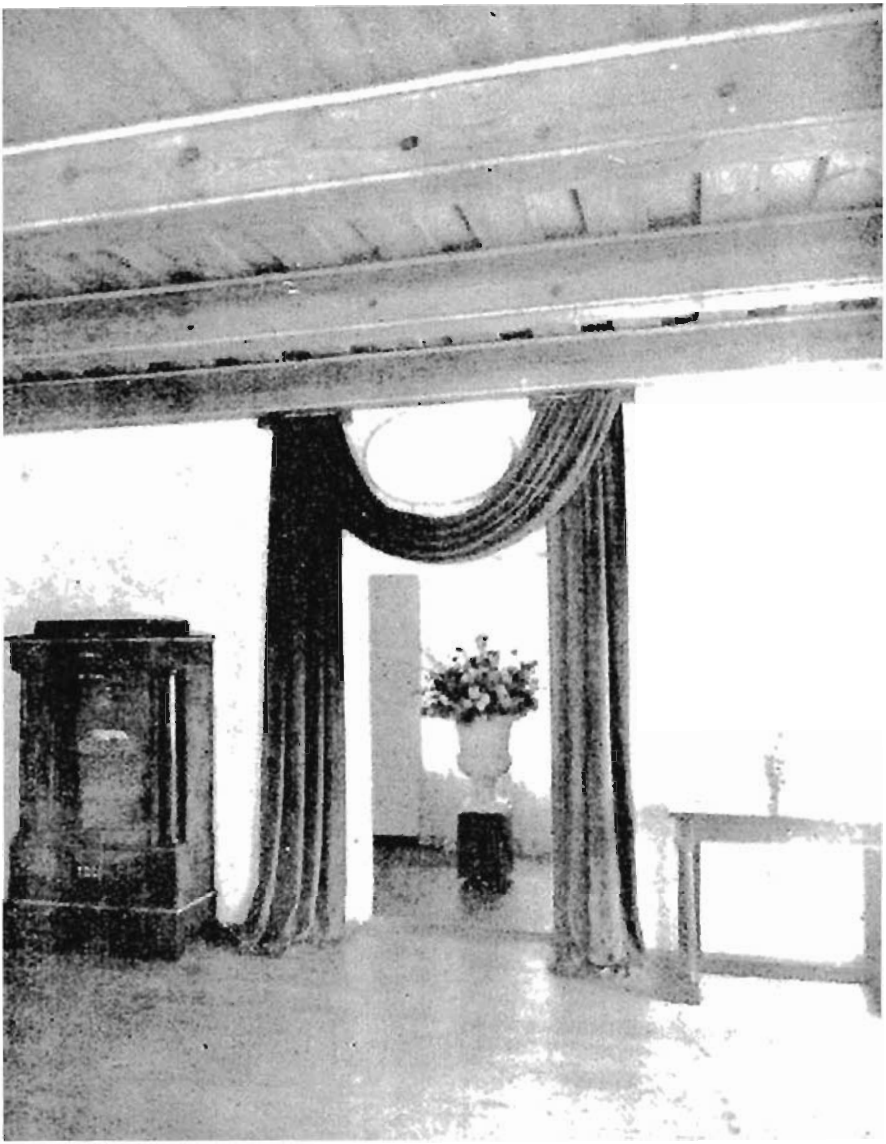
وفى عام ١٨٠٦ وقد بلغ « نيقولاس » الخامسة والثلاثين من سنه كان يقوم بتدريس الفرنسية لأبناء النبيلة سكاربيك (Skarbek) فى زيلازوفا وولا (Zelazowa Wola) قرية تبعد عن وارسو ستة أميال . فأتاحت له الظروف التعرف الى جوستينا كرزيزانوفسكا (Justine Krzyzanowska) فتاة فى الرابعة والعشرين من فقيرات النبلاء ؛ وهى اذ ذاك احدى وصيفات النبيلة « سكاربيك » جريا على التقاليد التى كانت تقضى بأن يعيش الفقيرات من النبيلات كوصيفات فى ظل الأغنياء منهن . فاقترن بها نيقولاس شوبان عام ١٨٠٦

وفى تلك البقعة النضرة ، والى جانب قصر النبيلة الشامخ ، كان يقع بيت صغير متواضع قد أسبغت عليه الطبيعة حلة رائعة من بساطة الجمال ؛ وفصلته عن قصر السادة بعدد من الأشجار الباسقة الفرعاء . وقدر لهذا البيت أن يصبح عش السعادة الهنيء للزوجين الشابين اللذين أقاما فى ثلاث غرف منه ، عن يمين الداخل ، وعلى ارتفاع قليل من الدرج . ولم تكن سقوف تلك الغرف ترتفع

عن القامة الا يسيرا . وانها لزيجة رفرف عليها التوفيق بجناحيه ؛ وأحاط بها الخير من كل مكان . فقد كان عماد البيت فيها تلك النبيلة الصالحة المتواضعة التى جمعت الى رقة الشمائل قوة الايمان بالله ؛ فوهبت نفسها لأسرتها ، وعاشت لبيتها ، وقاسمت زوجها حلو الحياة ومرها ، وشظف العيش ولينه . دل على ذلك اجماع من خالطهما أو اتصل بهما ، وكذلك رسائلهما الى ولدهما نجم الموسيقى المنتظر. كما نطقت به الصور الخالدة التى ابتدعها عباقرة الرسامين للزوجين بعد أن أصبح ولدهما بين أعلام الفن الذين ينقب التاريخ عن بيئاتهم وأسرهم .

وكانت الثمرة القريبة لهذا الزواج طفلة سمياها لويزا (Louise) ولدت عام ١٨٠٧ . وفى الثانى والعشرين من فبراير ١٨١٠ ، فى الساعة السادسة مساء ، استقبلت الدنيا نجم الفن الجديد . وولد الموسيقار الخالد فردريك شوبان (Friedrich Chopin) فكان مهده الأول ذلك البيت الصغير المتواضع المختبىء بين أشجار قرية « زيلازوفا وولا » .

ولعل من دعابات القدر وطرائفه أن تصادف ساعة ولادة الطفل وجود فرقة موسيقية كانت تعزف بالألحان تحت نافذة الأم فى مناسبة أحد أفراح القرية ، فكأن الموسيقى تأبى الا أن تستقبل مولودها ونجمها المنتظر بهذا الموكب الذى ألفته الأقدار حتى يكون أول صوت يستقبله سمع الطفل هو صوت الموسيقى التى هى موضوع رسالته فى الحياة .



منظر داخلي للمنزل الذي ولد فيه فردريك شوپان في زيلازوڤا وولا
وفي الجزء الخلفي تظهر الغرفة التي ولد فيها



بهو فى المنزل الذى ولد فيه فردريك شوپان

وهنا لابد من عرض موجز لمشكلة أثارها التحقيق والبحث عن تحديد تاريخ ولادته على وجه لا يحتمل الشك ولا يقبل الانكار. وقد نشأ ذلك عن الخلاف بين المؤرخين بسبب تضارب المعلومات المستقاة عن أهله أو عن الوثائق الرسمية . فقد ثبت فى أحد سجلات المواليد بالكنيسة أن مولد الطفل كان فى الثالث والعشرين من ابريل عام ١٨١٠ وبذا يتأخر مولده شهرين كاملين عما أوضحناه آنفا . أما الموسيقار نفسه فكان يعتقد أنه ولد فى الأول من مارس عام ١٨١٠ . وقد سجل هذا فى رسالة منه مؤرخة فى السادس عشر من يناير ١٨٣٣ وجهها الى الجمعية البولونية الأدبية بباريس لتنشر فى الطبعة الأولى من كتاب « التاريخ العام لحياة أعلام الموسيقى » لناشره « فيتس » . وكذلك كانت أمه وشقيقاته ورفاقه فى المدرسة وتلاميذه فيما بعد ، متفقين جميعا على أن تاريخ مولده هو اليوم الأول من مارس . يثبت هذا ماورد اليه فى رسالة من والدته تقول فيها : « لقد كنت كثيرة التفكير فيك يا بنى العزيز فى أعيادك السنوية ، يوم مولدك ويوم تسميتك ، فى الأول من مارس وفى الخامس منه » .

وقد قرر « كاراسوفسكى » أول من صنف تاريخا رسميا لحياة الموسيقار أن مولده كان فى أول مارس استنادا الى ما استقاه من شقيقته « ايزابيلا » . وتبعه فى ذلك غير واحد من المؤرخين . وعلى هذه الروايات اعتمد الموسيقار لست (Lisz) أحد أعلام الموسيقى المعاصرين لشوبان .

ولكن التاريخ الموسيقى الحديث ، المنقب الفاحص ، الذى لا يستسلم للروايات المنقولة حتى عن الوالدين وهما أقرب الناس وأوثقهم معرفة ودراية ، هذا التاريخ ترك المختلفين جانبا ، وحمل مصباحه الكشاف ، حتى عثر على الوثيقة الناطقة بصحة مولد الطفل ، ويومه المحدود ، وساعته المعينة . واستخرج شهادة « التعميد » الخاصة به فى سجل كنيسة بروشوف (Brochow) على مقربة من « زيلازوفا وولا » حيث ثبت فيه تحديد ولادته فى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٨١٠

ومن العجيب أن يثار هذا الجدل كله حول ميلاد طفل معجز اشتهر أمره ونبه ذكره منذ شب عن الطوق ، ولم يكن أحد يجهل مكانته ، لا من أهله ولا من أهل مدينته والعارفين بمنزلته والمتطلعين الى مستقبله المرقوب . وكل ذلك مدعاة الى تساؤل الجميع عن عمر الطفل كلما بهرهم نبوغه وسحرتهم عبقريته .

ومهما يكن من شىء فقد استطاع جهد المؤرخين الموسيقيين أن يصححوا خطأ التقدير فى تعيين مولد ذلك العبقرى ، فأعادوا الأمر الى صوابه . والتاريخ الى نصابه ، فكان لهم من الثناء والشكر ، ما لشوبان من التمجيد وخلود الذكر .



كنيسة بروشوف بالقرب من زيلازوڤا وولا حيث تم عقد قران
الوالدين وعمد بها فردريك شوپان فى ٢٣ من ابريل سنة ١٨١٠

الطفولة المعجزة

فى غرة شهر أكتوبر عام ١٨١٠ . وهو عام مولد « فردريك شوبان » ارتحل والده نيقولاس وأسرته معه الى مدينة وارسو ؛ وقد بدأ الطفل الشهر الثامن فى مهده .

أما المدينة فقد كانت بحق معرض الأزياء والصور والمبانى واللغات والأديان . فكنت ترى الثياب الشرقية والسراويل التركية والمعاطف الأوربية . وتشاهد الراهبات فى أرديتهن الدينية والفتيات فى حللهن الحريرية . ثم يلقاك اسرائيلى تسبقه لحيته المرسلة ، يتبعه بولونى بحذائه الأحمر متقلدا سيفه ... الى مناظر عديدة وألوان من الحياة ومن الناس فى أساليب معيشتهم وطرائق حياتهم بما لا ينتهى فيه الحصر .

الى هذه المدينة المائجة وذلك العالم الصاخب الذى لا يكاد يتفق فيه اثنان على طراز من العيش ، انتقلت أسرة « شوبان » الى غير عودة الى الحياة الريفية مرة أخرى . وقد نشأ ذلك عن تعيين رب الأسرة أستاذا للفرنسية بمدرستها الثانوية . وكانت أسرته قد تكاثر أفرادها . فانه بعد « لويزا » و « فردريك » رزق أيضا بايزابيلا (Isabella) واميلى (Emilie) . وقد اقتضاه ذلك أن ينشد المزيد من الرزق على قدر المزيد من الذرية ، فبعد سنتين من المقام بوارسو شغل منصبه التعليمى للغة الفرنسية فى مدرستى الطوبجية

والهندسة ، ثم فى المدرسة الاعدادية الحربية بعد ذلك بقليل . وكل هذه الجهود فى سبيل توفير هناءة العيش له ولأسرته لم تكن وافية بحاجته ، مما اضطره الى الاستغناء عن بعض حجرات مسكنه وجعلها قسما دراسيا داخليا يقيم فيه نفر من أثرياء الطلاب الذين يفدون الى وارسو .

على أن ذلك الجو الصاخب الملىء بالجد والكفاح كان من ناحية أخرى ممهدا لحياة هنيئة ، تخيم على منزل سعيد ، تقيم به أسرة يؤلف عقدها الحب والتعاطف والاخلاص . مما جعلها منبتا حسنا للعبقرية المبكرة ، ومدرجا ملائكيا للطفولة المعجزة . . .

وهنا نشأ « فردريك » الطفل فى أحضان الفضيلة والقناعة ورقة الطبع ، تلك الصفات التى لازمته طوال حياته ولم تبارحه فى صباً ولا شباب .

ولو أن لنا الآن أن نرجع بالزمن الى نحو قرن ونصف القرن ، لراعنا منظر طفل تنم مخايله عن سحر النبوغ وجلال العبقرية وهى تشع من ملامحه اشعاعة الفجر المنبثق قبل طلوع النهار وسطوع أضوائه الباهرة . ان ذلك الطفل يبدو نحيل الجسم ، شاحب اللون ، رقيق المشاعر ، هادىء النفس ، لامع الذكاء . وهو على حد تعبير صديقه الموسيقار لست «أشبه بالزهرة الباسمة ، فى نعومة المخمل ، المصونة عن أن يمسها غبار الطريق » .

وبينما هو فى نشاط العصفور وخفته ، اذا هو فى خفر العذراء وحيائها ، تتجاذبه عاطفتان من الحب العميق احداهما لوالدته النبيلة فى حنوها وفى عنصرها وثانيتهما لآلة البيان التى تملكت مشاعره

وسيطرت على وعيه وانتباهه كأن القدرة صاغته من أوتارها وخلقته من أنغامها .

وكأنما تلك الألحان التى استقبلته ساعة ولادته وتحت نافذة أمه قد استقرت فى كيانه ، وأخذت طريقها معه الى النمو . فلم يكن شىء مما حوله يشجيه ويستنزل الدمع من مآقيه سوى الموسيقى التى كان لها السلطان المطلق والتأثير الشامل فى نفسه . فلم يكن يعاوده الهدوء بعد سماعها الا فى عسر وعناء ...

شغف بآلة البيـان شغفا استرعى من الوالدين اهتمامهما وعنايتهما ، فاستجابا الى دعوة هذه الموهبـة الناشئة ، ورحبا بما يكمن فيها من طموح عجيب . فأسندا مهمة الدرس الأول فى الموسيقى الى صديق الأسرة الموسيقار أدلبرت زيفنى (Adalbert Zywny)من كبار أساتذة هذا الفن فى وارسو . وقد انحدر من بوهيميا ، وجاوز الستين من العمر . وهو مرب حاذق فى مهنته ، يجيد العزف بالبيان والكمان ، ومن المتأثرين بمذهب الموسيقار « باخ » المعتنقين أسلوبه الى حد تأثر به تلميذه « شوبان » الذى شاركته فى دروسه الأولى شقيقته الكبرى على يد أستاذه المجرب . والى هذا المربى يرجع الفضل الأول فى تنمية ملكة الطفل واظهار ثمارها فى وقت مبكر . فما أسرع ما أقبل الطفل على اجتياز المراحل بسرعة تتخطى الأوهام . فهو لا يقنع باجادة العزف ، ومهـارة التوقيع ، وروعة الأداء ، بل هو فى تلك الطفولة البادئة أيضا يأبى الا أن يكون مؤلفا وملحنا . هاهو ذا يخلو الى معزفه فيستسلم لعالم سحرى من الألحان التى تتزاحم على رأسه الصغير المليء

بآيات الابداع والابتكار . ولكن أنى له حفظها واستجماعها وتسجيلها ؟... ومن له باقتناصها وتقييدها ؟... انه أستاذه الأب الروحى العطوف ما يكاد يرى الطفل تتنازعه الرغبات الملحة الى تسجيل الهامه وابتكاره حتى يشجعه ويأخذ بناصره ؛ فيسجل له ما استودعه وحى الموسيقى فى عبقريته من ألحان وأنغام . تولى هو بعد ذلك تنسيقها واصلاحها .

ولا محيص لنا من وقفة يسيرة أمام هذا العمل التربيى المجيد الذى حافظ فيه المربى على شخصية فنانه الناشىء دون أن يحاول فرض شخصيته هو عليها . ولعل حكمة التجارب قد هدته الى أن من الخير أن ينزل هو عن مستواه الى طفولة « شوبان » فيعيش معه فى كيانه . ثم يرشده ويهديه ؛ من أن يحاول الصعود المفاجىء بذلك الطفل فيمحو شخصيته ويفنيها . ألا ترى كيف يصغى الى ألحانه . ثم يكد القريحة فى استيعابها وتسجيلها ؛ ليقنعه أنه صار شيئا مذكورا ، دون أن يعمل على كبت موهبته وقتل روحه الطموح فيه !!!... ان عمله هذا يفوق فى فضيلته الألحان وتسجيلها ...

أترى أين يكون مصير « شوبان » فى غده المرتقب لو أن مربيه قد تجهم له وقطب حاجبيه وانتهره قائلا : دونك ياغلام ، قف عند حدك ولا تحاول ما لاسبيل اليه لمن هو فى سنك . لو أن ذلك قد وقع لانهارت دعائم هذا النبوغ من أساسها ؛ ولما سمع التاريخ بعبقرى يقال له « شوبان » .

لم يكد ينقضى بضع سنوات حتى كان الطفل قد اجتاز فى دراسة



أدلبرت زيفنى (أول مدرس لشوپان)

آلة البيان مرحلة شاسعة . وصار اسمه حديث الأندية ؛ كما أصبح هو زينة المجتمعات الارستقراطية فى وارسو ، واستولى فنه على ثناء الجميع واعجابهم ،

أما الفرصة التى أتيح فيها لهذا النجم الثاقب أن يرسل اشعاعه الأول . ويبدو أمام الجماهير فى حفل عام ؛ فقد كان ذلك فى ليلة ساهرة أقيمت لعمل من أعمال البر والاعانة لشاعر قعدت به السن عن التكسب . واختير « شوبان » الصغير للمساهمة الفنية فى هذا الحفل ولما يتجاوز الثامنة من عمره . اذ كان ذلك فى الرابع عشر من فبراير عام ١٨١٨

ارتدى الطفل فى هذا الحفل المائج ؛ الملىء بالأشراف والنبلاء ، زيه على الطراز الانجليزى : فهذا صديرى من المخمل ، وحول عنقه بنيقة (ياقة) عريضة تتدلى من الجانبين على كتفيه ، وكان ابتهاجه بهذا الزى عظيما ، لاسيما تلك البنيقة الجميلة التى لا يفوق سروره بها سوى اعجاب المستمعين بسحر الفن من الطفولة المعجزة التى تخطت فى موهبتها منطقة الزمن وحدود السنين والأعوام حين رأوا ابن الثمانية يشترك فى البر بابن الثمانين ، والفنان الطفل يحنو على الفنان الهرم ؛ والموسيقى الناشئة فى مدرج طفولة السن تسبغ ظل رحمتها وتمد رداء حنانها على الشعر الذى لو انطلقت قوافيه بآيات الاعجاز لعجزت أن تجد فى قواميس اللغات ما يصور هذه الآية الالهية الباهرة فى طفل لا تكاد ترى أنامله وهى فى صغر النمل تجرى على مفاتيح البيان جرى الأمل السريع والعزم الوثاب ، لتستهبط من سماء العبقرية خوارق الفن وروائعه ، ثم هو بعد

لا يعرف الغرور ولا يخامره الاعجاب بنفسه والزهو بها • فيمضي الى منزله وكأن لم يحدث شيء فلم يأبه لهذا الضجيج من حوله ، وترك الألباب المسحورة تتبع بنظراتها ظل خطواته ، وهو غير مبال ولا مأخوذ بصيحاتها وهتافها • فاذا سألته الوالدة بعد عودته « أي شيء كان موضع اعجاب الجمهور بك ؟ » كان جوابه فى سذاجة الطفولة وبراءتها «يا أماه لقد كان الجميع ينظرون الى ياقتي !!••» •

واذا كان فى هذا الحوار بين الطفل ووالدته من عبرة فهى أنه كان فى حياته ابن الطبيعية ، وفى تفكيره مثال الفطرة ، وفى تصويره عنوان البراءة ، وفى عمله ابن الفن الذى طبعه على غراره فأرسله فنا طبيعيا صادقا لا تصنع فيه ولا تكلف ولا اعتساف • فهو كالطائر يملأ الهواء بأغانيه وهو فى سلامة فطرته لا يسأل عن مدى ما يبلغه من سحر السامع وفتنته •

ان الطبيعة حين تريد خلق المعجزة تهيىء لها البيئة الصالحة لنمو غرسها واشراق شمسها ، حتى تبدو كاملة تشهد بكمال الطبيعة واتقانها • هكذا نشأ « شوبان » فى تواضع البساطة حتى لا يتكبر ، وفى مجد الأرومة حتى لا ينخفض ويتخاذل • فقد ربى فى أحضان أبويه ، وتلقى عن والدته النبل وعن والده العلم والخبرة • وهذه المدرسة الأولى ركزت فى مشاعره المرهفة رقة الطبع ، وحسن المعاملة ، وجمال الذوق ، واشراق الروح • فما كاد هذا الحفل يصله بالمجتمعات الراقية حتى كان مهيئا بحكم تربيته الأولى لمجالسة الأمراء والنبلاء والأشراف الذين أصبح هذا الطفل المعجز سراج أنديتهم ، وجمال سمرهم ، ونزهة أسماعهم وأبصارهم • وقد زاده

الاتصال بهؤلاء وطول تردده عليهم وامتزاج حياته بحياتهم دماثة فى شمائله بما جعله طوال عمره مثالا لحسن المعاملة ولين الجانب ؛ ينفر بطبيعته من كل ما هو خشن . متجافيا عن مواطن الغلظة وسوء العشرة .

وحدث أن مرت بمدينة وارسو الفنانة الايطالية أنجيليكا كاتالانى (Angelica Catalani) احدى مغنيات الدرجة الأولى من نوع الصوت الندى (السوبرانو) ؛ وكانت تقوم بجولة فنية فى أقطار أوربا وأواسطها الفنية . فما كادت تستمع الى عزف هذا الطفل فى وارسو حتى أخذها البهر وتملكها هذا السحر الفاتن فى زهرة الطفولة . وتقديرا لهذا النبوغ ، واعترافا بهذا الاعجاز أهدت الى الطفل ساعة ذهبية نقش عليها « ذكرى اعجاب وتقدير من السيدة كاتالانى الى فردريك شوبان فى سن العاشرة » .

وكانت مؤلفاته الأولى مجموعة من مقطوعات الرقص من أنواع « البولونيز » و « المازوركه » و « الفالس » . وكذلك « مارش » أهداه الى الأمير العظيم قسطنطين حاكم بولونيا وشقيق اسكندر الأول قيصر روسيا . وكان هذا الأمير فى حكمه جبارا مرهوب الجانب ، يخشى الجميع بأسه وبطشه ، ويهابه كل من اتصل به . دعا هذا الأمير ذو القلب الحديدى « شوبان » الصغير ولما يزل فى العاشرة من سنه ، وكان قد استمع الى عزفه ليلة الاحتفال بالشاعر منذ عامين ، فلم تبارح ذاكرته تلك المعجزة الموسيقية التى ما زالت تحبو بأقدام الطفولة ، وتعزف بأنامل تعجز الرجولة . فلما مثل الطفل بين يديه عزف له « المارش » الذى

أعده له . وما كادت النغمات القوية تشيع فى البهو حتى استحال جفاء هذا الأمير وغلظته وصرامة حدته الى رقة ووداعة . وقد تملكت الموسيقى جوانب نفسه فأحالت عنفه لينا ، وخشونته حلما وتلطفا . فأخذ يسير فى البهو مع ايقاع هذا المارش ويتابعه بخطوات قدمية وحركات يديه ، مماشيا للايقاع ومجاريا للنغم ، وهو مأخوذ مشدوه ، وانطبعت آيات الرضا على بسمات شفتيه اللتين قلما عرفتا الابتسام . وبلغ به ذلك أنه ما كاد الطفل ينتهى من عزفه حتى أمر بطبع النشيد ، واستمرار عزفه بصفة رسمية فى جميع الاستعراضات الحربية التى كانت تقام بميدان سكسونيا بمدينة وارسو . وهكذا يسوق الانتصار الفنى لهذا الطفل مجدا رفيعا قبل أن يبلغ سن الماجدين .

ان للعظماء فى حياتهم ما يشبه الغرائب فى آيات خلقهم وتكوينهم ، كأنهم بسجاياهم يعيشون فى عالم آخر غير هذا العالم . لماذا كان « شوبان » الطفل يرفع بصره دائما الى السقف وهو يعزف على آلة البيان ؟.. هذا مالاحظه الأمير قسطنطين عليه وهو ينشىء ويعزف ويبتكر . فقال له : « لماذا أنت دائم النظر الى أعلى ، أتطالع هنالك نوتة مدونة ؟.. » .

لقد كانت الاجابة على هذا السؤال تتجاوز مدارك الطفولة ، ولهذا لم يجب « شوبان » على ذلك التساؤل ، وان ظل عالقا بذاكرته طيلة حياته ...

نعم انه كان يطالع موسيقاه المدونة ، لان سقف البيت المحدود ،

بل فى سقف الكون كله . كان بصره يشاطر قلبه الطموح الى العلا . وكأنما كان يستلهم من عالم الملائكة الرفيع ما يشجى به سمع هذه الدنيا وأهلها .

وقد أكب الطفل على دراسة العزف بالبيان متحنيا بصبر وجلد منقطعى النظير . لفتا اليه نظر كل من عرفه واتصل به . وقد شق عليه فى طفولته أن يعالج بيده الصغيرة وأنامله الرفينة عزف بعض التآلفات الموسيقية المتسعة الأبعاد ؛ والتى تؤدى أصواتها المتعددة فى وقت واحد . ولكن طموح العبقرية لا يقر بالعجز ولا يعرف اليأس ؛ فقد حملته هذه الصعوبات نفسها على أن يلجأ الى الحيلة اذا أعيته الوسيلة . فاخترع جهازا يضع فيه أنامله فيصبح فى مقدوره أداء هذه التآلفات فى يسر وسهولة . وبلغ من طول مزاولته لهذا الجهاز أن كان لا يفارقه حتى على فراش نومه ، كأنما كان يحاول فى الأحلام أن يبتكر الأنغام ...

لم يدفعه الى ابتكار هذا الجهاز حب الشهرة ولا الرغبة فى اظهار غيره بمظهر العجز والقصور عن مجاراته ؛ وانما حدت الى ذلك رغبته فى السيطرة على توافق الأصوات مهما تعذر أداؤها . وقد اشتملت مؤلفاته على الكثير من هذه التآلفات حتى أصبحت هى الطابع الذى تمتاز به موسيقاه ، تلك الموسيقى التى كانت تبدو فى ذلك الوقت كأنها معجزة مستحيلة الأداء ، ولكن مهرة العازفين استطاعوا بطول المحاولات جيلا بعد جيل أن يسيطروا عليها ، وأن يتوافروا على أدائها بما جعلها فى هذا العصر مألوفة لديهم .

ولكن أليس من العجب أن يقوم هذا الطفل بتوسع فنى ساحر تتخبط فيه مواهب عصره والأجيال من بعده فلا تكاد تصل اليه الا بشق الأنفس ؟ ان الطفولة المعجزة هى التى تعجز الرجال وتتعب الأجيال .

وذلك الاستعداد الخارق فى هذا الطفل لتأليف الموسيقى وصوغ الألحان لفت اليه نظر والده بما جعله يعنى بتوجيهه الى استيعاب دراسة هذه الناحية دراسة تدنو الى الكمال ، وان كان لم يدر فى خلده حتى ذلك الحين أن ولده هذا انما خلق ليعيش فى الموسيقى ولها وحدها ، وليصبح ابن بجدتها ، والمجلى فى حلبتها . وانما كان هذا الوالد رغم ما يلاحظه من هذا النبوغ يعد ولده لمرحلة التعليم الثانوى ليأخذ طريقه بعدها الى استكمال دراساته العالية فى أحد فروعها العلمية .

وقد حالف التوفيق هذا الوالد مرة ثانية فى اختيار مدرس صالح لاذكاء شعلة هذا النبوغ وانضاج ثمرته . ففى عام ١٨٢٤ حين بلغ الطفل أربعة عشر عاما وبدأ مرحلة الدراسة الثانوية عهد والده به الى صديقه الموسيقار جوزيف السنر (Joseph Elsner) مدير معهد الموسيقى بوارسو لدراسة الهارمونى وعلم صوغ الألحان ، بعد أن أروى ظمأه بمعرفة أصول الموسيقى وقواعدها الأولى على يد « زيفنى » الذى دعم نبوغه ، وأحسن تربيته ، وكشف الستار الأول عن عبقريته .

كان « السنر » من سيليزيا الألمانية معدودا من أقطاب هذا



چوزيف السنر
(المعلم الثانى لشوبان والمشرف على توجيهه بعد ذلك)

الفن . يعرف له العدد الكبير من المؤلفات الموسيقية فى أنواع الأوبرا والسيمفونى والأغانى . والى هذا الموسيقار الممتاز والمربى القدير يرجع الفضل فى انضاج عبقرية « شوبان » وتغذية الهامه ، فما كاد يتصل الاستاذ بتلميذه حتى هاله ما أنس فيه من نبوغ خارق واستعداد بعيد الغور للابداع والانشاء وطابع خاص فيما يبتكره ويبدعه . ومن ثم تعهده بمزيد التثقيف وحسن التوجيه . وأخذت العلاقة بينهما منذ هذه الآونة تتوثق حتى استقرت بينهما رابطة روحية جمعتهما مدى الحياة .

كان من حكمة « السنر » أن يغض الطرف عما قد يبديه تلميذه من الخروج فى صوغ تآليفه الموسيقية على القواعد المعروفة والأصول الموضوعة ، فاذا ما حاول أحد أن ينبه شوبان الى هذا صاح فى وجهه « السنر » قائلا : « دعوه فى سلام الفكر وسكينة الروح . انه يخرج على المعتاد لأن عبقريته غير عادية . صحيح أنه لا يلتزم الأصول القديمة ولكنه يعوضنا عنها أصولا مبتكرة ليست أقل منها شأنا . انه ليضفى على مؤلفاته طابعا خاصا أكسبها من الميزات ما لا نجده فى سواها الى الآن » .

لقد كانت حكمة « السنر » كسياسة « زيفنى » قائمة على بناء الشخصية والمحافظة على كمال الحرية ، تلك الحرية الفنية التى يطير الفنان فيها بجناحيه الى كل أفق دون أن تكبل مواهبه بسلاسل القواعد وأغلال الأساليب الموروثة . وكان توجيه « السنر » القائم على اطلاق يده فى الابتكار من أقوى الدعائم التى قامت عليها عظمة « شوبان » فى المستقبل . فقد امتدت به قدرته الى مدى

بعيـد فى قوة التصرف والابتكار ، والتفريع الملهم على الأصـل البسيط المحدود والجملة الموسيقية الموجزة ، مما يسحر الألباب ويأتى بالعجائب . فاذا ما جلس الى آلة البيان وأعطى فكرة أشبه بالفقرة الصغيرة من موسيقى موتسارت أو بيتهوفن أو غيرهما استطاع أن يمضى فى عزفه على تلك الآلة ساعات متتالية ، وهو يبنى على تلك الجملة اليسيرة ويبتكر فى مهارة تأخذ بمجامع القلوب ، وفى ألوان ساحرة من الألحان التى تجعل المرء يعجب وهو مأخوذ يتساءل بينه وبين نفسه كيف تتاح لأنامل الانسان أن تستخرج من هذه المفاتيح الصماء هذا الفن المعجز والنغم الساحر والابداع المنقطع النظير . بل لقد أثبت « شوبان » بهذه المقدرة الرائعة على هذا التفنن أنه موسيقار شاعر فى وقت واحد . وان من الشعر ما هو موسيقى ان لم تنطق بالكلمات نطقت بالألحان والنغمات .

الصبا النابه

ان العبقرية تفرض نفسها حيثما وجدت ، وتحتفظ بمكانتها آنى ظهرت . وتأبى العبقرية الا أن تكون صاحبة المكانة والامتياز حتى فيما لم تخلق لأجله لأنها كما قيل « سراج ينير حيثما وضع » .

فهذا هو « شوبان » صاحب الطفولة المعجزة فى الموسيقى ، وفى الموسيقى وحدها . يأبى الا أن يكون هو « شوبان » المتفرد بالشخصية الخارقة التى تمزق الحجب وتعلو على المستوى العادى ، وتتخطى الحواجز لكى لا يسبقها سابق ولا يلحق بهـا لاحق ، لا فى الموسيقى وحـدها ولكن فى جميع ما تمتد اليه ظلال تلك العبقرية : وفى أية ناحية كان تجوالها ومجالها .

هذا هو « شوبان » اليافع ما كاد ينتظم فى سلك المدرسة الثانوية حتى أبدى من البراعة فى علومها والفوز فى مسابقاتها ما لفت اليه الأنظار وجمع حوله القلوب بالاعجاب . فما من عام دراسى الا وهو حافل بجوائزه العلميـة والفنية حتى استشرف الجميع الى ما كان ينتظر الفتى النابه من مستقبل باهر يكون فيه آية عصره وغرة جبين زمانه .

ومع هـذا التقدم فى العلوم والفوز فى المسابقات فقد كان « شوبان » الطالب حاضر البديهة ، عذب الفكاهة ، بارع النكتة ، مرحا الى أبعد حدود المرح ، الا ما كان ينتابه أحيانا من الانقباض والحزن العميق . وكان بين لداته وزملائه محبوبا ، يستميل عواطف

الجميع واندفاعهم نحوه • وكان من أسباب ذلك قدرته العجيبة على محاكاة الأصوات وتقليد الحركات وتغيير ملامح وجهه فى خفة ومهارة تثيران الضحك والاعجاب • ولعل هذا يكشف عن بعض أسرار نجاحه فى خلق الموسيقى الكاشفة لجميع الصور الانسانية : ومستودعات المشاعر النفسية ، ومختلف النزعات والملكات والاتجاهات • فالقدرة على المحاكاة فرع الادراك لما يحاكيه ، ونتيجة التعمق فى الكون الذى يصوره • أو بتعبير آخر يدل هذا على مقدار ما وهبته الطبيعة من الصفاء الذى مكنه من أن يطبع فى نفسه الصور المختلفة بحيث يتثنى له بعد ذلك أن يخرج من ثمار عبقريته ما يلائم جميع المذاهب والألوان والرغبات التى يستشفها من الذين يقلدهم ويحاكيهم •

أو ليس عجبا أن نراه فوق هذه الميزات رساما فكاهيا ممتازا ، يقوم برسم أساتذة مدرسته فى تصوير ينتزع الابتسامة من الواجم والضحك من الحزين !!!• حدث أنه أعد رسما « كاريكاتوريا » لمدير مدرسته الأستاذ « لندا » • وشاء القدر الساخر أن تقع الكراسة ورسومها فى يده • فماذا حدث ؟ هل قامت القيامة ، وزلزلت الأرض زلزالها ، وأعدت العقوبة الصارمة للطالب المتجاوز حده ؟ ••• هذا أول ما يتبادر الى الفكر عندما نقرأ الشطر الأول من هذه الحادثة • فاذا أتممنا شطرها الثانى كان اعجابنا بالمدير المربى لا يقل عن اعجابنا بالفنان • فما كاد المدير يطلع على الرسم حتى أعاد الكراسة الى صاحبها فى صمت الحكماء ، وقد ذيلها قبل امضائه بتلك الكلمة « رسم جيد » • لم يحاول المدير أن يقتل



فردريك شوپان فى عامه الرابع عشر

شعور الطموح والاستعداد الفنى فى ذلك القالب الغض . ولعله توقع أن يرى فى « شوبان » رفائيل آخر يأتى بالمعجز فى التصوير وبالعجيب فى الرسم . ومن أجل هذا نسى أو تناسى أنه مجنى عليه ، وأنه كان موضع سخرية فنية من تلميذه . ولكنه نظر الى المسألة كلها نظرة تربيبية عالية ، لها من السمو ما يفوق التعبير والتصوير .

وهذه القدرة على التقليد جعلت من « شوبان » ممثلا حاذقا . وهل التمثيل الا تقليد الأشياء ونقل حقيقتها الى معرض الخيال المشهود ؟ فكثيرا ما اشترك مع شقيقاته ورصفائه وزملائه المقيمين فى منزله فى اقامة حفلات تمثيلية لمناسبات سنوية عائلية . وهو فى هذه الحفلات نجمها الثاقب ، وفى هذه التمثيليات بطلها المرموق . وفى شتاء عام ١٨٢٤ كان موعد الاحتفال بعيد ميلاد والده فأقاموا لتلك المناسبة حفلا شائقا مثلت فيه مسرحية هزلية ذات فصل واحد ؛ كان الصبى « شوبان » بطلها المتفوق والى جانبه شقيقتاه ايزابيلا وايميلى . ولم يكن قد تجاوز الى ذلك الحين الرابعة عشرة من عمره .

أما العطلات المدرسية فقد كان « شوبان » يقضيها فى قرية سافارنيا (Szafarnia) ، بين أحضان الطبيعة الحنون ، متمتعا بشمس الريف وهوائه ، وسكينة ليله ، وخضرة مروجه ، وظلال أشجاره . بعيدا عن ضجة المدن ومتاعب التحصيل والاستذكار بين المدرسة وذلك البيت الذى كان مدرسة أخرى . وكانت الطبيعة قد أضفت على هذه القرية حللا من مناظر الجمال الساحر

الخلاب بما يوائم طبيعة « شــوبان » ويلائم مزاجــه الموسيقى الشاعر . وكان والده يلتمس له فى ذلك بعض الراحة والاستجمام . وأنى لذلك النبوغ القلق الثائر أن يخلد الى السكينة والدعة ؟ وكيف يطلب من فكر متقد اتقاد الشعلة أن يخمد ولو قليلا ويستكين الى راحة وقتية ؟ .

لقد أبى « شوبان » الا أن يتخذ من العطلة عملا ؛ ومن اللعب جدا . ولكن ماذا يصنع الآن ؟... لقد بقيت مهنة لم يزاولها بعد وهى الصحافة . فليكن اذن صحفيا . وليصدر فى هــذه الفترة الصغيرة مجلة قروية يسجل فيها أخبار القرية التى لا تزال تحتفظ من ذكرياته بعددين من صحيفته المؤرخة عام ١٨٢٤ .

وكان « شوبان » فى هذا الدور من الصبا قد أغرم بنوع من العبث ببعض العقول ، والتفكه بما يقع تحت نظره من الحوادث ، حتى يلعب بألباب الجماهير من حوله . هذا الذى لم تلهه لعب الصبيان فلعب فى صباه بالرجال ، فى غير اضرار ولا اساءة ، ولكن فى طرافة ومزاح هما فن من الفن ...

اتفق روموكى (Romocki) أحد أثرياء الزراع أن يبيع صفقة من القمح لتاجر يهودى . فما علم « شوبان » بالأمر حتى أراد أن يخلق فى الجو دعابة تملأ فراغ الوقت . فكتب الى ذلك الثرى خطابا انتحل فيه شخصية التاجر اليهودى ، واصطنع فيه أسلوبا بولونيا يهوديا ينبئه فيه أنه نتيجة لتفكير طويل فى الأمر عدل عن هذه الصفقة خشية ما يتوقعه من الخسائر فيها . وامعانا فى سبك الدعابة وحبك

التمثيل تصنع رداءة الخط وتعمد الخطأ فى الاملاء • وقد نجحت الحيلة فان الثرى ما كاد يقرأ الرسالة حتى استشاط غضبا ؛ ودعا اليهودى ؛ وأخذ يكيل له السب والتقريع ؛ وقد هم بضربه لولا أن تداركه « شوبان » وأبان جلية الأمر •

ومما يؤثر عن طرفه فى هـذه السن المبكرة أنه كان باحدى ضواحى وارسو كاهن بروتستانتى يدعى تزنر (Tezner) • وكان يلقى عظاته أيام الآحاد ، بالألمانية حينا وبالبولونية حينا آخر • وكان هذا القسيس فيما ينتحل من اللغة البولونية يتكلف فى حديثه لهجة ريفية تشوبها الركاكة والضعف والابهام• ودفع حب الاستطلاع « شوبان » الصبى الى أن يغشى هذه الكنيسة ليستمع فيها الى حديث ذلك الكاهن والى أسلوب لغته الطريف • وقد أصغى اليه فى امعان وفحص ونقد ، حتى اذا عاد الى منزله شكل من المناضد والمقاعد منبرا قام عليه فى هيئة الخطيب ؛ وقد وضع على رأسه شعرا مستعارا ، ونادى أفراد أسرته • فلما اجتمعوا اليه بدأ يلقى عليهم موعظة دينية فى لغة بولونية ركيكة حاكى فيها أسلوب ذلك الكاهن ، بما جعل قهقهة المستمعين تملأ أجواز الفضاء •

أمامداعباته الموسيقية فقد جمعت الى الفن الطرافة ، والى المداعبة الجد ، والى التسلية الاصلاح والتقويم •••

عاد يوما الى منزله ، وكان والده متغيبا فى بعض شأنه ، فرأى بين نزلائه هياجا وشغبا وعجز المدرس الذى كان بينهم اذ ذاك أن يغير من الأمر شيئا ؛ أو أن يسكن ثائرة هذه الضوضاء • فلما

أقبل « شوبان » اقتحم هذه المظاهرة وتسلل من فجواتها الى مقعده أمام آلة البيان ، وجلس يداعبها بأنامله . وما كادت النغمات الأولى تقرع أسماع الثائرين حتى سكن ضجيجهم ، وأقبلوا على ألحانه ، وكأن شيئا من وراء الطبيعة أسكت أصواتهم ليعلو صوت الموسيقى . ثم انتهض « شـوبان » وأطفأ أنوار البهو و قال : « اليكم هذه القصة التى سأحدثكم عنها بأنغامى لأعرف أيكم يستطيع أن يتابعنى فيها ، ويدرك تصوير مشاهدها » . ثم أخذ فى عزفه يصور عصابة من اللصوص قد أقبلت على منزل ... لقد تسلقت سلما الى النافذة ... هاهم أهل المنزل يشعرون بوجودهم ... ما يلبث اللصوص أن يرتدوا عن المنزل بغير انتظام ... انهم يفرون الى لفائف أشجار الغابة ... لقد أضناهم النصب فجلسوا ، وتغلب عليهم النوم فمالت رؤوسهم ... ثم أخـذ « شوبان » يتدرج فى رقـة العزف وخفوت الصوت ، كأنما كان يردد لحنا لتنويم الأطفال ، حتى أحس أن جميع أولئك المستمعين من حوله قد داعب أجفانهم النوم . وفى هذا الوضع العجيب غادرهم « شوبان » ليدعو والدته وشقيقاته لمشاهدة هذا المنظر . ولما تابعنه ، وبأيديهن الشموع المضاءة ، رأين من الأوضاع المضطربة فى منظر هؤلاء النائمين ما يضحك الثكلى . ثم تقدم « شوبان » الى البيان فأرسل من عزفه أصواتا عالية أيقظت هؤلاء النائمين من سباتهم العميق وأزعجتهم فى رعب ، وتركتهم فى حيرة من أمرهم ، لا يعلمون أنهم كانوا موضوع القصة ، وأنهم لصوصها الرمزيون الدين اقتحموا

سكينة الحياة المنزلية . حتى ردتهم الموسيقى الى ما يشبه الغابة من سكينة وسلام ...

. . .

لم يعد « شوبان » الناشيء يأبه باحياء الحفلات العامة ومظاهرها فقد أصبح موسيقارا ، شاعرا ، فنانا ، يهتم بالانشاء والتأليف ؛ لأن ذلك هو سبيل اظهار الثمار الفكرية التى تعد حقيقة بارزة فى حياة العباقرة ؛ وهى التى تحييهم وتخلد ذكرهم . وهى لديهم أهم من تلك السعادة الوقتية التى تنطوى عليها تلك الحفلات ، أيا كانت عظمتها وشأنها .

أخذت الألحان تتزاحم كالأمواج على رأس هذا الصغير ، وتملكته قائما وقاعدا ، على تعاقب الصباح والمساء . وقد حمله ذلك على ايثار العزلة ليخلو بنفسه وينفرد بعبقريته ، بعيدا عن الشواغل والضوضاء . وكثيرا ما سهده هذا التأليف فبقى الى ساعات متأخرة من الليل وهو نهب لحوافز الالهام ونوازع العبقرية . فما يكاد يستقر على فراش نومه حتى تنتزعه من سريره فكرة لحن لم يتم وتآلف لم يتضح تعبيره ، أو تقديم لم يكتمل تصويره ، فيقفز الى آلة البيان ليوضح الفكرة ، ويكمل التصوير والتعبير . وبعد أن يعزف بعض تآلفات يربط بها ما تباعد من حلقات خواطره يعود الى فراشه . فما يكاد يستقر قراره حتى يثب كره أخرى من سريره الى بيانه ليتثبت من فكرة لحن آخر أقض مضجعه حتى نبا به عن الفراش ولم تغمض بعد عيناه .. وهكذا يقضى الليل متقلبا ، فى ذهاب وجيئة بين سريره ومعزفه ، وهو قلق مأخوذ الخواطر

مسلوب الراحة . ومن مطالب العظمة فى حياة العظماء ما هو أشد على حياتهم من النوم على أوكار الأفاعى . وما أشد الحيف الذى يقع على أجسامهم . ويعرض صحتهم للسقم ؛ وزهرة حياتهم للذبول .

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

لقد كان منظر « شوبان » فى الليل الساجى . وتقلبه بين أحلامه وأنغامه مما يثير عجب الخدم ويريبهم فى أمره ويجعلهم يظنون به الظنون . وقد يتهمونه بالجنون فيرغبون الى أهله فى أن يعرضوا أمره على أطباء الأمراض العقلية .

وكان من مزايا الطفولة النابهة فى حياة « شوبان » أنه ما يكاد يمضى مع والده فى نزهة خلوية ؛ أو ينصرف الى الريف فى عطلة مدرسية . حتى يرسل نفسه وسمعه فى طلب كل أنشودة تنفرج عنها شفاه أهل الريف ؛ أو صوت ينطلق من مزامير القرى . وكانت تلك الأغانى الفطرية أحب الأصوات الى سمعه ؛ وأنفذها الى قرارة نفسه ؛ وأثبتها فى خياله وذاكرته . وكم كان يتساءل فى لهفة المشتاق : أى موسيقار ساحر أخرج هذه الألحان ؟.. ومن الذى أبدع تلك الأغاريد الشعبية التى ترقص المشاعر مع ألحانها ؟.. ومن الذى علم سكان الريف هذا الفن القويم فى سلامة أدائه واستقامة عزفه ؟...

وما من أحد كان يستطيع أن يحير جوابا على هذه الأسئلة ؛ ولكن الجواب الصحيح أن تلك الأغانى القروية والألحان الشعبية

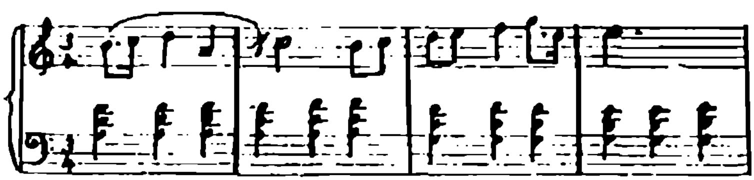
ليس تأليفها ولا تلحينها مما يمكن أن ينسب الى احد من الناس بعينه . انما هى مشاعر فرد غنى بما أحس ، فاستمع اليه ثان فردد الغناء وأضاف الى اللحن ما شاء ، ثم أنشدها ثالث ، وتلقفها رابع ، وعدل فيها خامس وسادس ، وتناقلتها شفاه الى شفاه حتى صارت من الشعب والى الشعب . ولقد ولدت هذه الأغانى وربيت فى مهد الطبيعة تحت سقوف من الغاب وظلال الأدواح والأشجار ، وبين خضرة المروج وانبثاق المياه المتدفقة . فهى الهام الطبيعة ، وهبة الفطرة لأناس أميين لم تتعقد أفهامهم بتراكيب القواعد وتجاعيد المشاكل العلمية . فهم يرسلون اللحن على سجيته فى يسر الطبع وسلامة الطوية . ثم هم بعد مجهولون ، وسيظلون كذلك مجهولين ، لأن ما أرسلوه من جمال تلك الأغانى لم يكن الا ثمرة احساس الشعر والموسيقى فى حياة الانسان . وهكذا تنشىء الطبيعة فى كل قرية وفى كل حقل ، وفى كل رابية وبادية ، معهدا موسيقيا ، أساتذته الطبيعة ومناظرها ، وألحانه الحياة وخواطرها ، وتلاميذه أولئك الأطهار الأنقياء الذين يعبرون فى تلك الأغانى الشعبية عن شعور الشعب الذى لا تكبته هموم الحياة ولا العمل المضنى الثقيل ليل نهار . بل التعبير الموسيقى الشعرى هو الذى يخفف أعباء الهموم ويهون مشاق الأعمال ، ويجعل كفاح الشعب رياضة محبوبة وتسلية مرغوبة .

كل تلك الفضائل الشعبية المصورة فى بساطة تلك الألحان هى التى وجد فيها « شوبان » الصغير سعادته الكبرى . وهى التى اختزن منها فى ذكرياته الشىء الكثير ، وكانت هى الكنز الذهبى

الذى وعته ذاكرته وهضمته عبقريته • واستطاع أن يستثمر من ثروتهـا النفسية ألوانا من موسيقى الرقص الشعبية وألحانا من تلك الأغانى : أحكم تنسيقها ، وأبدع تركيبها الفنى على أصول عجيبة هى الاعجاز فى فن توافق الأصوات •

وبحسبك أن تمعن فى مقطوعته المازوكة لامينير مصنف ١٧ رقم ٤ • وهى وان كانت تبدو متأخرة الترتيب بين مطبوعاته الا أن مرجعها تلك الآونة التى تأثر فيها بحياة أهل الريف ، وما يرسلون من تلك الأغانى والأغاريد فى مجتمعاتهم ومواسمهم وأفراحهم ولياليهم المرحة الهنيئة التى تشاطرهم الطبيعة أسمارها وجمالها •

واليك منها هذا المثال الذى تقف منه على مدى تأثره فيها بألوان الحياة الشعبية :



وما كاد هذا الناشىء النابه يبلغ الخامسة عشرة حتى سبق نبوغه سنه • وكأن الأيام من حياة النابغين هى السنوات من حياة غيرهم • لقد ذاع اسمه وطبقت شهرته آفاق بولونيا • ولو أنه كان فى نبوغه هذا فى اكتهال العمر أو تقدم السنين لعد ذلك عجيبا ونادرا ، على الرغم من أن الكمال والنضوج يلازمان الكبر • ولكنه نبوغ مبكر

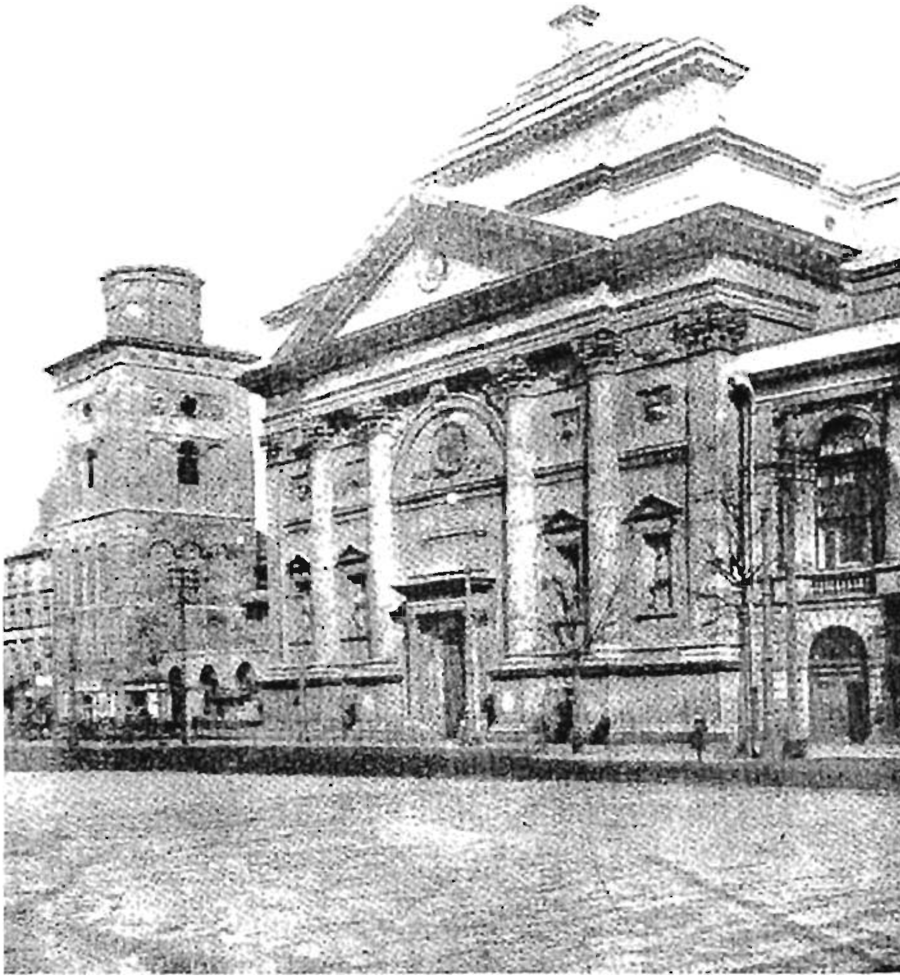
يثير العجب وما فوق العجب . لقد استولى « شوبان » ، الصغير فى سنه ، الكبير فى فنه ، على الأوساط العامة والطبقات الراقية ، وأصبح تفوقه الموسيقى ونباهة شأنه مثار حديث الجميع فى كل غدوة وروحة ، وفى كل ندى وملتقى . وأصبح نجاح كل حفل موسيقى فى وارسو رهنا بسطوع نجمه فيه . ومن ذلك حفلان أقيما لمشروعات البر فى السابع والعشرين من مايو وفى العاشر من يونيه عام ١٨٢٥ فى معهد الموسيقى . وكانت ألحان « شوبان » وسحر عزفه على البيان أقدر من كل بيان على اثارة عواطف البر واهاجة أحاسيس الخير : مما كان له أعظم أثر مرضى .

ومن أحداث تلك السنة نفسها أن قدم لزيارة وارسو اسكندر الأول قيصر روسيا لافتتاح مجلس الأمة البولونى . وكان قد ظهر فى الأفق آلة موسيقية أخترعها أحد مهرة هذا الفن وأطلق عليها اسم « ايلوميلوديكون » وهى معزف جمع بين مزيتى الأرغن والبيان . ورغب القيصر فى الاستماع اليها . وقد وقع الاختيار على « شوبان » ليقوم بالعزف أمام القيصر على تلك الآلة الجديدة ، اذ كان يتمتع من المقام الفنى بما لا يتطاول اليه غيره ، وقد وضعت هذه الآلة لتلك المناسبة فى الكنيسة الكاثوليكية حتى يكون لعظم قبتها أثر كبير فى تضخيم ما ينبعث من أصواتها ... وهكذا أتيحت الفرصة مرة أخرى ليسطع ذلك النجم الصغير فيبهر بسحره الأسماع ، ويملك ألباب القياصرة . فما أن دارت أنامله على مفاتيح ذلك المعزف حتى دارت معه العقول ، وسيطرت أنغامه على المشاعر والأحاسيس . وأعجب قيصر الدولة بقيصر الموسيقى . وأبى الا أن

يعبر عن اعجابه بصورة جديرة بهذا الفنان فأهدى الى تلك الأنامل التى بهرته خاتما من الماس يجمل مظهرها بقدر ما جملت الموسيقى بحسن ايقاعها وبارع عزفها .

وفى تلك السنة أيضا صدر مصنفه الأول ، وهو مقطوعة « روندو » مهدى الى السيدة « لندا » قرينة مدير مدرسته الثانوية . واذا لم يكن هذا المصنف وما تلاه من مصنفاته الباكرة ، فى حداثة سنه ؛ قد بلغ من القوة ما يتخطى بشهرته سماء بولونيا فحسبه أن هذه المؤلفات كانت هى الآيات الأولى التى نشرت اسمه وأذاعت شهرته فى جميع أرجاء وطنه ؛ ومنحته المكانة الممتازة ، والمقام المتفرد ، والغاية التى لا تدرك . وشهد الجميع له بالنضوج الفنى وان كان لا يزال لدن العود أخضر النبات .

وتلك المصنفات البارعة وما دلت عليه من شواهد العبقرية وآثار النبوغ الفذ أقنعت والديه بتغيير رأيهما فى مستقبل فتاهما الصغير . فقد ظنا فى بداية الأمر أن شأن الموسيقى مع « شوبان » ولدهما لا يتعدى أن يكون ضربا من الهواية ولونا من الترفيه ؛ الى جانب دراسته الثانوية التى تعده لاستكمال دراسته العالية والتخرج فى باب من أبواب المهن العامة . أما الآن وقد تبينت لهم الآيات ؛ ووضحت البينات ، على أن الطبيعة تعد « شوبان » ليكون اللحن الفريد فى عصره فلم يكن لهما بد من أن يخضعا فى أمره لسلطان الموسيقى ؛ ويضعا مستقبل ولدهما الحبيب فى يد الموسيقى ؛ والموسيقى وحدها ، لتكون مهنته ويكون ربيبها ورسولها الذى يبلغ رسالتها للعالم . ومنذ ذلك الحين لم تعد العقبات والحواجز



معهد الموسيقى بوارسو (الى جانب برج اجراس كنيسة برناردين)
مديره الأستاذ چوزيف السنر
وقد التحق به شوپان من سنة ١٨٢٦ الى سنة ١٨٢٩

تقف فى سبيله وتعترض تقدمه : فقد أصبح خالصا مخلصا لحبيبته الوفية آلة البيان ، يسجل فيها أسرار نفسه ، ويودعها روائع الهامه ، ويملى عليها أحلام شاعريته • وكان ذلك بطبيعة الأمر عاملا جديدا فى المزيد من شهرته ، والاعلاء من مكانته ، وتعلق الطبقة الراقية به ، والتفاف زملائه طلاب المعهد الموسيقى والمدرسة الثانوية من حوله • ولم يكن بين لداته وزملائه من طلبة ذلك المعهد من يتطاول الى مساماته أو يطمع فى مجاراته ، فقد بلغ من تقدمه السريع المعجز فى هذا الفن ومقدرته الغريبة فى العزف بالبيان ما جعل هؤلاء جميعا يبايعون هذه الموهبة الجبارة ، ويقفون من صاحبها موقف التلميذ من أستاذه ••• هذه الموهبة السحرية كانت تجتذب اليه قلوب الجميع ، وتلقيهم بين يديه مسحورين ؛ مأخوذين بذلك التفوق الباهر ، متندرين بمزاحه ومداعباته وصوره الفكهة ، برحابة صدر وحسن قبول • على أنه كان فى كل ذلك مثالا من رقة الطبع وجمال الخلق • وقد أسلفنا أنه ربيب بيت النبل ، ونديم الأمراء ، وأنيس الأشراف والعظماء • ومن هذا شأنه فلن تكون أخلاقه ومعاملاته الا مقطوعات موسيقية غير معزوفة •••

على أن وقت « شوبان » لم يعد يتسع لغير « شوبان » • وقد أخذت المشاغل تتزاحم على ليله ونهاره ، وتملك عليه قياد نفسه ، وتأخذ عليه سبيل الراحة والسكون • فهو من بكرة نهاره الى الغروب بين التحصيل فى مدرسته الثانوية والدراسة فى معهده الموسيقى • حتى اذا عادت الطيور الى أوكارها ، وأسدل الليل أستاره ، عاد هو الى آلة البيان التى تنتظره فى لهف وشوق فخلا اليها

يبثها نجواه . ويسألها أن تترجم مشاعره وابتكاراته . ولاينقضى ليله الا فى التنقل بين فراشه ومعزفه ، فهو يقظان حتى فى نومه ، ساهر حتى فى أحلامه . لا يغتمض جفنه ولا يجد الهدوء طريقا الى تفنه القلقة المتوثبة الى المجد الذى يكلفه الثمن الغالى . وسيدفعه لا من فضــة ولا من ذهب بل من جسمه الرقيق وبنيته الشفافة وسنه الباكرة . وهكذا تأثر ذلك البدن الناحل ، وبدأت آثار الاجهاد تبدو عليه ، فنصح له الأطباء أن يرافق شقيقته الصغرى المريضة الى حمامات راينرز (Reinerz) فى سيليزيا ، لينال قسطا من الهدوء والاستجمام . وقد بدأت العطلة الصيفية لعــام ١٨٢٦ فسافر مع شقيقتيه لويزا وايميلى ووالدتهم الى تلك الحمامات .

وحدث أثنــاء اقامتهم أن توفيت أرملة فقيرة جاءت الى هذه الحمامات طلبا للاستشفاء ، فوافاها الأجل المحتوم ، تاركة وراءها طفلين صغيرين لايجدان من يرعاهما فى المحنة القاسية سوى خادمة وفية بقيت الى جانبهما ، وهى لاتجد من المال مايكفى لمواراة الجثة الهامدة طى الثرى ولا للضرورى من نفقات العودة باليتيمتين .

ومن ذا الذى يأسو هذه الجراح الدامية ويجفف بعض هذه الدموع التى تتقاطر فى غزارة مياه الحمامات من أجفان خادمة بائسة وصغيرين ليس لهما فى هذه البقعة وطن ولا قربى ؟.. من ذا الذى يأخذ بأيدى هؤلاء المساكين وهم أمام تلك الأرملة الطريحة جسدا هامدا على سرير موتها المبلل بدموع أولئك الثلاث من حولها ، وتلك الأنات مهما ارتفعت بالصياح والعويل فلن تجد فى هذا المجتمع

الصـــاخب من يصغى اليهـــا أو يلتفت بنظرة عاطفة الى أصحابها التعساء ؟٠٠

لئن خلت قلوب أولئك من الرحمة فثمت قلب واحد يستطيع أن يتجاوب مع تلك الأحزان ليرد حزنها اطمئنانا ، ويأسها أملا ، وحيرتها رشدا ، ذلك هو قلب «شوبان» الذى رثى للأسرة والمصاب فأقام حفلا خيريا لمعونة أولئك البـــائسين ، وقد أقبل الأشراف والنبلاء والطبقة العليا من المصطافين على هذا الحفل الذى تطوع به الموسيقار الناشىء جنديا أمينا للانسانية المنكوبة ٠

وهنا تتحير الجماهير المتدفقة بين الاعجاب بفن « شوبان » فى الموســـيقى وبين العجب من حنـــوه وأريحيتـــه النـــادرة ومروءته الفائقة وانسانيته التى نسى فى سبيلها ما من أجله أقبـــل هو وأسرته الى هذه الحمامات ، وكل ذلك قد لايكون عجبا من موسيقار يعزف ، أو موسيقار يتبرع بحفل ، أو موسيقار يكلف نفسه فوق طاقتها ويدعو الناس الى صنائع المعروف ، ولكن الأمر يبدو فوق العجب من موسيقار يتقدم الصفوف وهو فى سن لا تعدو فجر الشباب الذى لايصمد لمثل هذه الأعباء ، وهى ترهق الكبار وتعد من كبرى أياديهم لو فعلوها ، ثم ينقضى الاستغراب ؛ وينقضى كل عجب اذا علمت أنه « شوبان » ٠

وبعد مضى أيام على اقامة هذا الحفل الخيرى غادر « شوبان » حمامات زاينرز وتوجه تلقاء قرية « أنطونين » ليقضى بتلك القرية بضعة أيام فى قصر الأمير أنطون رادزويل «Anton Radziwill» وهو من ثراة الأشراف ، ينتمى الى الأسرة المالكة البروسية ، بقدر ما كان

يمت بنسب عريق الى أسرة الموسيقى . ولم يكن الشأن فى هذا الأمير ينتهى عند مجرد حبه للموسيقى وحدبه على أهلها ؛ بل كان ذا ثقافة ممتازة فيها . متعمقا فى تفهم أصولها : عالما بفن التأليف وصوغ الألحان . وقد ذاعت فى ذلك شهرته وتخطى صيته الآفاق حين وضع لحنا خالدا لشعر « جيتا » فى الجزء الأول من فاوست . وقد بلغ من قيمة هذا اللحن الفنية أن أكاديمية الغناء ببرلين أمرت باستعراض هذا اللحن سنويا . وكان الأمير فوق ذلك ذا صوت حسن من نوع الصداح (التينور) الممتاز ، بقدر ما كان يجيد العزف فى مهارة فائقة على الكمان الجهير (الفيولنسل) . وهذا ما جعل قصره ندوة حافلة بالموسيقيين : ومجتمعا يضم البارزين منهم . وهم يقبلون اليه من الأطراف والجهات فيعرضون ويستعرضون . ومايكاد أسبوع ينقضى دون أن تدوى فى هذا القصر المنيف احدى المقطوعات المثالية الشهيرة من موسيقى هايدن وموتسارت وبيتهوفن : يساهم الأمير فى أدائها بغنائه أو عزفه . وقد كان قدوم « شوبان » الى هذا القصر تلبية لرغبة هذا الأمير . وكان لاقامته فيه وفى محيطه الريفى الارستقراطى أكبر الأثر وأجاه على نفسه وجميع مشاعره . فقد نسى هنا كل شىء من دنيا الناس والحياة ؛ وشعر بالجمال المطلق يتجاذب روحه فى عداد المناظر والألوان ، وقد فتح قلبه لجمال الزهر الانسانى يشاهده ويحييه واتجهت شاعريته الى أن وصف هذا القصر بأنه الفردوس .

ولما تجلت للأمير عبقرية «شوبان» وموهبته النادرة أدنى منزلته ، وقرّب مكانه ، وحباه بموفور الرعاية مدة اقامته . وقد توثقت

أواصر المودة بينهما حتى ان الأمير عندما زار وارسو عام ١٨٢٩ فى مناسبة تتويج القيصر « نيقولاس » لم يفته أن يحبو « شوبان » الفتى الناشىء بزيارته فى منزل أبويه . ملحا عليه ألا ينسى زيارة « أنطونين » كلما بدا له .

واستحكمت روابط الألفة بينهما : وأضفى عليه الأمير الكثير من العناية والاهتمام مما حمل بعض المؤرخين على الاعتقاد بأنه هو الذى تولى الانفاق عليه فى بقية مراحله الدراسية . الى أن بعثه على نفقته أيضا الى ايطاليا . وكان الموسيقار « لست » بين أولئك الذين أثبتوا فى مؤلفاتهم هذا الرأى ؛ دون أن يقوم على سند أو برهان سوى ما اعترف به هو من معلومات استقاها بهذا الصدد من أحد مهاجرى البولونيين فى باريس . وهذا القول يخالف فى جملته عين الحقيقة التى كشف عنها التاريخ فى غير ريبة ولا خفاء . فقد أنكر ذلك جميع من اتصلوا بشوبان اتصالا قريبا ، كما استنكره أبواه ونفياه نفيا قاطعا لا يحتمل شكا ولا ابهاما . والواقع أن « نيقولاس » والد « شوبان » لم يكن من العسر بما يذهب اليه خيال أولئك المؤرخين ، فقد كان يحصل على دخل وافر من ثلاث معاهد حكومية بوارسو هو أستاذ فى كل منها ، علاوة على مدرسته الداخلية بمنزله على ما أسلفنا بيانه . فلا يتصور بعد هذا أن يقف به العسر وضيق ذات اليد عن مواصلة الانفاق على وحيده « فردريك » الذى كان مطمح الأنظار ، ومحط الآمال ، والسبب فى شهرة ذلك الوالد والأسرة بأجمعها . وكان «شوبان» الشاب مغمورا بالهبات ، يسبح فى بحر من النعم . وكانت الهدايا تتوالى عليه من الملوك والأمراء

والأشراف . كما أن رحلاته مؤيدة جميعها برسائل متبادلة بينه وبين والده ؛ وكلها تنطق بما كان يسبغه عليه والده من البر ؛ وقد كان يبذل له عن وسعة وطيب نفس كل ما يحتاج اليه من المال فى تلك الرحلات . ومن الناحية الأخرى فان المكاتبات العديدة المثبتة بينه وبين أمير « أنطونين » جاءت خالية من كل اشارة الى هذه الناحية المادية .

وانما جمعت بين « شوبان » والأمير ألفة روحية لا أثر فيها للنفقة والاتفاق ؛ ولا مجال فيها للأخذ والعطاء . وهى تلك الألفة التى دفعت بشوبان أن يهدى الى الأمير مقطوعته المعنونة « ثلاثى للبيان والكمان والكمان الجهير (الفيولنسل) » وأعنى المصنف رقم ٨ بين مجموعة مؤلفاته ؛ وهو تلك المقطوعة التى بدأ وضع ألحانها عام ١٨٢٧ .

* * *

هذه هى الصورة المثالية لنشأة العبقرى الذى أرانا فى صباه أعجب المشاهد وأروع المناظر وفى جميع نواحى الحياة ، التى تقلب فى مذاهبها وتغير على مناهلها ، واختلف الى مناظرها ، وكان فيها مثال الصبا النابه الذى يلتهب نبوغا ويلتمع اشراقا ونحفرا . فيبدى البراعة فى كل شىء يحيط به وفى كل معنى يلقاه ، على نحو ما صورناه .

وهكذا تمهد رسالة الصبا النابه لأداء رسالة الشباب العبقرى ..

الرحلة إلى برلين

فى عام ١٨٢٧ اجتاز « شوبان » الامتحان الأخير لدراسته الثانوية فى مدرسة وارسو . ولم يكن نجاحه هذه المرة قد بلغ التفوق والامتياز اللذين تعود أن ينالهما فى امتحاناته السابقة تلك التى كان يمنح عليها الجوائز ويتقلد بها شارات الفخر بين أنداده وزملائه . فان تفرغه للموسيقى فى المدة الأخيرة وتفانيه فى الاقبال عليها ومواصلته الليل بالنهار فى تحصيلها والانتاج فيها : بعد أن اقتنع أبواه بأنها سبيل مستقبله ومستقر حياته ... كل ذلك قلل من شأن الامتحانات المدرسية الثانوية . وقد كان خيرا له أن يتفوق فيما خلق له ، من ذلك التفوق الذى تقتصر نباهة الشأن فيه على وسط مدرسى محدود . وكان ذلك نتيجة أيضا لما اختصه به أستاذه الموسيقار « السنر » من استيعاب مؤلفات أعلام الموسيقى وتشجيعه على أن يطاوع عبقريته ويطلق لها العنان فى مجال التجديد والابتكار .

وقد استقرت النية منذ الآن على أن لا تقتصر دراسته الفنية على موسيقى وطنه : بل لابد لمثل « شوبان » فى نبوغه غير العادى ألا تحتجز عبقريته الشاسعة فى أفق بولونيا المحدود . وبدت للمشرفين على أمره ضرورة اشخاصه خارج هذا النطاق من البلاد الأخرى ليوسع دائرة معلوماته ؛ ويزيد من قوة اختباره وينمى ملكة اطلاعه ، ويتعرف الى أقطاب الموسيقى ونجومها البارزين

لتنعكس على مرآة نفسه صورة جلية من نبوغهم ومواهبهم ، حتى يستزيد فيزيد . ويستفيد فيفيد .

ومما لا مرية فيه أنه قد استمع قبل اليوم الى الكثير من الفن الأجنبى الذى كان يؤديه مهرة العازفين ومشاهير المغنين عند زيارتهم لوارسو . ولكن ذلك لم يشبع طموح « شوبان » الى العيش فى أجواء العواصم الأجنبية الكبرى التى يتربع فيها الفن على عرش ملكه : والتى هى دائما ملتقى العبقريات ، والمرحلة الأخيرة للفنون فى كل ما تصل اليه من تقدم نحو مثلها العليا . فتحين أبواه الفرصة لارساله الى برلين أو فينا ليقضى فيهما ولو بضعة أسابيع . وقد تحقق ذلك فى عام ١٨٢٨ حيث دعى الأستاذ ياروكى (Jarocki) لحضور مؤتمر العلوم الطبيعية فى برلين . وكان هذا العالم موضع ثقة « نيقولاس » والد « شوبان » . فرغب اليه فى أن يكون الفتى العبقرى فى صحبته . وقد سر « ياروكى » بأن يكون رفيقه فى الطريق وأنيسه فى الرحلة شاب يتألق نجمه سطوعا مثل « شوبان » . ولأول مرة شهدت عين هذا الفتى نور الحياة الجديدة فى العواصم المليئة بما يغذى طموحه ويشبع روحه الظامئة الى المجد الخالد .

وقد كان هذا النابغة الفتى من التواضع بما جعله لا يفكر وقتذاك فى أن يظهر فى برلين عازفا أو مؤلفا . ولكننا نستطيع أن نصور مبلغ ابتهاجه ومقدار سروره بهذه الرحلة فى تلك الرسالة التالية التى كتبها الى صديقه تيتوس فويسكوفسكى (Titus Woyeiechowsky) من مدينة وارسو قبيل سفره قال :

عزيزى تيتوس !

انك لاتدرى مدى أشواقى الى ترقب أنبائك وأنباء والدتك ، ولهـذا فانك لا تدرى مـدى ما ألم بى وشمل نفسى من هناءة وسرور عنـدما تلقيت رسـالتك ، فلقـد كنت يوم تسلمتها فى « استريزوفا » التى أمضيت بها مـدة الصيف . ولم تمكنى الشواغل من سرعة اجابتك اذ كنت أواصل الاسـتعداد مترقبا العودة الى وارسو .

انى لأكتب هذه الرسالة اليك وأنا كمن به جنة لأننى لا أعلم حقا أى حادث وقع لى ، فانى مسافر اليوم الى برلين . فقد أصدر ملك بروسيا أمره الى الجامعة باستدعاء الممتازين فى العلوم الطبيعية من جميع ممالك القارة لعقـد مؤتمر تحت اشراف « اسكندر فون همبولد » المشهور . وكان الأستاذ « ياروكى » فى جملة من دعوا اليه فهو من الخريجين فى جامعة برلين والحاصلين منها على درجة الدكتوراه ، وكذلك متخصص فى على الحيوان . وحديث هذا المؤتمر يدور على ألسنة الناس بما له من جلال الأهمية وعظيم الخطر . وأهم من ذلك كله لدى ما بلغنى من أن الموسـيقار سپونتينى (Spontini) سيحيى للمؤتمرين حفـلا مشهودا . وقد اختير العـالم لشتنشتاين (Lichtenstein) أسـتاذ « ياروكى » وصديقه الحميم لسكرتارية هذا المؤتمر . وهو فى نفس الوقت عضو بارز فى أكاديمية الغناء وعلى صلة بالموسيقار زلتر (Zelter) مدير الأكاديمية . وقد أكد لى الكثيرون أن الفرصة ستتاح لى عن طريق « لشتنشتاين » للتعرف بأعلام الموسيقى فى بروسيا وبلاطها ،

وآستثنى الموسيقار « سپونتينى » فقد بلغنى أنه على غير انسجام معه • لكن سيكون من حسن المصادفة وداعى السرور لنفسى أن ألتقى هناك بالأمير « رادزويل » فانه على صلة وثيقة بهذا الموسيقار • ولن تمتد بى هذه الرحلة مع « ياروكى » الى أكثر من أربعة عشر يوما • ولكن حسبى أن تتاح لى مشاهدة أوبرا واحدة جيدة الأداء فى عرض كامل •••

وانى مضطر الآن الى اختتام رسالتى اليك فقد تم حزم أمتعتى • ووصلت عربة البريد التى تقلنا وشيكا الى بداية رحلتنا • أرجو أن تغمر بقبلاتى يدى الوالدة وقدميها • واليهما من والدى وشقيقاتى خالص تحياتى ؛ فى أطيب التمنيات لها بوفور الصحة ومأمول السعادة • أما أنت ياعزيزى « تيتوس » فأملى أن أتلقى منك فى القريب رسالة ولو قصيرة فى بضع سطور ؛ فانها مهما تكن موجزة ستحل من نفسى محل الاعزاز والتقدير •

المخلص
فردريك

واذا استطاعت هذه الرسالة أن توضح مبلغ ارتياحه الى تحقيق هذه الرحلة ؛ ففى الرسالة التالية تتبين ذلك الشعور على حقيقته بعد بلوغه عاصمة بروسيا ، وهى الرسالة التى بعث بها الى أسرته منها ، قال :

برلين فى يوم الثلاثاء (١٦ من سبتمبر سنة ١٨٢٨)
الى أحبائى الوالدين والشقيقات !

لقد بلغنا فى سلامة الله هذه المدينة الكبرى فى نحو الساعة

الثالثة بعد ظهر الأحد ، وأسرعنا من عربة البريد الى الفندق الذى نقيم به الآن ، ولا ينقصنى شىء من الراحة والهناءة ، وقد صحبت الأستاذ « باروكى » يوم وصلنا الى السيد « لشتنشتاين » حيث تمكنا من رؤية « اسكندر فون همبولد » ، وهو رجل متوسط القامة ، وتقاطيع وجهه لا تثير الشعور بجمال فيها ، أما جبهته العريضة ونظراته العميقة الفاحصة فهى تنم عن عبقرنه وتنطق بسعة علمه ، لقد تحدث « همبولد » بالفرنسية فى طلاقة تحسبه فيها واحدا من أبنائها ، وأحسب ياوالدى أن هذا هو عين حكمك وتقديرك لو استمعت اليه ، وقد وعدنى « لشتنشتاين » بأن يتيح لى فرصة التعرف الى رجال الطبقة الأولى من الموسيقيين ، وهو يبدى أسفه على أن لم نكن قد حضرنا قبل هذا الموعد بأيام لنشهد حفلا موسيقيا اشتركت فيه ابنته بالأداء مع مصاحبة الفرقة الموسيقية يوم الأحد الماضى ، ولا أظننى كبير الأسف على فوات هذه الفرصة ، وان لم أكن متأكدا من مدى الصواب فى هذا الحكم ، اذلم يسبق لى أنى رأيتها أو استمعت اليها ، وقد أقيم يوم الأحد حفل موسيقى بدار الأوبرا ، ويؤسفنى أننى لم أشهده لأن ذلك كان يوم وصولنا حيث شغلنا أكثر الوقت بزيارة « لشتنشتاين » ، وقد أقيمت بالأمس مائدة فخمة لتكريم العلماء (وقد بدا الكثيرون أمامى فى أشكال كاريكاتورية استطعت تقسيمها الى عدة أنواع) ، ولم ينعقد الاجتماع برياسة « فون همبولد » ولكن كانت الرياسة فيه الى رجل آخر يختلف عنه تمام الاختلاف ، ولا أحتفظ باسمه فى ذاكرتى وان كنت قد احتفظت به فى مذكراتى ، لما كان يبدو من أنه شخصية

ذات شأن . أما اليوم فسأتناول الغداء وحدى . وقد اعتزمت على استئذان « ياروكى » فى أن أستبدل بالطعام مع العلماء الطبيعيين الذهاب الى احدى الحفلات الفنية ، وظنى أنه يوافقنى على ذلك . وانى وحيد فى هذه الساعة تغمرنى سعادة غبية بأن أخصص هذا الوقت للتحدث اليكم . وقد راجت هنا شائعة مؤداها أن پجانينى (Paganini) عازف الكمان الشهير سيقدم الى برلين . وليت هذا يتحقق . ومن المتوقع أن يقبل الأمير « رادزويل » الى هنا فى اليوم العشرين من هذا الشهر . وسيكون سرورى عظيما بمقدمه . وانى حتى الآن لم أشاهد من مجتمعات برلين غير علماء الحيوان ، كما شاهدت جزءا عظيما من أقسام المدينة . وتجولت خلال هذين اليومين فى كثير من شوارعها وجسورها . أما وصفى لفخامة هذه العاصمة الكبيرة وقصورها الشامخة الجميلة فسيكون الحديث المسهب فيه اليكم شفويا بعد عودتى . وكل ما أستطيعه الآن هو التعبير عن مدى التأثير العام فى نفسى لهذه المدينة . ان اتساعها أكثر مما يجب . وفى قدرتها أن تضم أضعاف من يقيم بها اليوم من السكان . وقد أردنا بادىء الأمر أن نقطن « الشارع الفرنسى » وقد سرنى أن ذلك لم يتم ، فهذا الشارع يزيد فى عرضه على أكبر شوارع وارسو فهو بحاجة الى عشرة أمثال من يعيش فيه من الناس حتى يصبح فى الامكان ألا يشعر ساكنه بالوحشة .

وستبدأ اليوم أولى مشاهداتى للحفلات الموسيقية ببرلين . وقد كنت أعد نفسى سعيدا لو أننى قصدت فى بكرة هذا النهار

لأقضى ساعات فى مكتبة « شليزنجر » بدلا من هذا الوقت الذى أمضيه اليوم مع ثلاثة عشر عضوا فى مجتمع من علماء الحيوان • وأعتقد ياوالدى العزيز أنك لن ترمينى من أجل هذا بأننى محدود الثقافة ضيق الأفق فاننى انما قدمت الى هذه العاصمة من أجل الموسيقى وكسب المعارف الجديدة فيها • ومكتبة « شليزنجر » هذه تحتوى على أمتع المصنفات وأوسع المؤلفات لأعلام الموسيقى من جميع البلدان وفى كل العصور • وهذا ما يعنينى أكثر من أية ناحية أخرى • وعزائى الوحيد أنه لن تضيع منى فرصة زيارتى لهذه المكتبة • وانه لمن الخير للشباب أن يشاهد أكثر ما يمكن مشاهدته من الأشياء فانه سيجد الفائدة فى كل شىء يشاهده • ولقد تمكنت صبيحة اليوم من زيارة مصنع « كستنج » للبيان فى نهاية « شارع فردريك » ويؤسفنى أننى لم أجد به آلة تم صنعها • لهذا لم تكن زيارتى هذه ذات جدوى • ولعل من حسن التوفيق أنه يوجد فى الفندق الذى نزلنا به آلة بيان من النوع الكبير الجيد أقوم بالعزف عليها كل يوم ، ومما يزيد فى اغتباطى أن أصحاب الفندق معجبون بعزفى •

أما الرحلة على جملتها فقد كانت أقل بهجة مما كنت أتصور • فهؤلاء المؤتمرون البروسيون غير مريحين • ولكننى بلغت عاصمة بلاط « هوهنزلرن[1] » فى صحة جيدة لا تنقصها الغبطة والمرح • أما رفقاء الطريق فقد تألفت مجموعتهم من أحد رجال القانون من الألمان المهاجرين الى « پوزن » وقد كان يحاول التظرف بنكات

(١) اسم الأسرة المالكة في ألمانيا وقتذاك •

ثقيلة . وآخر من الملاك الأثرياء الذين صقلتهم كثرة أسفارهم .. وقبل وصولنا الى مدينة « فرنكفورت » على نهر الأودر رافقتنا فى عربة السفر شاعرة ألمانية تجر فى ركبها موكبا من حشد المطالب محفوفة بألوان من التذمر المضحك . أما أنا فقد راقنى منظر هذه السيدة وما يحوطها بها من التكاليف والتعاقيد . فقد كان يخيل الىّ أننى أمام منظر متقن من رواية مضحكة . وقد تجلى ذلك عندما بدأت فى شجار وحوار مع رجل القانون أخذ سبيل الجد بدلا من المداعبة والمزاح . فقد كانت تحمل كل كلمة على معناها الجدى ، ثم تأخذ فى تفسيرها . وتجرى الدقة فى تحليلها .

أما ضواحى برلين فانها من الجانب الذى دخلنا اليها منه لا تبدو جميلة . ولكن النظافة والنظام يسيطران فى كل مكان ، ويسبغان عليه روعة الجمال بما يثير بهجة الناظرين . وغدا أشاهد برلين من الجهة الأخرى . كما ستبدأ بعد غد اجتماعات رجال العلوم الطبيعية . وقد وعدنى السيد « لشتنشتاين » بالحصول على بطاقة دخول . وفى المساء يقيم « اسكندر فون همبولد » حفل استقبال يدعو اليه أعضاء المؤتمر . وقد عرض علىّ الأستاذ « ياروكى » أن يحصل لى على دعوة ، فاعتذرت اليه شاكرا لما أشعر به من قلة ما أفيده من مثل هذه المجتمعات التى تتجافى فى عادتها عن ميلى الروحى ، فما أقل بضاعتى من العلم . ولا مرية فى أن هؤلاء العلماء المتخصصين سيتساءلون آخر الأمر عمن زج بهذا الهاوى بين صفوفهم ، أو على حد المثل المعروف « من أقدم الصعلوك الى مجالس الملوك » . وقد شعرت بذلك أثناء وجودى معهم

فى المائدة فقد كان الى جانبى الأستاذ « ليمان » عالم النبات المشهور فى مدينة همبورج وقد أخذ يصوب الى وجهى نظرات عجيبة . أما أنا فقد كنت دهشا من هذه الضخامة الرهيبة فى قبضة يده . وقد كان فى استطاعته أن يمزق بسهولة قطعة الخبز الكبيرة التى كنت أحتاج فى تقطيعها الى استعمال يدى معا والسكين . وقد انحنى على المنضدة ليتمكن من الحديث مع الأستاذ « ياروكى » وفى فورة الكلام اندفع به الحماس ، وغمره ذهول العلماء فنسى الطبق الذى أمامه ، وأخـذ ينقر بأنامله على الطبق الخاص بى . انه عالم ، جد عالم ... أليس كذلك ؟ وحتى ضخامة الأنف التى يجب توافرها فى العلماء لم يحرمه الله مزيتها . وقد كنت فى أثناء هذا النقر قلقا حتى انتهى منه ، فبادرت باستعمال المنشف لازالة آثار أصابعه من الطبق ...

محبكم

فردريك

وقد استغرقت اقامة « شوبان » فى برلين أربعة عشر يوما لم يدع خلالها فرصة للاستماع الى الموسيقى الا انتهزها وبخاصة حفلات الأوبرا . كما أتيحت له فرصة وجوده مع علمين من أعلام الموسيقى هما « سپونتينى » و « مندلسون Mendelssohn » . الا أن الحياء بلغ به درجة لم يستطع معها أن يتقدم اليهما بنفسه . وغادر برلين دون التعرف اليهما . وعاد مع « ياروكى » الى وارسو .

وحدث أثناء الطريق عندما بلغا مدينة «زيلشاو» بين فرانكفورت

ويوزن أن اضطر الى الانتظار بها ساعة ريثما تتغير خيول العربة . وكان فى هذا الموضع فندق ، فقصد « ياروكى » مع « شوبان » اليه لتناول الغداء . وسرعان ما لفت نظر « شوبان » وجود آلة بيان فى الفندق ، فقصد اليها فى الحال ، وأخذ يختبر أصواتها ، ويمتحنها . فلما استيقن من ضبطها بدأ يوقع من سحر عزفه وروائع ابتكاره ، ويرسل الألحان المعجزة التى أخذت بألباب من حوله ، وأحالت هذه الرقعة الى مظاهرة فنية فى هذا الفندق المتواضع . واسترعى عزفه أسماع الجميع وأنظارهم ، وسلبهم قوة الاحتكام فى أنفسهم . فهذا أحد المسافرين الألمان قد جمد فى مكانه ، وتملكه سحر الموسيقى ، فلم تعد تنظر فيه سوى عينين تتابعان حركات أنامل العازف ، وقد غاب عن كل ما حوله حتى غليونه الذى كان مشعلا ينبعث منه الدخان فقد انطفأ دون أن يشعر به ... وهؤلاء بقية النزلاء يدخلون الواحد تلو الآخر فى هدوء تام وسكينة شاملة .. وهذا أيضا مدير عربات البريد يدخل الغرفة ومعه قرينته الضخمة وابنتاهما الجميلتان ... وها هو الفنان يستغرق فى أحلام ألحانه فلا يحس من حوله ... والجمهور يقبل رويدا رويدا ... وقد حبس الجميع أنفاسهم استمتاعا بهذه الألحان التى نقلتهم الى دنيا من الجمال الموسيقى لم يكونوا يحتسبون فى يومهم ذاك أن يسمو بهم الحظ اليها ، ولكنها أقبلت عليهم ساعة من النهار على أنامل « شوبان » الملهم .

ولكن هذا السحر ما لبث أن انقطع تياره بصوت أجش بغيض أطل من النافذة كالخطب المفاجىء معلنا التأهب لمواصلة السفر ...

وها هو مدير البريد يصب جام لعناته على صاحب هذا الصياح المزعج الذى نبه « شوبان » من حلمه الموسيقى وحمله على أن ينهض لمواصلة الرحلة ... ولكن الجمع المأخوذ بجمال توقيعه توسل اليه بكل ما يستطيعه من رجاء أن يمضى فى عزفه ولو الى نهاية المقطوعة ... وفى مقدمة الجميع مدير البريد الذى يلحف فى الطلب ويلح فى الرغبة الى « شوبان » أن يؤجل مسيره بضع ساعات ، على أن يجعل خير ما لديه من الجياد رهن اشارته وطوع أمره ... أما زوجه الضخمة فقد تسلحت بجسمها البدين العريض كأنما تحاول أن تسد المنافذ وتأخذ المسالك على الفنان حتى لا تفلت من الأيدى هذه السعادة الروحية ... ولم يكن بد للفنان من أن يجيب وينزل عند هذه الرغبات .

وفى نهاية العزف أقبل الخادم يحمل أقداح النبيذ ، وتولت بنات صاحب الفندق بأنفسهن القيام على الخدمة ومراسم التكريم . وبدأن بالفنان العظيم يقدمون اليه فى كؤوس النبيذ تحياتهن . وعلى وجوههن آيات السرور والابتهاج ... وكان ممن هنأه أحد المسافرين أقبل عليه يحييه بصوت متهدج محتبس قد أثرت فيه آيات « شوبان » وبراعة فنه وقال له : « سيدى !! اننى رجل شيخ !! تعمقت فى دراسة الموسيقى ، وأجيد العزف بآلة البيان . لهذا فانى أستطيع تقدير الكنز الثمين الذى أسعدتنا به الأقدار هذا اليوم . ولو قد أتيح اليوم لموتسارت أن يسمعك لمد يده اليك هاتفا مهنئا ، وقال لك مرحى مرحى . أما أنا فى خمول ذكرى وضآلة شأنى فلن أجرؤ على ذلك » .

وكذلك نهض مدير البريد معلنـا فى الجميع « اننى سأذكر بالتمجيد « فردريك شوبان » ولن أنسى الاعجاب به ما حييت » .

وقد اختتم هذا الحفل الذى ارتجلته الأقدار ارتجالا بعزف مقطوعة من تأليفه من نوع « المازوركه » . ولما أتمها وهم بمغادرة الفندق صمم مدير عربات البريد على أن يحمل الفنان الصغير الى موضع جلوسه من العربة بين هتاف الجماهير واعجابهم .

ولما وصل الركب الى « بوزن » نزل « ياروكى » مع « شوبان » ضيفين على الأمير « رادزويل » . ثم قضوا ليلة اليوم يهزون أرجاء القصر بروائع النغم وبدائع الألحان .

ثم عاودت العربة سيرها متجهة صوب وارسو . وهنا لم يكن للفنان ما يشغله سوى اللهف على لقاء أهله والشوق الذى يكاد يدفع العربة بنيرانه دفعـا الى حيث هم مقيمون . وكانت آماله ونظراته تسبق الجياد ، وتكاد تطير بها عدواً فى الفضاء بدلا من صعيد الأرض ، فقد تجمعت كل نوازع الشوق فى هذا القلب الفتى : وأصبح يعد الساعات بالأيام واللحظات بالساعات الطوال ، حتى بلغ وارسو فى السادس من أكتوبر ، حيث احتضنه الحب وضمه الحنان بين أذرع أبويه وصدريهما . وغمرته قبلات شقيقاته بفيض من الحنو . ولم لا وقد عاد الى البستان بلبله الغريد ، وطلع على النفوس المتلهفة ما يفوق صباح العيد .

الرحلة إلى ڤينا

فى الحادى والعشرين من ابريل عام ١٨٢٩ . وفى أمسية من أمسيات الربيع الباسم شهد « شوبان » حفلا موسيقيا بدار الأوبرا فى وارسو ، فهز مشاعره شدو مغنية رخيمة الصوت ، وكانت فتاة جميلة الطلعة ، ذات شعر أشقر ، قسيمة وسيمة ، جذابة فاتنة . تلك هى كونستانتيا جلادكوفسكا (Constantia Gladkowska) التى ما تزال طالبة بمعهد الموسيقى بوارسو ، والتى كان مولدها فى العاشر من يونيه عام ١٨١٠ .

وهنا ، ولأول مرة ، يمس الحب بجناحه الرقيق قلب الفنان الشاب الذى كان حتى اليوم مغلقا ، لم تجش به عاطفة لغير الموسيقى ، حتى وقع نظره على « كونستانتيا » فأذاقته بصوتها الشجى ومنظرها الفاتن أول قطرة من كأس غرام بدأ فى قلبه كما تبدأ البذرة عند غرسها . ولكن هذا الحب الأول طغت عليه عاطفة الفن فبقى مكبوتا الى حين ، واقتصرت عليه شواغل الدراسة حتى يتاح له أن يظهر مرة أخرى ، متوقد النار ، مشبوب الأوار .

وفى الرابع والعشرين من مايو من هذا العام نفسه بدأت مراسيم تتويج القيصر « نيقولاس » الأول ملكا على بولونيا . وكان « پجانينى » ملك العزف بالكمان قد حضر قبل هذا التاريخ ، فأحيا عشر حفلات موسيقية فيما بين الثالث والعشرين من مايو والتاسع عشر من يوليه عام ١٨٢٩ . وكان استماع « شوبان » الى

« پجانينى » أبهج الى نفسه وأروح لقلبه من كل ما سمع . ورأى فى حفلات التتويج المليئة بالمباهج والمفاتن وبروعة الفن وصفوة الفنانين وتعرا غير قليل من أعلام الموسيقيين . وقد رأى فى « پجانينى » مهارة منقطعة النظير أكدت له ما كانت تتهامس به خواطر نفسه من أن وارسو أضيق من أن تتسع لآماله العالية وطموحه البعيد فيما يصبو اليه من جلال شهرة وذيع صيت ؛ مما جعله دائم التطلع والاستشراف الى أفق أوسع فى بلاد أكبر .

وكأنما أرسلت اليه كمان « پجانينى » من صداها صوت اليقظة الروحية التى بعثت الآمال من مكمنها للخروج من نطاق وارسو المحدود الى عالم الفن المليء بكل ما يشبع رغباته الظامئة الى كل جديد مبتكر ...

وهكذا غادر « شوبان » وارسو فى يوليه عام ١٨٢٩ قاصدا ڤينا بفضل ما أمده به والده من مال اقتصده من نفقاته وبذله فى غير ضن ولا بخل ، ليتيح لفلذة كبده هذا أن يحقق مراميه ويبلغ من الآمال ما يريد بلوغه .

وكان أول من تعرف اليه فى ڤينا هاسلنجر « Haslinger » الناشر الموسيقى الذى استقبله استقبالا حارا ، ولقبه بنجم الشمال الجديد . ولكن « شوبان » ولما يكتمل من حياته عشرين ربيعا لم يكن ليؤمن بهذا التقدير . أو لعله ظن بتواضعه أنه مبالغ فيه . ولو قد تملكه الزهو والاعجاب بنفسه لكان له عاذر من الشباب ومسوغ من مادة نبوغه وعبقريته . ولكن تشاء الأقدار أن لا نرى

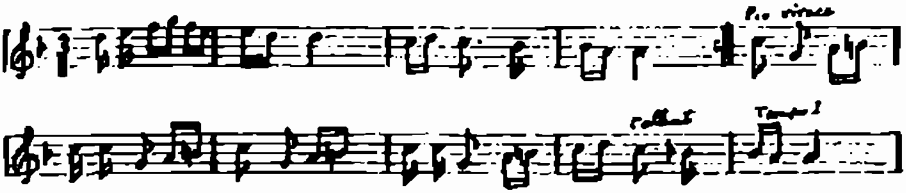
التواضع كاملا الا فيمن كملت مواهبهم وأن لا نرى التصلف والخيلاء الا ممن نقصت مادتهم وخلا وطابهم فاحتاجوا الى تكميل نقصهم بالكبرياء ، وتغطية نواحى الضعف بالغرور والزهو ...

وتعرف « شوبان » أيضا بالنبيل جالنبرج «Gallenberg» مدير مسرح « كارتنر » الذى يعد من أكبر مسارح العاصمة . وقد شجعه على أن يظهر أمام الجمهور فى حفل عام ، على أن يكون ظهوره فيه هو كل مكافأته وأجره . وقد أوضح ذلك « شوبان » فى بعض كتاباته حين قال :

« ان النبيل جالنبرج كان يرحب بذلك كل الترحيب ، ولم لا ودخل الحفل لن يكون الا لحسابه ... أما أنا فقد أوضحت أننى أعزف لارضاء هوايتى الموسيقية » .

وقد أقيم ذلك الحفل فى تمام الساعة السابعة من مساء اليوم الحادى عشر من أغسطس فى المسرح المذكور ، فبدىء بعزف اجماعى لافتتاحية (أوفرتير) من « بيتهوفن » تلتها مقطوعة لروسينى (Rossini) . ثم ظهر « شوبان » فى رقة بنيته وضآلة جسمه . ولم يبد عليه مظهر من مظاهر الخوف أو التهيب ، بقدر ما كان يبدو عليه من أمارات الغضب والتأثر . وذلك لأن الفرقة لم تستطع القيام بعزف مقطوعة من متنوعاته كان قد أعدها فى برنامج الحفل ، ولما رأى عجز الفرقة عن الأداء المطلوب أثناء التدريب عدل عن عرضها . وجلس الى البيانو يصوغ ألحانا مرتجلة بناها على أساس من الأوبرا الهزلية « السيدة البيضاء » للموسيقار بوالديه

(Boïeldieu) ثم انتقل منها الى ابتكارات أخرى أنشأها على أغنية عرس شعبية بولونية . هذا لحنها :



وقد أثارت هذه الأغنية . وما ابتكره عليها من ألحان ، عاصفة تلو عاصفة من استحسان الجماهير الذين سرت موجة الموسيقى فى عروقهم مسرى الكهرباء ، فأحالت أبدانهم الى شبه أرواح قد نقيت من مادتها ؛ وأخذت تهتز فى رقصات الأغصان على المقاعد ، متجاوبة مع حركات الايقاع وسحر الابداع .

ولم يكن أحد فى ڤينا يتسنى له أن يجارى « شوبان » فى قوة هذا التدفق والارتجال المبتكر . لذلك فقد أخذ الاعجاب بألباب الجماهير ، وتملكتهم الحيرة . وعجبوا كيف يمكن أن تخرج هذه الأنامل الدقيقة كل هذه المشاعر والأحاسيس التى سيطرت عليهم فلم يستطيعوا الانطلاق من أسرها شيبا وشبانا ، ورجالا ونساء .

وكان من أثر النجاح الباهر فى هـذا الحفـل أن طلب الى « شوبان » احياء حفل آخر بعد أسبوع واحد . أما فى هذه المرة فقد أمكن للفرقة أن تعزف مقطوعته « روندو كراكوڤياك » بعد أن حذقوا دراستها ، وأتموا المران عليها ، وكذلك قامت بعزف متنوعات له أنشأها على فكرة تخيرها من موسيقى موتسارت .

وقد بلغ من اعجاب الأمير ليشنوفسكى (Lichnowsky) صديق « بيتهوفن » الحميم أن يتقدم الى « شوبان » بتحية حارة ؛ وهنأ فيه الشباب الذى يبشر بمستقبل عبقرية خالدة . كما كانت دهشة الجمهور وهيئات الموسيقيين والنقاد بالغة ، اذ وجدوا فى هذه الموسيقى روحا جديدة فى معناها ومبناها . فكتبت مجلة « المسرح » بفينا تقول :

« لقد كانت مفاجأة رائعة . اذ لم تسمع الجماهير من « شوبان » موسيقى يكفى فى تمجيدها أنها جيدة فحسب ، بل لقد جعلهم يشعرون بأنها صدى عبقرية جبارة لها طابعها الخاص وأثرها البالغ الممتاز فى العزف والتأليف على السواء » .

وكتبت « المجلة العامة للموسيقى » تقول :

« ان رقة اللمس عند العزف ، والمهارة التى قل أن توصف ، فى كمال النضوج ، وعمق الشعور ، ووضوح الأصوات ، وسلاسة التعبير ... كل ذلك كان من آيات تلك العبقرية الفذة النادرة المثال » .

واذا كان شىء من النقد قد وجه الى « شوبان » فقد كان مرجعه — على حد تعبيره — الى مبالغته فى رقة العزف الذى تنقصه القوة واشباع الصوت . وهو فى هذا يكتب الى والده قائلا :

« ... وعلى العموم فانهم يزعمون هنا أننى ضعيف فى عزفى ، أو على الأصح رقيق العزف بالنسبة الى ما تعوده الجمهور من عازفى

البيان من صخب وعنف . وانى لأوثر أن يقال عنى أننى أوفر رقة من أن يقال اننى أشد صخبا » .

وفى موضع آخر من رسائله يقول :

« ... هذه هى طريقتى فى العزف ... وانى لعلى ثقة من أنها تروق للسيدات وتطيب للفنانين » .

وبعد هذا الأمد القصير الذى أقامه بفينا ونال فيه التفوق على نظرائه فيها اعتزم الرحلة الى پراج ، وكان فى توديعه الموسيقار شرنى (Czerny) الذى طالما اشترك معـه فى العزف على آلتين من البيان . وكان « شوبان » يطلق عليه اسم « الرجل الطيب » ويصفه بالامتياز عن الملحنين باللون الأكثر عاطفية .

وفى پراج تعرف الى الموسـيقار پكسيس (Pixis) ثم الى الموسـيقار اسكندر كلنجل (Alexander Klengel) الذى يعـرف له أربعة وعشرون مقطوعة من نوع الاتباع (الكانون) ومثلها من نوع التسلسل (الفوج) على مختلف المفاتيح . وهى أمثـل ما سجل وخلد فى هذا النوع بعد مؤلفات « باخ » .

وقد أعجب كل من العبقريين « شوبان » و « كلنجل » بصاحبه حتى أمضيا نصـف يوم كامل يعزفان معـا ، وهما فى جو مترع بالجمال الفنى المليء بالابتكارات والابتداع ، فى غبطة تجمع لهما جلال الفن وجمال الطرب .

ومن ثمت واصل « شـوبان » الرحـلة الى كلارى (Clary) والتقى فيها بجمع من الأستقراطيين والنبلاء من بينهم أمير وقائد

نمساويان ، وقائد بحرية انجليزية ، وقائد سكسونى ، وعدد من الفتيات والسيدات الممتازات فى الأناقة والجمال . وبعد تناول الشاى أقبلت أميرة القصر على « شوبان » ترجو أن يقدم بعض فنه على البيان . فأفسح المجال لهم فى أن يتخيروا فكرة من أية مقطوعة موسيقية ليبنى عليها ابتكاره وارتجاله . فتخير أحدهم فكرة من ألحان « روسينى » . وقد استجاب « شوبان » وأخذ يصور هذه الفكرة ويجملها ، ويبنى عليها ، ويبتكر من روائع نغمه وغزير مادته ، حتى هز مشاعرهم ، ونقلهم الى عالم من الفتنة والروعة والسمو . وتناهى بهم الاعجاب الى أن يستعيدوه الى بداية العزف أربع مرات متتالية . وألح عليه الجميع فى أن يطيل اقامته فى «تپلتز» ولكنه اعتذر بضرورة مواصلته للرحلة .

ثم أقام أياما قليلة فى درسدن ، واصل بعدها الرحلة الى برسلاو . وكانت خاتمة المطاف أن عاد الى وطنه فى اليوم الثانى عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٢٩ .

آخر العهد بوارسو

عندما عاد « شوبان » الى وارسو رأى بها حربا قلمية وحملة صحفية . تحرف الكلم عن مواضعه . وتقلب الحقائق . وتشوه الأوضاع . وتنقل مكان أنباء التكريم والترحيب والنجاح ومظاهرات الاعجاب التى لقيها فى ڤينا أنباء عكسية مختلفة مصطنعة . الا أن الحقيقة لا يمكن اخفاؤها بالانكار ولا محوها بالجحود . فقد فشلت محاولات الانتقاص من قدره ، ولم ينل الحساد منه منالا ، كما لم يجدوا فيه مهمزا ولا مغمزا .

أما الحقيقة فهى أن « شوبان » فضلا عن اتصالاته ومقابلاته لأعلام الموسيقى فى جميع الجهات التى رحل اليها ومر بها ، والتعرف الى شخصياتها الرفيعة من عظماء وأشراف وأمراء وذوى مكانات ممتازة . فان الحفلات التى أقامهـا ولاسيما حفلتى ڤينـا تركت فى نفسه أثرا حميدا . وبعثت فيه قوة الاعتزاز بفنه ، وان كان هو الفنان المتواضع ذلك التواضع الذى حمله فى بداية رحلته الى ڤينا على الامتناع عن الظهور فى حفل عام ليعرض فنه على جمهورها قائلا ان جمهور ڤينا قد استمعت آذانه عبقريات هايدن وموتسارت وبيتهوفن فبأى واحد من هؤلاء الثلاثة أقرن فنى وأرفع صوتى !! فاذا ما طال الالحاح عليه وقبل الدعوة راغما ، ولبى الرغبة مكرها ، رأى أساطين الفن وجهابذة الموسيقى وحملة لوائها المبرزين فى ڤينا

يقبلون عليه ويحيونه . فيعجب لهم من اعجابهم به . وبلغ به التواضع حدا أنساه نفسه حين سمع مقالة بعضهم « ان ڤينا كان يمكن أن تخسر كثيرا لو أن « شوبان » غادرها دون احياء حفلات بها » .
ورغم ذلك كله فان تواضع « شوبان » لم يتغير ولم يتأثر باعجاب ولا اطراء . ولهذافهو يقول لوالده فى رسالة بعث بها من ڤينا بعد الحفلين المشار اليهما :

« اننى على أية حال لن أستجيب الى احياء حفل ثالث . وما قمت بهذا الحفل الثانى الا مخافة أن يقول البعض فى وارسو انه لم يقم سوى حفل واحد كان نصيبه الاخفاق والفشل فأسرع بالعودة الى وارسو » .

ثم استمع اليه كيف يقابل بالايمان والثقة عدم رضاء بعض الناس عن فنه حين يقول :

« لم يخلق بعد من يستطيع ارضاء الجميع فان ارضاء الناس غاية لاتدرك » .

ثم تأمل كيف يكمن حب وارسو فى ضمير هذا الفنان ، ويستولى على قلبه الفتى ، فيعبر عنه أصدق تعبير حين يستكثر الناس عليه فى ڤينا أن تكون أرض وارسو تربة صالحة لانبات هذا النبوغ وانضاجه فيقول :

« ان أغبى حمـــار يستطيع أن يصبح شيئا اذا كان أستاذاه زيفنى والسنر » .

أرأيت الى هذه النفس الصافية الطيبة التى يغمرها الايثار

والاعتراف بالجميل ؟... أرأيت الى ذلك الفنان كيف يحب وطنه . ثم يركز هذا الحب فيرسم منه هالة من العظمة حول استاذيه ، وقد تمثل فيهما بولونيا بأسرها . فاعترف لها بالمجد والعظمة ، وأنها قادرة على أن تجعل من الحيوان شيئا مذكورا ؟...

ضع هذا الخلق النبيل . ووازن بينه وبين ما أعد له الحساد من حملات صحفية استقبلوه بها عند عودته بدلا من طاقات الأزهار وأكاليل الرياحين. ولكن هـذه فى الغالب طريقـة من مكافآت الأبطال . ولعلها هى الطريقة المثلى فى اظهار فضلهم .

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لهـا لسان حسود

على أنه اذا كانت نار الغل تفرى قلوب الحساد ، فان للحق أنصارا على كل حال . وقد وجد « شوبان » الصحف التى أثنت على مواهبه وقدرت فنه ، وقلدته الثناء على ما أبدى فى رحلته من فن كان المجد فيه لوطنه قبل نفسه ولأساتذته قبل شخصه .

وقد اكتسب « شوبان » منذ صباه خبرة بأخلاق الناس قويت بما قام به من رحلات اتصل فيها بمختلف الطبقات ورأى متباين المزايا والصفات . واتضح له أنه ليس كل فنان صادقه واتصل به كان نبيلا فى خلقه بريئا من المداهنة والحقد . لذلك كان يحوط بالتقدير والاجلال من وجده فى الموسيقين على خلق سام وبراءة صافية ، ويحتفظ له بأسمى صفات الوفاء مدى حياته .

وكان عجبا لدى زملائه الفنانين أن لا يتخير « شوبان » الاقامة فى ڤينا بعد ما لقى بها من نجاح باهر ، فان الاقامة فى عاصمة البلاط

القيصرى كانت أقصى حلم ذهبى تستشرف اليه آمال كل فنان فى ذلك العصر . ولكنه « شوبان » الذى يعيش من فنه فيما هو أكبر من حاضرة البلاط القيصرى ؛ يعيش فى مملكة رحيبة من العظمة الروحية التى تغنيه عن أبواب الشهرة وأزاهير الاعجاب وكلمات الاطراء . وهو رغم ذلك يبدو ككل شاعر أصيل وعبقرى سام كثير التشكك فى نبوغه ؛ لا يقنع بما دون النجوم . وقد كان بنفسه ينتقص من قيمة عزفه فى ڤينا على رغم ما أحيط به من ثناء المعجبين ، ولا سيما العارفين بالأصول الفنية الذين وصفوا عزفه بأنه يمتاز بالهدوء والرشاقة والتمكن .

ثم هو يقرر فى رسالة كتبها الى صديقه تيتوس حين لم يجده بوارسو عند عودته اليها فيقول ان الناشر « هاسلنجر » الذى يتولى طبع مصنفاته كان فى طليعة من أثر عليه لاحياء الحفلات فى ڤينا بحجة أن اسمه لم يبلغ سماء الشهرة وأن مؤلفاته صعبة الأداء وليس من اليسير استيعابها وتطبيقها .

كما قرر أنه فى يوم واحد تعرف الى أشهر أعلام الموسيقى فى ڤينا وقتذاك ومن بينهم مايسيدر (Mazseder) وجيروفتش(Gyrowetz) ولاخنار (Lachner)وكرويزر (Kreutzer) وشوبانزيغ(Schuppanzigh) وغيرهم .

ويقول ان النبيل « ليشنوفسكى » صديق بيتهوفن الحميم عرض بيانه الخاص ليقوم بالعزف عليه فى حفله الثانى بڤينا ، ظنا منه أن خفوت الأصوات فى الحفل الأول كان مرجعه ضعف

فى آلة العزف . وفاته أن الأصوات الهادئة هى التى توائم مزاجه فى الأداء ...

وقد تناقل المؤرخون فيما بينهم مسألة الضعف المبكر فى صحة « شوبان » وبالغوا فى وصف ما ناله من اجهاد وعناء . وقالوا انه أصيب منذ الصبا المبكر بمرض عضال كان يهدده بالموت فى كل حين . وهذا أشبه بالشائعات منه بالحقيقة ، فقد كان شبابه نضيرا ينم عن موفور الصحة واشراق المحيا . يدل على هذا مرحه المتواصل ورسائله الوفيرة وقوة احتماله مشاق الأسفار الطويلة فى رحلة بعد رحلة . وقدرته على اقامة حفلين فى أسبوع واحد تتخللهما زيارات ومقابلات ومشاهدات للحفلات المسرحية وتحرير الخطابات وتلقى الرسائل والاطلاع على الكتب والصحف ، الى غير ذلك من أعمال لا يقوم بها غير الأصحاء الكاملين .

حقا ان « شوبان » ذا بنية رقيقة وجسم دقيق ، الا أنه كان سليما قويا مستكمل الصحة . ولم يحدث له فى ميعة الصبا ولا فى مطلع فجر الشباب مرض مما يتحدثون به عنه . ولم يقع فريسة للمرض الا بعد نحو عشرة أعوام من هذا التاريخ على أثر الحياة المثيرة الصاخبة التى عاشها فى باريس . يثبت هذا ما أكده صديقه وزميله المدرسى « ولهلم فون كلبرج » أنه طيلة الصبا والشباب ، والى أن بلغ سن الرجولة ، لم يلم به المرض سوى مرة واحدة تأثر فيها ببرد .

أما أن والدته وشقيقاته كن يفرطن فى تدليله مبالغة فى حبه والاشفاق عليه فما فى ذلك ريب • وكن اذا حذرنه عواقب اختلاف الجو ورطوبته ، وطلبن اليه العناية بالتدثر والاتقاء كان يقابل ذلك بروح مرحة وان كان يلبى النصيحة كولد مطيع •

وكثيرا ما كانت تمر على « شوبان » لحظات يستولى عليه الفن فيها فيذهب به الى أعماق غائرة من التفكير يبعد فيها عن تذكر أخص أصحابه وأقرب أصدقائه الى نفسه ، وتحجبه عن العالم الخارجى بأسره • ولكنه استمر مأخوذا بأسباب المسرات . متحليا بمظاهر الغبطة والرضا ، مشاطرا فى ذلك شقيقاته وأصدقاءه • ولم يكن فى وقت من الأوقات سببا فى تكدير الصفاء لمجلس من المجالس . بل على عكس ذلك ما يكاد يوجد فى مجتمع ترفرف عليه البهجة وتبدو على من فيه الرغبة فى الرقص حتى يقوم من فوره وبدعوة من مزاجه الفنى اليقظ الى آلة البيان ، فى غير حاجة الى الرجاء أو التوسلات من الحاضرين فيسمعهم من مقطوعات الرقص ألحانا ساحرة ومقطوعات رائعة تزيد فى ابتهاجهم وتملأ جوهم هناءة وسعادة • واذا رأى عازفا غير مجيد نحاه فى مجاملة وأدب ، وأخذ مكانه فى العزف •

أما ما كان يحوط نفسه من الشجن والاحتراق ، وما يقيمه ويقعده من الطموح الى المثل العليا ، وحبه العميق الذى تأجج فى أعماق صدره لهفا على « كونستانتيا جلادكوفسكا » ••• كل هذه الأحاسيس يصورها «شوبان» فى رسالة بعث بها من وارسو الى صديقه « تيتوس » يقول فيها :

« انك لا تستطيع أن تتصور مدى آلامى الآن فى وارسو . ولولا ما تحوطنى به أسرتى من موفور العطف وسابغ الرعاية والحنان ما احتملت المقام بها . وما أمر ذلك الشعور الذى يساورنى عندما أستيقظ فى الصباح المبكر فلا أجد من أمضى اليه ليشاطرنى آلامى وأفراحى !! وما أقسى أن يحتمل المرء كبت الشعور فى نفسه ، ثم لا يجد من يخفف عنه هذا العبء الفادح . وأنت تدرك على وجه التحديد ما أحاول أن أكشف عنه وأبوح بجليته . ولكن جميع أسرارى التى أريد أن أرفع لك النقاب عنها لا أجد لى متنفسا للافصاح عنها سوى أن أودعها أوتار هذا البيان ، وأدع للموسيقى مهمة التعبير والتصوير » .

وقد شغل «شوبان» نفسه طوال هذا الوقت الذى أقامه بوارسو متفانيا فى العزف والتأليف والاستماع الى انتاج مشاهير الموسيقيين . وقد ترك ثلاثى بيتهوفن الأخير فى نفسه أثرا لا يمحى حتى وصفه بقوله :

« انى لم أسمع فى كل ما مر بى من حياتى فنا فى مثل هذه العظمة والروعة » .

ولا ريب فى أن هذه النماذج الرفيعة والآثار المثالية هى الوقود الذى يذكى شعلة النبوغ فى هؤلاء العباقرة ، ومن بينهم « شوبان » . فكلما أعجب بشىء كان اعجابه أداة تحريض وتشجيع على العمل ، والمحاكاة فى غير تقليد . ومن عوامل قصر الجهد أن ينحصر العبقرى فى حدود نفسه فلا يستمع الى سواه ؛ وبهذا تظل

معلوماته فى حدود ضيقة ، واتتاجه كذلك محدود الأفق لا ينمو ولا يسمو .

ولقد كان « شوبان » كثير التردد على دار الأوبرا حيث يستمتع أحيانا بصوت حبيب الى نفسه هو صوت « كونستانتيا » التى كان عظيم الاعجاب بها ، بالغ التأثر بتمثيلها ورشاقتها وسعة منطقة صوتها . وقد تم التعارف بينهما ، وصاحب أداءها بالعزف على آلة البيان . وقد كان يجد من اللهف عليها والوجد بها ما يكاد يذهب بصوابه ويسلمه للانهيار . فهل يستطيع الافلات من أغلال هذا الهوى اذا هو أفلت من الحياة فى وارسو ؟ أم عليه أن يبقى بها الى جانب حبيبته التى هى كل شىء فى حياته الآن ؟

لقد تردد « شوبان » بين الأمرين . ولم يقصر أمد هذه الحيرة سوى اجابته لدعوة الأمير « رادزويل » لقضاء بعض فصل الخريف بقصره فى « أنطونين » . وقد لقى هناك ما يلقى الرجل العظيم من حفاوة وحسن استقبال . وكان لهذا الأمير ابنتان هما زهرة هذا الفردوس جمالا ، ونجمتاه اللامعتان فى سمائه . فهما غاية فى الرقة ونهاية فى كمال الأدب . قد اجتمع لهما كمال الخلق وجمال الخلق ، مع ميل قوى وشغف وافر بالموسيقى . وقد أبدتا رغبة ملحة فى أن يقوم الفنان الشاب بشىء من التوجيه لهما فى دروس البيان . وكانت « ڤاندا » احدى الأميرتين تسلمه يدها فيحس بسعادة لاحد لها حين يضع أناملها الصغيرة على مفاتيح المعزف . أما الأميرة « الزا » شقيقتها فلقد بلغت من قوة الاستعداد الموسيقى أنها لم تكن فى حاجة الى من يرشدها الى موضع القوة واللين فى العزف ، أو السرعة

والبطء فى الايقاع : فقد كانت تدرك ذلك بغريزتها وبما طبع فيها من ملكة موسيقية تسبق المعلم الى الارشاد والتوجيه . وهنا تأسره « الزا » أيضا بجمال فنها وسحر جمالها . لقد مال اليها قلب الفنان ميلا لم ينتقص من كلفه الأول بكونستانتيا . حتى ليقول فى ذلك دون ماتردد ولا مواربة :

« ان المرء يستطيع أن يحب فى وقت واحد أكثر من محبوب واحـــد » .

ثم يقول : « يوجد فى الطبيعة قوة ذات سر عجيب » .

ونعتقد أنه يريد بتلك القوة قدرة النفس البشرية على الجمع بين حبيبين . أى أنه يحب الجمال حيث كان . وقد يلاحظ هذا فى كثير من فنان أصيل : اذ هو بطبيعته انما يجعل فنه ريشة للجمال . فهو مصور . ولن يصور حتى يتصور هو أولا ، وحتى يكون قلبه لوحة أولى للرسم الذى يريد اظهاره . فهو فى معبد الجمال يلتمسه وينشده . وكلما رأى زهرة جميلة استهوته بفتنتها دون أن يؤثر ذلك على جمال زهرة أخرى لها أثرها فى نفسه . وهو فى واقع الأمر لا يهوى حبيبين بل محبوبا واحدا هو الجمال .

وعندما عاد « شوبان » من « أنطونين » الى وارسو اعتزم اقامة حفل موسيقى ؛ وقد أنجز ذلك فأقام الحفل فى السابع عشر من مارس عام ١٨٣٠ ، وقد بلغ العشرين من سنه . وكان لنبأ اعتزامه اقامة هذا الحفل دوى شامل فى المدينة ، وأقبل الناس على مشاهدته حتى نفدت تذاكره قبل موعده بأيام . وكان هذا البرنامج حافلا بألوان مختلفة من مقطوعات لشوبان وأستاذه السنر ،

ومنتخبات لغيرهما من مشاهير الموسيقيين • وكان عزف « شوبان » بالغ الروعة قوى التأثير على الرغم من أن البهو الذى كان يعزف به لم يكن من الناحية الصوتية مستوفيا للصفات التى ينبغى أن تتوافر فى مثله • وكان « شوبان » رغم ذلك موضع اجلال العارفين بالقيم الفنية ، والذين يقدرون الموسيقى الرفيعة حق قدرتها • ولنسجل هنا فيما يلى تلك الرسالة التى كتبها أحد الذين شهدوا الحفل على أثر عودته منه ، والشعور غض والذهن حاضر والذكريات ماثلة قال :

« فى الحادى عشر من مارس عام ١٨٣٠ الساعة الحادية عشرة مساء •

لقد عدت توا من حضور الحفل الذى أحياه « شوبان » هذا الفنان الذى كنت قد سمعته ولما يتخط السابعة من سنه ، وكان يومذاك لايزيد عن أن يكون مجرد أمل فى مستقبل غير محدود • ما أروع عزفه اليوم !!! أية غزارة وأى انسجام وسهولة وتدفق !!! من المحال أن يتصور وجود انسجام فى هذا العالم مثل هذا الذى نجده صادرا عن « شوبان » • انه يعزف بثبات وثقة وصفاء تتميز فيه الأصوات ، وليس بها ظل للكبوات والعثرات • ان موسيقاه مليئة بالمشاعر والأحاسيس ، تنقل سامعها الى عالم غير متناه من طرب وانسجام مفرطين يعيدان الى ذاكرته جميع لحظات السعادة التى مر بها » •

الا أن الجمهور البطىء الفهم فى ادراك عظمة الفنان لم يستقبل هذا البرنامج بما كان ينتظر له من اعجاب ، اذ لم يكن ذلك

الا فى مقدور ذوى الثقافات الفنية والخبرة الممتازة التى تمكنهم من تتبع مثل هـذه البرامج والحكم عليهـا . وكانت محبوبته « كونستانتيا » فيمن شاهد هـذا الحفل . وقد اتخذت مكانها فى المقاعد الأمامية . وهى ترسل ابتسامات تشف عن الرضا . وقد وجد فيها الفنان مكافأة روحية تفوق عنده كل جزاء وتقدير .

وقد اضطره هذا النقص فيما كان ينتظره من التأييد العام الى اقامة حفل آخر على غير طراز الحفل السابق . وحدد موعده بالثانى والعشرين من مارس . وساير فيه مزاج الجماهير ، فجعل مكان آلة بيانه الرقيقة الصوت آلة أخرى من صنع ڤينا ترن أصواتها رنين الأجراس . فبلغ فى هذا الحفل نجاحا لا عهد له به ، حتى كان صياح الجماهير يرتفع خلال العزف وهم يهتفون « حفل ثالث ... حفل ثالث » . وبالغت الصحف فى تمجيده والاشادة به حتى قال بعض الكتاب ان العالم لم يشهد عازفا مثل « شوبان » الا أن يكون موتسارت . وأجمع أهل الرأى على أنه قد أصبح أقدر عازف بالبيان وأعظم مؤلف موسيقى تحت سماء بولونيا .

وانقضت على ذلك أسابيع لم يتنسم فيها « شوبان » عبير الهناء والابتهاج ، فان حبه لكونستانتيا ، وشوقه الى صديقه تيتوس ، كلاهما أقض مضجعه وحرمه طيب الهدوء ولذة النوم . وانتهى به ذلك الى ألم النفس ونحول الجسم، وهو يحمل رسائلهما على صدره فى غدوه ورواحه ، وفى مصبحه وممساه . وكثيرا مانوه بأنه انما يؤلف للتعبير عن الوجد لحبيبته والشوق الى صديقه .

وقد حضرت الى وارسو المغنية الألمانية الشهيرة هنريت سوتناج (Henriette Sontag) وقد أقامت بها ست حفلات زادت بها شهرتها ومكانتها . وقد قام الأمير « رادزويل » بتقديم « شوبان » اليها فملأت قلبه فتنة وسحرا ، بما لفنها من السمو وما لجمالها من الروعة . وقد عبر عن اعجابه هذا بقوله : « ان جمالها فائق الحد وبراعة صوتها تأسر الجميع » . وقد قام بدوره بتقديم حبيبته « كونستانتيا » الى تلك المطربة الفاتنة التى لم تكن زيارتها لوارسو الا سحابة صيف ما سلمت حتى ودعت .

وقد حدد اليوم الثانى من نوفمبر عام ١٨٣٠ ليبدأ الرحلة الى ڤينا . وفى الصباح المبكر من ذلك اليوم رافقه للتوديع أستاذه « السنر » وأصاقاؤه وجمهرة من الموسيقيين الى وولا « Wola » احدى ضواحى وارسو ، وقد تجمع بها طلاب معهد الموسيقى عن بكرة أبيهم . واشترك الجميع فى احياء مهرجان تكريمى للفنان الصغير الكبير . فرأى نفسه أمام مفاجأة لم تكن فى تقديره : حيث أنشد الجميع أغنية قام بتلحينها « السنر » خصيصا لهذه المناسبة . وكانت فرقة من المغنين تؤدى الألحان ، بينما يكرر الجميع ترديد هذا المذهب وهو :

« ان فراقك للوطن ليترك فينـا كبير الألم . ولا يخفف عنـا الأشجان سوى أن روحك ستظل متحدة معنا على مدى الزمان . تقبل أحر أمانينا بمستقبل سعيد . سنحتفظ لك فى قلوبنا بالأشواق . ونهتف لك من صميم الأعماق : ليبتسم لك نور الحظ السعيد كلما طالعك صباح يوم جديد » .

ولقد بلغ به التأثر أقصى نهايته ، وامتقع لونه ، وخفق فؤاده ، عندما تقدم اليه أحد أصدقائه باسم الجميع فأهداه كأسا فضية قد ملئت الى حافتها بتراب أرض الوطن . وهنا يؤخذ الفنان على غرة بهذا التعبير العجيب فى معنى الوطنية والوفاء . وهو مشهد يثير الأحاسيس وينبه كامن الخواطر . لذا فهو لا يستطيع كتمان شعوره ولا اخفاء تنهداته المرسلة فى اطار من الدمع الحار حين يخاطبه هذا الصديق قائلا :

« كن حيثما تكون ، وامض حيثما شئت ، ولكن لا تنس الوطن . لا تضن عليه باحساسك الحار وقلبك المخلص الخفاق بحبه وتقديسه . اذكر بولونيا ، واذكر بها أصدقاءك الذين يفاخرون بأنك مواطنهم ، والذين يرتقبون على يديك الأمل المشرق والمطمح البعيد ، وينثرون حول خطاك أزهار التمنيات على طول الطريق . ويضعون على رأسك اكليلا من خالص الدعوات باليمن والتوفيق » .

وعلى اثر ذلك ودعهم « شوبان » وصافح الجميع واحدا واحدا . وبدأ رحلته الطويلة ، والطويلة جدا ...

أما فيما بينه وبين « كونستانتيا » فقد أهدى كل منهما الى صاحبه خاتما تذكاريا ، وان كانا لم يرتبطا بخطبة أو يتواعدا على قران . وقد سطرت بيدها فى مذكراته الخاصة هذه الكلمات :

« تذكر ! ولا تنس يوما أننا هنا فى بولونيا نحبك مهما نأيت ... وقد يقدرونك خارج الوطن آكثر من تقديرنا نحن لك ، وقد

يكافئونك أكثر من مكافأتنا اياك . ولكن شيئا واحد لن يبلغوه وهو أن يحبوك أكثر من حبنا لك » .

ترى أكان يشعر كل من الحبيبين بأن هذا الوداع هو آخر العهد بينهما وأن لا لقاء بعد اليوم فلن يراها ولن تراه ؟... فقد شاء القدر أن يعجل بقرانها بعد انقضاء سنتين على هذا اللقاء الأخير بالنبيل « جوزيف جرابوفسكى » أحد أثرياء الريف فتزوجت منه فى الحادى والثلاثين من يناير عام ١٨٣٢ واعتزلت المسرح وفن الغناء ، وأخلدت فى حياتها الزوجية الى السكينة والهدوء . وعاشت سعيدة هانئة فى جو ترف عليه البهجة والصفاء . ورزقت خمسة أطفال كانوا ثمار حياتها الزوجية ... ولقد شاء القدر أن يسلب « كونستانتيا » نور هاتين العينين اللتين طالما نصبت منهما أشراكا لقلب « شوبان » ، واللتين طالما كان يتخذهما نافذتين يطل منهما على دنيا الأمل ونور الرجاء ، فأصبحتا الآن بغير نور ولا اشعاع . فقد أصيبت بفقد بصرها فى عام ١٨٤٥ ... وأخيرا فجعت بوفاة زوجها بعد فجيعتها فى بصرها ... وهكذا بقيت « كونستانتيا » منفردة بين ألمين يتنازعان نفسها ، ولونين من الذكريات يتقاسمان قلبها . أما زوجها فله منها ذكرى المعاشرة والوفاء . وأما « شوبان » فله عندها ذكرى الحب الذى يخلده الفن . وهو حب كانت تلقى عليه ستارا كثيفا من كبرياء المرأة أو من مقتضيات التقاليد ، فقد عبرت عن حبها له فى مذكراته يوم رحيله بأن أحد فى الخارج لن يبلغ من تقديره ومكافأته بما يماثل هذا الحب . ولكنها فى تعبيرها عن ذلك تتقمص شخصية بولونيا وتعبر عن هذا الشعور

كواحدة من عداد الناس الذين يقدرون الفنان الكبير . وهذا التخفي وكبت الشعور لا يلبث أن ينحسر عنه اللثام وترتفع دونه الحجب والأستار لتنجلي الحقيقة مكشوفة واضحة عندما تذهب الى آلة البيان فتردد تلك الأغنيات التى كانت تغنيها بمصاحبة عزف « شوبان » . فما هى الا أن تنبعث النغمات حتى تنطلق الدموع معبرة عن الذكريات المكبوتة ...

كذلك ودع الفنان والديه وشقيقاته . وليس أحد يحتاج الى من يصف له شعور أسرة يفارقها أعز آمالها وأحب أنجالها ، بل وحيدها الذى تستمسك به رجاءا لمستقبلها بقدر ما كان أنسا لحاضرها ... لقد صافحته على الرغم منها مصافحة الوداع ... بل عانقه كل فرد منها فى قبلات حارة ودموع تتفجر من قلب محترق ... ولكن فيم هذه الدموع وتلك الأشجان !!! فليكن هذا الوداع ألما وقتيا ، ثم يمضى الفتى ليسطع فى سماء الفن كوكبا عالى الضوء باهر الاشراق ، ولتملأ سمعته جميع الآفاق ، وليعد بعد ذلك الى أسرته المحبة المحبوبة ليسعدها فى الكبر كما أسعدته فى الصغر . فلتجف الدموع ؛ وليخف البكاء ، ولتنطفىء حرقة الأسى فى بسمات الأمل الذى سيعود به « شوبان » ...

ولكن هل عاد شوبان ؟...

رحلة وثورة

بدأ الفنان الكبير رحلته فى مستهل نوفمبر عام ١٨٣٠ ، وكان على موعد سابق مع صديقه « تيتوس » فالتقا فى غاليسيا لينجزا ما اعتزماه من القيام معا برحلة غير قصيرة . وكان « تيتوس » هذا يكبر « شوبان » ببضع سنين . كما كان تكوينه على النقيض من صاحبه فى ضخامة الجسم وقوة البنية وحدة الطبع ، رغم ما كان يجمع بين قلبيهما من شدة التعلق بالموسيقى والشغف بها . ومع أن « تيتوس » كان يمتاز بيد غليظة كأنما خلقت للنضال والجلاد ، فقد كانت تثير العجب فى نفسك وأنت ترى تلك الأصابع الغليظة وهى تنتقل بين مفاتيح آلة البيان فى رشاقة الأنامل الرقيقة ، وخفة النسيم العابر . وكان « تيتوس » الضخم أطوع لشوبان من بنانه ، ينقاد له انقياد البعير لراعيه الصغير . وقد توقفا فى رحلتهما بمدينتى برســلاو ودرسدن ، وقضيا فى كل منهما قرابة أسبوع أمضياه فى مشاهدة الألوان الفنية بين المسارح والحفلات وزيارة ذوى المكانة من أعلام الموسيقى وأقطاب الفن بهما .

وقد تقدم « شوبان » بخطاب توصية الى السيدة البولونية دبرزيكا (Dobrzycka) كبيرة وصيفات الأميرة « أوغستا » وكانت تعيش فى جنــاح من القصر معد لاقامتها . فأحسنت استقباله فى درســدن وأكرمت وفادته ودعته الى حفل مسائى فى مسكنها لم تدع اليه سوى المقربين والخلصاء . وتلقى « شوبان » هذه

الدعوة بالرضـــا . وان كان يعتقد أنهـــا ستكون اختبارا لمدى استعداده الموسيقى ونهاية ما يتسامى اليه قدره فى هذا الفن . ولما حان الموعد أقبل الفنان على بهو كبيرة الوصيفات . ولم يتبين به سوى قليلين من المدعوين . يتألفون من بضع سيدات ورجل يناهز الثلاثين . قد يكون أحد العلماء . أما صاحبة الدعوة فقد أسبغت على « شوبان » فيضا من التكريم عندما قدمته الى الحاضرين بقولها :

« هذا هو السيد « فردريك شوبان » مواطننا العبقرى الفتى والفنان الممتاز الذى أسعدنا بحضوره ليمتعنا بطرائف من مقطوعاته فى المازوركة تحمل الينا فى أنغامها صوت الوطن المحبوب » .

أخذ « شوبان » مكانه من آلة البيان ، وهو على خير ما يكون صفاءا واعتدالا فى المزاج . يحمل فى قلبه احساس الفنان الشاعر ، وتملأ جوانحه الذكريات الحبيبة ... شوق ووله بكونستانتيا ، وتعلق ولهف الى الوالدين والشقيقات ، وتشوف وحنين الى الوطن ... كانت تلك الخواطر هى التى تسيطر على أحاسيسه وتملأ جوانب نفسه : وهى التى انتقلت من مشاعره الى أنامله ؛ ومن أحاسيس الوجدان الى أوتار البيان ، فأخذ يترجمها ويعبر عنها أصدق تعبير فى أسلوب قلَّ أن يكون له مثيل ... وما هو الا أن انسابت النغمات فيما حولها انسياب الكهرباء حتى سكن القوم مأخوذين بهذا السحر الجديد ؛ مستمتعين بعذوبة تلك الموسيقى التى جعلتهم ينظرون فوق ماكانوا ينتظرون. حتى اذا أتم عزفه

أقبلت صاحبة الدعوة وقد ترقرق الدمع فى عينيها وهى تقول : « شكرا لك يا « شوبان » فانك فى هذه الليلة قد منحت أصحاب السمو الملكى ساعة سعيدة » . ولم يكن أولئك سوى الأميرة « أوغستا » والأميرة « مكسمليانا » والأمير « يوحنا » أشقاء ملك سكسونيا . وهذا الأخير هو الذى ظنه « شوبان » بادى الأمر أحد العلماء . وقد أحاطه الجميع بعطفهم ، وزودوه بالتوصيات الى شخصيات كبيرة فى ڤينا .

وما كاد يقترب شهر نوفمبر من نهايته حتى كان « شوبان » وصديقه « تيتوس » قد بلغا مدينة ڤينا على خير حال . وقد وفقا عند أول وصولهما الى استئجار جناح مؤلف من ثلاث غرف فى شارع « كولماركت » .

ولكن « شوبان » كان يدور فى مخيلته وهو فى طريقه الى ڤينا أن تلك المدينة التى يكن لها أغلى الذكريات أيام شهدت حفلاته فى رحلاته الأولى اليها ، وطوقته بهالة الاعجاب ، وألهبت أكف أبنائها بالتصفيق ، وأطلقت حناجرهم بدوى الهتاف والاستحسان ، تلك المدينة ستفتح صدرها مرة ثانية لاستقباله والاحتفاء بمقدمه . ولكن ما كادت تهبط قدمه أرض ڤينا حتى تبددت أحلامه ، وخابت آماله فى مستمعيه وزملائه ومعارفه وجماهير المعجبين به . وكان شأن ڤينا فى ذلك شأن العواصم والحواضر الكبرى التى تضم الكتل البشرية بالملايين ، وتتغير عليها مناظر الغادين والرائحين فى سرعة الخيال ، وما أسرع ما يتبدل فيها قوم بقوم ، يتأثرون بعوامل وأفكار غير التى تأثر بها غيرهم من قبل .

وكان هذا هو شأن « شوبان » فى ڤينا فقد وجد بعض عارفيه قد غادروها . كما أن من بقى من زملائه وأنداده ما لبثوا أن تجهموا له وتنكروا لمقدمه . فقد خافوا على أنفسهم أن يطول به المقام فى مدينتهم . وأن يؤثرها على سواها ، لا سيما وقد أصبح فنانا ناضجا مستكمل القوة والأداة . فقدومه هذا أشد نذير بمنافس خطير . أما الناشر « هاسلنجر » الذى كان يلحف عليه قبلا فى زيارته الأولى لاقامة حفلاته بالمجان فقد قابله بترحاب لا يعدو المجاملة العادية . وأبى شراء مؤلفاته ، كما كان « شوبان » هو الآخر على غير استعداد لمنحها اياه بالمجان ليبيعها هو بأغلى الأثمان . وقد كتب فى ذلك الى والده يقول : « ربما كان هذا الرجل يعتقد أننى سأستجديه ثمن مؤلفاتى . أو أن أجود عليه بها دون مقابل . ان زمن المجان قد انقضى ، وهذا زمن الدفع » .

وهكذا واجه الفنان الشاب صدمات عنيفة متتالية من الغربة ، وبعد الأصدقاء ، وتنكر الزملاء ، وتجهم العارفين ، وتجاهل الجماهير . كل ذلك ضيق عليه الأفق الرحيب وبدل أنسه وحشة ، وراحته عناءا ، وصفاءه كدرا ...

على أن ذلك كان هينا محتملا لولم تحمل اليه الصحف أنباء قيام الثورة فى وارسو . تلك الثورة التى اندلع لهيبها فى اليوم التاسع والعشرين من نوفمبر عقب وصوله بقليل . فان الشعب البولونى الذى طال به العهد وهو يرسف فى أغلال العبودية هب من رقدته ينشد الحرية ويطالب بالاستقلال . وكان مما تناقلته

الأخبار أنه فى هذا اليوم هجم ثمانية عشر ثائرا محاولين اقتحام قصر « بلفديرا » حيث يقيم الأمير « قسطنطين » نائب قيصر روسيا فى حكم بولونيا ، قصد اغتياله . ولكنهم وصلوا متأخرين فقد أفلت الطائر من يد الصياد ، وطار من عشه . وفر مع جيشه الروسى ، منسحبا من وارسو الى بلاده ... وتنفس الشعب البولونى الصعداء واغتبط بتحقيق آماله القومية . وتألفت فى اليوم التالى حكومة وطنية أعلنت على روسيا حرب الاستقلال . وتقدم الألوف من الشبان للتطوع فى صفوف التجنيد .

ولقد كان ابتهاج الصديقين الغريبين فى ڤينا بالغا أشده بهذه الأنباء . ولم يطل الانتظار بتيتوس فأسرع بالعودة ليقوم بواجبه الوطنى . وبقى « شوبان » فى ڤينا وقد أضيف له ألم الوحدة الى وحشة الغربة ، وهو يشكو عدم قدرته على المساهمة فى هذه الحركة . وماذا كانت تستطيع أن تبلغه تلك الأنامل الرقيقة فى هذا المعترك المائج الذى هو ميدان السواعد المفتولة ، والعزيمة الحاضرة ، والأبدان المدربة ، والأيدى القوية التى خلقت للكر والفر وامتشاق الحسام ؟... وما هو الدور الذى كان يمكنه أن يقوم به ذلك الرأس الوديع ، الفتى الصغير ، فى هذه الأمواج المتدفقة والثورة الهوجاء ؟... هذا ما كان يدور بين « شوبان » وبين نفسه من حوار حول ما يجب أن يقوم به لبولونيا العزيزة . ولما لم يسعفه المنطق بجواب سديد أسعفته عاطفته الجياشة بحب الوطن فاستقل عربة ليلحق بصديقه فى الطريق فلم يدركه . وانما أدركه فيه من برد الشتاء ، ورطوبته القاسية ، وتقلب الجو ما حمله

على الرجوع الى ڤينا ابقاء على بنيته التى لاتحتمل مقاومة الطبيعة فى مثل هذه الحال . ولما عاد الى ڤينا وجد بمسكنه رسالة تنتظره من والده الذى كان يدرك من تلقاء نفسه ما عسى أن يختلج فى صدر ولده من شعور فكتب اليه يأمره بضرورة البقاء فى ڤينا وبألا ينحرف عن مواصلة السير فى طريق مستقبله ، لأن تضحيته الشخصية لا تحقق أيه ثمرة مرجوة للوطن .

ولم تقع هذه الحركة البولونية موقع الرضا من النمسا ومن الرأى العام فى ڤينا بأسرها . فقد كانت النمسا تشاطر ألمانيا وروسيا نصيبا من السيطرة على بولونيا ... وحمل ذلك غالبية الفنانين فى العاصمة على أن يتنكروا لشوبان . وما ظنك بالجماهير من سواد الناس . وقد كانوا يرمقونه بنظرات ساخرة تشف عن التهكم والاستهزاء . وقد التمسوا فيه الرمز الناطق لبولونيا التى يحاولون أن يضفوا عليها ما شاءوا من تهكم وتنقيص حتى لقد كان يسمع بأذنيه حديثهم حين يمر بهم الفينة بعد الفينة وهم يقولون « ان الطبيعة لم تحسن الى الحياة البشرية حين سمحت بوجود بولونيا على الأرض » . ولم يكن يتسلم بريده الخاص الا متأخرا عن تعمد من الجهات المسئولة . وكان لزاما عليه أن يعانى تكاليف الحياة فى وحدة مريبة ، وغربة قاسية ، وخوف أليم .

وما كان أعظم تلك المخاوف والآلام حين علم بهجوم الجيوش الروسية بجحافلها الجرارة بقيادة الجرنال «فاسكفتش Paskewitsch» على وارسو . وقد ساوره ما يساور كل فنان فى مثل حاله . وذهبت

به التصورات الى أبعد المذاهب . وخيل اليه منظر المدينة . وقد أحالتها نيران القذائف الى أتون . يرتفع دخانها الى السماء . وتتحول جدرانها وسكانها الى رماد تعصف به الريح . وبين تلك الأطلال والحطام والحريق المستعر والداه الحبيبان . وشقيقاته العزيزات ، وحبة قلبه « كونستانتيا » وأصدقاؤه وزملاؤه ، وشعبه فى أرض الوطن تلك الأرض التى أنبته ترابها وأظلته سماؤها وسحابها . ولم يكن له فى هذه المحنة من عزاء ولا سلوى سوى أن يملأ فراغ وقته وفضاء وحشته بتسطير الرسائل اليهم فياضة بهذه المعانى ؛ معبرة عن مبلغ ما يعانيه من أشجان تكاد تذهب بنفسه حسرات ؛ وتطوى صحيفة شبابه . وقد قال فى احدى رسائله الى أسرته :

« يخيل لى أننى انما أواجه الحياة هنا فى حلم لا فى يقظة ... فاننى دائما معكم وأقيم بكل مشاعرى حيث تقيمون ... انه حلم مستمر لا تنقطع أطيافه ومناظره ... وهذه الأصوات التى تجأر من حولى وينبو عنها سمعى لا أحس بها الا كما يحس العابرون بصخب العربات ... ولقد أصبحت الحياة والموت فى نظرى شيئا واحدا ... وانى لأسائل نفسى لماذا أصبحت وحيدا ؟... » .

وأقبلت مباهج عيد الميلاد فى ڤينا فكانت مهرجانا متواصلا لأهلها بقدر ما كانت مضاعفة لآلام « شوبان » ومثيرة لبلابله وأشجانه . وقد كان يستعرض فى خياله شريطا ناطقا من ذكريات أعياد الميلاد السعيدة التى طالما قضاها فى وطنه مع الأهل والعشيرة فى أفراح تتعدد بها ألوان الغبطة والسرور . وكأن « شوبان »

كان يردد فى نفسه قول دانتى « ليس أشد ألما على المرء من أن يذكر فى ساعات بؤسه أيام سعادته » ٠

لقد مرت عليه أيام هذا العيد حالكة قاتمة ، وقضاها وحيدا فى غرفته نهب الأفكار ، تنتابه السآمة ، ويشتمل عليه اليأس ، ويرده الايمان الى الحياة والرجاء فيها ، الا بعض أيام كان يلمح فيها بريقا من السعادة خلال الضباب المتراكم ٠ وهاهو ذا يصف حياة يوم من هذه الأيام فى بعض رسائله الى أحد أصدقائه فيقول :

« انه لشىء مزعج حقا ٠٠٠ ما الذى أرى ؟ ٠٠٠ ثلاث نوافذ يقع السرير فى اتجاه أحداها ٠٠٠ وتلك آلة البيان الكبيرة فى ميمنتها ، وهذه أريكة تقع فى الميسرة ٠٠٠ وقد توسطت الغرفة منضدة قد صنعت من خشب الماهاجونى ٠٠ أما أرضها فقد غطتها طبقة من الخشب اللامع ٠٠٠ ولا شىء غير الهدوء والسكون ٠٠٠ أما فى الصباح الباكر فخادم غبى لا يطاق يتولى ايقاظى ٠٠٠ وبعد أن أنهض تقدم الى القهوة ٠٠٠ ولكنى أبادر الى البيان وآخذ فى العزف به ، تاركا الافطار الى جانبى حتى يصبح كالماء البارد ٠٠٠ وفى نحو الساعة التاسعة أستقبل مدرس اللغة الألمانية ٠٠٠ وعلى اثر الدرس أنصرف الى العزف ثانية انتظارا لقدوم هومل « Hummel » (ابن الموسيقار المعروف) ليصورنى ٠٠٠ حتى يقبل نيديكى «Nidecki» ليعزف « كونسرت » من مؤلفاتى ٠٠٠ كل ذلك وأنا ما أزال فى ملابسى المنزلية وقد انتصف النهار ٠٠٠ وها هو ذا شاب ألمانى رقيق الجانب يرافقنى فى نزهة حول المدينة ٠٠٠

ثم أمضى لتناول الغداء فى مطعم اعتاد أن يغشاه الطلبة ... حتى اذا مال ميزان النهار بادرت الى العودة الى منزلى قبيل الغروب لأصلح من شأنى استعدادا لحضور احدى السهرات ... وفى الساعة العاشرة أو الحادية عشر (لا بعد ذلك أبدا) أعود الى المنزل فأعزف وأغنى وأضحك ... ثم أسلم بدنى الى الفراش وأحلم بكم ... » .

وقد اختتم هذه الرسالة الى صديقه بكلمة دار بها الحديث عن « كونستانتيا » على سبيل التلميح لا التصريح ، فكان مما قال :

« ان موضعا من رسالتك أثار كوامن آلامى ... ترى أما تزال على وفرة من صحتها وتمام عافيتها وسلامتها ؟... ألم تتعرض لحادث من الحوادث ؟... أليست مريضة ؟... ان ذلك لمحتمل الحدوث كثيرا فى حياة من يكون مثلها رقة مزاج ، وتأثر عاطفة ... دعها تطمئن من جانبى وتثق باخلاصى . وأبلغها أننى الى الموت ، وحتى بعد الموت ، أنثر رفاتى تحت قدميها ... وان هذا لقليل مما أرجو أن تبلغها اياه ... كم تمنيت أن أكتب اليها بنفسى ، ولو كان الأمر فى ذلك الى لبادرت بالكتابة منذ حين ، ولكن مخافة الناس ... فتكلم أنت بلسانى ... لقد كنت من قريب فى ضيافة سيدة بولونية ، وهى من أقارب السيد « باير » واسمها « كونستانتيا » . انى أتردد عليها فى رغبة ملحة ، لا شىء سوى مجرد اسمها ... وجميع ما فى مكتبتها من مراجع وكتب موسيقية ، وكذا كل ما لديها من مناديل ومناشف وأغطية مطرزة باسمها » .

وفى رسالة أخرى كتبها الى صديقه « تيتوس » فى غرة العام الجديد قال :

« أول يناير عام ١٨٣١ — تسلمت خطابك ••• وما أدرى ما الذى أعانيه . وما الذى أنا فيه ••• انى لأحبكم أكثر من الحياة نفسها ••• أكتب الى ••• أحقا أنت فى الجيش !!! ما صنع الله بآبائنا المساكين !!! ماذا يعمل أصدقائى ؟••• انى لأعيش بقلبى معكم ••• وألقى الموت من أجلكم ••• اليوم بداية العام الجديد . ولكن بأى ألم جديد يبدأ !!! وقد لا تمتد بى الحياة الى نهايته ••• أما أنت وقد انتظمت فى سلك الجيش فلتعد الينا متقلدا أعلى المناصب والرتب ••• رباه !!! مالى لا أستطيع حياة الجندية فأنتظم فى سلك الجيش ؛ ولو ضاربا بالطبل » •

وبعد أن اختتم رسالته تلك ، سطر فى مذكراته اليومية ما يلى :

« هذا الفراش الذى سأقذف بجسدى اليه الآن كم من جثة قذف بها عليه من قبل ؟••• ان هذه الفكرة المثيرة لم يعد فى طاقتها أن تفزعنى بعد ؛ لأنى لا أفضل الجثة الهامدة فى شىء • لأنها هى الأخرى لا تدرى شيئا عن والدة أو شقيقة أو حبيبة ••• كل شىء مما حولى خليق بأن يجعلنى جسدا باردا ••• واننى لأدرك من هذا نعمة الموت على الانسان ، وكفى فى هذا عبرة أن يصبح أسوأ الأشياء نعمة ••• » •

وهو فى مذكرات هذا اليوم أيضا لم ينس « كونستانتيا » فيقول :

« رباه ! أهي تحبني ، أم هي تلعب دورا من أدوارها المسرحية ؟ ما أصعب معرفة الحقيقة والوقوف على جلية الأمر . أتحبني أم لا ؟ كيف أجيب ؟ نعم ... لا ... نعم ... لا ؟... نعم ، مما لاشك فيه . ولكن كيفما كان الأمر فلتكن مشيئتها » .

وهكذا قضى « شوبان » هذه الفترة من حياته تكاد تختنق روحه بآلام الشعور بالوحدة ، وتذوب نفسه حسرات على فراق الأهل والأصدقاء . وكان أمام تلك العواطف التي تجيش في صدره أقرب الى مشاعر الطفل حين يشتد تعلقه بحنو بيته وملاعب صباه منه الى الرجل الصمود الجلد الذي يعرف كيف يهزأ بالمكاره ، ويضرب الحوادث بمعوله اذا اعترضت سبيله ، ليشق لنفسه الطريق الى الحياة التي يرجوها .

لقد كان عليه بحكم فنه ومهنته أن يشهد الولائم ، ويحضر المجتمعات ، ويشارك في الحفلات . وكان عليه أن يرتدي ملابس خاصة ، وأن يتجمل بما تقتضيه دواعي اللياقة ... عليه أن يصطنع البسمات على ثغره ، والطلاقة على وجهه ، والاشراق على محياه ... وأن يظهر أنه اجتماعي ، مشارك لهذه الجماعات ، بينما هو وحيد ، حتى في وسط جلبتها وضوضائها . فليس له من بين هؤلاء صديق يأنس اليه ، ويعول عليه ... ولكن الصديق الوحيد الذي كان يستقبله كل أمسية ، في غير منّ ولا لوم ، هو آلة البيان . فاذا ماعاد من تلك الحفلات بقلبه المحطم ، وآوى الى مسكنه حين ينتصف الليل ، مال الى تلك الآلة الحبيبة فأنطق أوتارها ؛ وباح لها بما يضني

كاهله من أسرار وخفايا لم يجد لهـا من الخلطاء من يبثه اياها ؛ فكانت هى متنفس آلامه ، وسلوة أشجانه ، ومسجلة شعوره ؛ ومصورة عواطفه •

ولا بد لنا من وقفة يسيرة ازاء هذه الحالة النفسية لشوبان • هل يؤخذ على الفنان عيشه فى خياله ، وفناؤه فى شعوره ، وانسياقه مع عواطفه تذهب به كل مذهب ، وتطير به كل مطار ؟••• وهل لزام عليه أن يعيش فى كفاح العامل ، ونضال الجندى ، وصبر البحار على مقاومة أعاصير الحياة المختلفة ؟••• الجواب الصحيح لهذه المسألة أن الفنان ليس سوى مجموعة أخيلة وعواطف يعيش فيها بمعزل عن الناس ، بل يفر من المجتمعات اليهـا ، ويدع العمران والمدن ليعيش مع الطبيعة وطيورها ورياضها ، فى سكينة النفس ، وهدوء الروح • فاذا ما اعتاد الصخب ، وألف الضجيج ، وجمدت فيه عاطفة الحب ، وانطفأت فيه جـذوة الشوق ولوعة الهيام ، لم يبق منه سوى انسان عادى ، وليس له شخصية الفنان الممتاز التى تبتدع وتبتكر •

وهكذا كان استسلام « شوبان » للعواطف التى استولت على مشاعره ، سواء فى شدة شوقه الى أهله وذوى قرباه وسائر أصدقائه ، أوفى صبابته الثائرة بمعبودته « كونستانتيا » ، أوفى غربته عن الوطن ، ووحدته المريرة فى سكينة ليالى الشتاء الطوال ، واقامته بين قوم يمتهنون وطنه وبلاده ، ويلومون الطبيعة على ايجادها على الأرض ••• كل ذلك قد تحول فى نفس « شوبان » الفنان الى ألحان ما كان لها أن تخلق هذا الخلق الحى لولا مرارة تلك

الآلام ، وما أيقظته فى روحه من مشاعر وأحاسيس . وهكذا يذوب الفانون ويحترقون شموعا لينيروا ظلام هذا الكون ...

ومن أراد أن يتبين ظلال تلك الآلام ، ليرى كيف تحولت الى أنغام فليستمع الى « شوبان » فى كثير وكثير مما أنتجه خلال تلك العوامل المحيطة به ، تلك العوامل التى وان كانت قد أشقته ردحا من الدهر فقد أسعدتنا والعالم معنا باخراجه تلك الأشجان المريرة فى اطار من النغم الحلو واللحن الساحر الخالد . وقد أنتج فى هذه الفترة عددا من مبتكراته ، نخص بالذكر منها : فالس رى مينير الكبير (مصنف ٧٠ رقم ٣) ثم أولى مقطوعات النوكتورن ، ومقطوعتى « كونسرت » مى مينير (مصنف رقم ١١) ، وفا مينير (مصنف رقم ٢١) . وهذه الثلاثة كلها من آثاره الممتعة وصحائف فنه الخالدة . وان دور آلة البيان فى المقطوعتين الأخيرتين يعد فريدا فى نوعه ، فذا فى التعبير عن عاطفته . ولقد وصف الموسيقار « لست » قسم « الأداجيو » من « الكونسرت » الثانى بقوله : « ان هذه المقطوعة كلها قد بلغت فى سموها أوج الكمال ... وما أروع سرعته التى ينقلنا بها الى المرح ، ومنه الى العاطفة العميقة ، ثم الى الاحساس القوى بالنور وهو يفيض حتى يغمر أرجاء الطبيعة ومروجها حيث السهل المنبسط الهادىء الهنىء ، تمثل من فوقه قصة مؤلمة فى حوادثها ، مظلمة فى مناظرها . ثم تستعرض الموسيقى بعد ذلك فى ألحانها أولئك الذين اختلفت طبائعهم وقد وحدت بين قلوبهم المصائب والآلام » .

وان موسيقى « شــوبان » المليئة بعواطفه ، المترجمة عن أحاسيسه ومشــاعره . كانت تجد صــداها فى قلوب الجماهير ، وبخاصة هؤلاء الذين أذابت قلوبهم لوعة الحب : وأدارت عليهم الصبابة كؤوسها المترعة : وكذلك المتقدمون فى السن من الشيوخ الذين كانت تجدد فيهم تلك الألحان ذكريات المــاضى . هؤلاء الفئات من الناس كانوا أقرب من سواهم الى هضم تلك الموسيقى ، وادراك مراميها : وفهم معانيها .

على أن تلك الآلام المبرحة التى أضنته فى ڤينا ، كان يخفف أعباءها الفادحة فى كثير من الاوقات تلك المجتمعات التى كانت تقيمها أسر النبــلاء والأشراف والطبقة الراقيــة ؛ فهنالك كان « شوبان » يرى فى حلوكة الليالى المظلمة أشعة نجوم الأمل تلامس قلبه فتوقظه من رقدة اليأس : وتخفف عنه عناء الذكريات . ومما سرى عنه أشجانه تردده على الدكتور مالفاتى « Malfatti » الطبيب السابق لبيتهوفن : وطبيب البلاط فى ڤينا ، وقد امتاز بخفة روحه وتعلقه الشديد بالموسيقى . وكان يقيم فى مغنى جميل تحف به حديقه غناء . كأنما صاغته الطبيعة من ألوان أزهارها وفتنة مناظرها قطعة موسيقية فاتنة ؛ وقد أكسبها اقبال الربيع نضرة وجمالا ، وزانت جوانبها أزهارالمشمش والكريز . وكانت بها شرفة تطل على نافورة جميلة قد استهوت بمنظرها الأخاذ روح « شــوبان » فأغرم بالجلوس فيها حيث يودع آلة البيان أسرار قلبه ، وأعمق عواطفه ، وأرق ألحانه .

وقد عنى فيما كان يغشاه من الحفلات بالتعرف الى نجوم الموسيقى الذين يسطعون فى سماء ڤينا . وكان ممن استرعى اعجابه ودهشته من هؤلاء موسيقى نادر يدعى سلفيك «Slavik» وهو عازف ماهر بآلة الكمان ، يكاد يعد فى عزفه من الأعاجيب الفنية حتى أن « شوبان » ليصفه بقوله :

« هذا پجانينى آخر ، يستطيع أن يؤدى ستة وتسعين من الأصوات المختلفة المتقطعة فى حركة واحدة ، هى رحلة القوس التى يقطعها مسرعا على وتر الكمان » .

وهكذا انقضى الشتاء والربيع ، بحلوهما ومرهما . على أن ڤينا لم تستطع أن تقدم اليه ما يحمله على اطالة المكث بها والاقامة فيها . وقد سيطرت على جوها الموسيقى موجة طاغية من « الڤالس » وهو النوع الوحيد الذى أخذ أهلها يهيمون به اذ ذاك ، وأصابهم منه ما يشبه الحمى حتى ان الناشرين وجهوا كل جهودهم لطبع المقطوعات من هذا النوع ، معرضين عن كل ما سواه مهما علت قيمته وسمت منزلته . كما أيأس « شوبان » من اطالة هذه الاقامة شعوره بأن مناخ ڤينا غير ملائم لحالته الصحية .

أمام هذه الدوافع أزمع « شوبان » الرحيل عن تلك المدينة ، ولكن الى أين ؟... الى فرنسا ، أم الى ألمانيا ، أم الى انجلترا ؟... انه الآن كثير التردد ، لا يستطيع أن يقطع بوجه من هذه الوجوه فيما ينتويه من الرحلة . وكم كان يتمنى أن يكون سفره الى ايطاليا لينهل من فيض موسيقاها الغزير ، ويتصل بأعلامها الأفذاذ ،

وهى يومئذ غنية وافرة الغنى بالموسيقى وبأولئك المؤلفين المشهود لهم بالتفوق فى الانتاج والمقدرة على التصنيف فى مختلف الألوان الموسيقية غنائية وآلية . وقد وقف دون تحقيق هذه الأمنية الغالية ما بلغه من اندلاع لهيب الثورة واشتعال نارها المستعرة فى ربوع ايطاليا وعواصمها المختلفة .

وما زال به التردد فى أمر رحلته . وسبيل وجهتها ، حتى استقر رأيه أخيرا على أن تكون الوجهة باريس . وقد كاد يحول دون ذلك أن جواز سفره روسى ، وأن روسيا لا تنظر بعين الرضا الى ارتياد هذه المدينة التى أصبحت ملتقى المهاجرين من البولونيين الفارين من سياستها الخانقة فى بلادهم الى فضاء الحرية الرحيب تحت سماء فرنسا . وقد عجزت الوسائل والوساطات لدى سفارة روسيا فى ڤينا عن أن تمنحه الترخيص بالسفر الى باريس . وكان آخر ما انتهت اليه الحيل والفتاوى أن يحصل على الترخيص بالسفر الى لندن عن طريق باريس . وبذلك هدأ اضطرابه ، وسكنت نفسه . وكتب الى والده باعتزامه مغادرة ڤينا فى العشرين من يوليه عام ١٨٣١ وأبلغه أنه سيبدأ رحلته وهو رافل فى حلل الصحة ممتع بموفور العافية : وأنه وان كان لديه من المال ما يكفيه الا أنه يرجو الوالد ارسال مزيد منه على سبيل الاحتياط الى مدينة ميونخ التى سيمر بها فى طريقه .

وقبيل الرحلة بأيام تلقى « شوبان » من الكاتب البولونى الشهير « ڤيتڤيكى Witwicki » رسالة تعد فى رقتها متعة أدبية ،

وفى سموها أنشودة وطنية ، أصابت الوتر الحساس من قلب الفنان الطموح • وقد جاء فى هذه الرسالة :

« احتفظ على الدوام باتجاه روحك الى الوطن • نعم الى الوطن • ومرة أخرى الى الوطن • وقد تصبح هذه الكلمات خلوا من كل معنى لو توجه بها كاتبها الى فنان عادى ، وليس الأمر فيها كذلك عندما توجه الى عبقرى مثلك • وكما أن للوطن مناخه القومى فان له كذلك أغانيه القومية التى تحمل طابعه وصورته • وان ما يشتمل عليه الوطن بين أرضه وسمائه من جبال وغابات ، وأودية ومياه ، يعبر فى وجوده عن معنى قومى ، ويفضى بأسرار ليس الوصول الى فهمها فى مقدور الجميع على السواء ••• ولكننى ياعزيزى « فردريك » كلما طال بى التفكير أطاف بى الأمل الحلو ، وهمس فى روعى ، بأن ستكون أنت الأول الذى يفض خاتم هذه الأسرار القومية ، ويخلق الكنوز الفنية الغنية للألحان السلافية • نقب عن أغانى الشعب السلافى كما ينقبون فى الجبال عن الصخور المعدنية والمائية ••• لقد انتهى الى علمى أن صدرك يضيق بما تعيش فيه الآن ، وأن أثر تلك الحياة فى معيشتك ينتهى بك الى الوهن فى عزيمتك • ولو كنت فى مثل مكانك لقلت : ليس لبولونى الحق فى البقاء على وجه الأرض ساعة مالم يقدم فيها عملا مجيدا لوطنه الذى أصبح فريسة بين الموت والحياة ••• اذكر دائما أيها الصديق الموهوب أنك لم تسافر لكى تذبل نضارتك ، بل آثرت النزوح عن بلادك لتكمل نفسك فى فنك ، ولتكون الرجاء لأسرتك ، والعزاء لوطنك ، فى الاشادة بهما وتخليد ذكرهما » •

وفى صبيحة اليوم العشرين من يوليه أقلته عربة البريد الى مدينة « زالتسبورج » ومنها الى « ميونخ » وقد أقام بها بضعة أسابيع . ثم استأنف الرحلة الى مدينة « ستوتجارت » التى بلغه بها فى الثامن من سبتمبر نبأ سقوط وارسو فى يد الروس مرة أخرى ... وقد أثار هذا النبأ المحزن كل ما سكن فى نفسه من أشجان مروعة . فأخذ يترجمها . ويعبر عنها فى ألحانه ، على مألوف عادته . فأنشأ مقطوعته « دراسة دو مينير » (مصنف ١٠ رقم ١٢) . وهى التى أطلق عليها فيما بعد اسم « دراسة الثورة » .

ومما يترجم عن خلجات صدره فى ذلك الوقت ما أودعه مذكراته اذ يقول :

« لكأنى أرى الضواحى تقوض وتحترق . وهاهما صديقاى جاس (Jas) وڤيلوس (Wilus) يقتلان دون ريب فى الموقعة . وهاهو « بسكوفتش » الغشوم وصحبه من الروس يستولون على المدينة العزيزة !!! موسكو تصدر أوامرها الى جميع العالم ... رباه ! أين عدالتك وانتقامك ؟ ألم تفض الكأس المترعة بلصوصية أهل موسكو ؟... وأخيرا هل الأقدار تعيش فى روسيا ؟ » .

ولم يكن يدور بخلد « شوبان » الفنان المبعد يوما أنه سيكون على ما وصفه بدرفسكى « Paderewski » :

« انه العبقرى الذى سينقل بأوراق تدوينه الموسيقى ذكر بولونيا خارج حدودها المحصورة الممنوعة . وأنه هو الكاهن المنتظر الذى سيقوم بالتبشير فى العالم لنشر مجد بلاده » .

باريس

مدينة العازفين على البيان

ما كادت عربة البريد تتجاوز مداخـل باريس حتى وثب « شوبان » واتخذ مكانه الى جانب السائق ، وأخذ يجيل بصره بين المناظر التى لم يكن له بها عهد . وقد راعته المبانى التى تفرع النجم بطولها ، وتزاحم الناس فى كتل بشرية متحركة بما يشبه حركة الأمواج الصاخبة فى المحيط ، وقد خيل اليه لكثرة هذا الازدحام أن باريس قد قامت بها ثورة ثانية ... فهـذه طائفة قد طوقت أعناقها بأربطة تتميز بها ... وهؤلاء يرتدون صديريا يختلف لونه باختلاف العشيرة أو المذهب ... بينما آخرون يرتدون معاطف طويلة تكاد تصل الى أقدامهم ... ثم هذا فنـان يحتذى مثال « رفائيل » فى زيه ، وقد أرسل شعره حتى تدلى الى منكبيه ، ووضع على رأسـه قبعة عريضة ... وأولئك آخرون يمثلون فى أزيائهم حياة العصور الوسطى ... وبين هذه الطوائف والجماعات ترى الباعة المتجولين وقد انبثوا فى كل مكان يعرضون سلعهم ...

وكانت مناظر هذه الأخلاط ، وتلك الجماهير وما تحمله من صخب وضوضاء ، مما لم يسترح اليه « شوبان » بادىء الأمر . ولكن سرعان ما استطار لبه فرحا بتلك المفاجأة التى لم يكن يتوقعها . وأى شىء أروح لنفسه ، وأهنأ لقلبه ، من رؤية مظاهرة قوامها

الشباب يسيرون فى الطرقات : ويهزون الأرجاء بصوت واحد يرتفع من الجميع « لتحيى بولونيا » !!!

أما السائق الذى لم يكن يجهل شيئا من الطرقات . ولا من الجهات التى يقصدها : فقد أسرع الى تفسير « شوبان » المتلهفة بايضاح جلية هـذا المنظر وأعلمه أنهـا مظاهرة تكريم للجنرال راموريتو « Ramorino » الايطالى الذى تطوع لانقاذ بولونيا من براثن الاستعباد الروسى •

وكان التزاحم بالغا أشـده فتريثت العربة الى أن اجتازتها المظاهرة ؛ ثم واصلت السير الى محط وصولها المعتاد •••

لم يطل الوقت بشوبان حتى وفق الى العثـور على مسكن مؤلف من غرفتين فى الدور الرابـع فى « البوليفـار بويزونيير رقم ٢٧ » • وقد سره من هذا المسكن وجود شرفة به كانت تطل على « البوليفار » الى مدى بعيد • أما تلك الأشجار الباسقة التى انتظمت فى صفوف على جانبى الطريق ، فقد كانت فى تناسقها وجمال خضرتها وامتداد ظلالها موضع اعجابه ومصدر ابتهاجه •

وفى اليوم التالى اندمج « شوبان » فى مصاف الجماهير الصاخبة بين الطرقات والميادين ، وأنساه ذلك الى حين ما كان يلقاه فى فينا من الوحشة والاغتراب • على أن اعجابه هذا لم يستمر طويلا ، فقد أقلقته كثرة الضجيج ، وتلك المظاهرات التى لا ينقطع سيلها ، وهـذه الأحاديث التى تتوالى دون انقطاع حول الموضـوعات السياسية وما تستتبعه من فضول ، حتى كان مما كتبه الى صديقه « تيتوس » قوله :

« انك لا تستطيع أن تتصور مدى ذلك التأثير الذى انتابنى من صيحات الشعب المتذمر وهو يرعد ويتوعد » .

ولو لم يتحدث بذلك « شوبان » فى رسائله لتحدثت بذلك طبيعته ، فهو لا يستقر قراره بين تلك المزعجات ، ولا يمكن أن تسكن نفسه الى الضوضاء الصاخبة ؛ وليس لغط السياسة مما يطرب له سمعه أو يميل اليه طبعه . وانما هو موسيقى بشعوره ولحمه ودمه . ومن أجل الموسيقى عاش ، وفى سبيلها ارتحل . لهذا لم يكن له تجوال ولا تردد الا على الأماكن الحافلة بالموسيقى وبخاصة الأوبرا الايطالية . ولم يكد يعثر على ضالته المنشودة حتى تراه يكتب فى رسائله قائلا :

« هنا يستطيع المرء أن يتعرف ما هو الغناء . واليوم ستغنى ماليبران جارشيا (Malibran-Garcia) ملكة الغناء فى أوربا جميعها »

وقد قدم « شوبان » ما كان لديه من خطابات التوصية الى الموسيقار پيير « Paër » وفى وقت وجيز أمكنه بواسطته التعرف الى كبار الموسيقيين بباريس وفى طليعتهم شيروبينى « Cherubini » وروسينى ثم كالكبرنر « Kalkbrenner » الذى طبقت شهرته الآفاق فى العزف بآلة البيان حتى بزّ فيها الأنداد والنظراء ، وعد أمهر العازفين بها فى أمم العالم جمعاء . وقد خطر لشوبان أن يزوره ، فولى شطر منزله ، وقلبه يرجف تهيبا من تلك الشخصية الكبيرة المتفردة فى فنها والرهيبة فى شهرتها . فلما لقيه وجد الرجل الذى يجمع الى عظمته الهدوء والاعتدال . أما نظراته فعميقة فاحصة

تخترق الحجب الى ماخلفها بين دقيق أسرار النفس • ويدل سمته على الوقار . وعلى أنه رجل مثالى فى فضيلة الخلق • وفوق جميع الاعتبارات أستاذ عالم ؛ كان عزفه بالبيان احدى صور الاعجاز الفنى الذى لايمكن تحديه بموازنة أو مقارنة • وهو فى هذا العزف ثابت رزين . لا يحرك رأسه ولا شيئا من جسمه بأقل حركة ؛ فهو سامى الأسلوب فى العزف ، ومذهبه فيه أبعد من أن يجارى ، وأصعب من أن ينال • وحسبك فى وصفه تلك الصورة التى يرسمها « شوبان » عنه فى هذه الجملة الموجزة :

« انه عملاق ضخم وبقية العازفين بالبيان ليسوا الى جانبه سوى أقزام ؛ وأنا فى الطليعة من هؤلاء » •

واذا كنا قد تبينا رأى « شوبان » فى « كالكبرنر » فلنتوجه الى هذا الأخير لنلتمس عنده الرأى فى صاحبه • فقد استمع كل منهما الى الآخر عدة مرات ولما أتم « شوبان » عزف مقطوعته « كونسرت مى مينير » قال له « كالكبرنر » :

« ان لك عزف كرامر « Cramer » وتوقيع فيلد « Field » » •
وقد ارتدى « شوبان » من نسيج هذا الثناء وشاحا جمله يغتبط بنعمة الفن فى نفسه • وعلى الرغم من هذا الاطراء فان « شوبان » على معهود سنته فى التواضع لم يذهب فى الأمر مذهب الاستطالة والخيلاء ؛ بل تقدم الى العالم العازف ملتمسا منه أن يقبله تلميذا فى مدرسة فنه • ولم يفت « كالكبرنر » أن يتحين هذه الفرصة الذهبية التى ألقاها اليه القدر عفوا بلا طلب ، وهو أن يعد

« شوبان » نجم المستقبل العالمى خريج مدرسته وتلميذ فنه . فقد رأى بعين فراسته الثاقبة ما كان ينتظر هذا الفتى من صيت ذائع ومستقبل لامع . فأراد أن يكون مساهما فى فضل بناء هذا الصرح فحقق ملتمس « شوبان » وأخذ يوجه نظره فى الحال الى بعض أخطائه ، وفقدان القوة فى أسلوبه ، حتى لقد وضع اشارات بقلمه على بعض مواطن من مقطوعته « الكونسرت » يرى تعديلها . وقد اشترط الأستاذ على تلميذه ألا تقل مدة هذه التلمذة عن ثلاث سنوات . فبدا لشوبان أنها أطول مما ينبغى ، وأن لابد من استشارة والده ، واستطلاع رأى أستاذه ومربيه « السنر » . وقد تلقى منهما الاجابة الحاسمة ، والرد القاطع الذى سيبقى العالم مدينا به لهما كلما ذكر « شـوبان » . فقد كان طريق « شـوبان » مع « كالكبرنر » طريقا ينتهى بانهيار شخصيته ، وذهاب عبقريتـه كمؤلف ، ليتفرد بمهنة العازف الذى هو صورة مقلدة من شخصية أستاذه . فلنستمع الى الوالد فى رده عليه ماذا يقول ؟...

« أى بنى العـزيز !! اننى لم أسـتطع أن أفهم كيف يرى « كالكبرنر » ، وقد أقر لك بهذا الاستعداد ، أنك لا تزال بحاجة الى قضاء ثلاثة أعوام فى ظل ارشـاده ليخلق منك فنانا وزعيم مدرسة . انك تعلم أننى لم أدخر جهدا فى تنفيذ رغباتك ، ولم أقصر عن غاية تصل بك الى المزيد من تثقيفك وانماء مواهبك . ولم أعترض سبيلك فى أمر ما . ولعله لا يغيب عنك أنك لم تهب الوقت الكافى من زمنك لتدريب الأصابع ومهارة العزف بالبيان ، فقد كانت روحك متفانية فى الموسيقى ، مشغولة بها أكثر من أصابعك ».

ومما سجله الوالد فى هذا الخطاب ، وهو يمثل فيه رأى « السنر » قوله له :

« ان المحاكاة لن تصل فى قيمتها الى جمال الأصل ومكانته . وأنت حينما تقلد لن تكون أصيلا مهما برعت فى هذا التقليد . كن صغيرا ما شئت ، ولكنك رغم هذا ستجد فى قدرتك ، وفى متناول شخصيتك التعبير عما يجيش بفكرك أكثر مما يستطيعه غيرك ، مهما سمت مكانته وخبرته ، ورسخت قدمه فى العزف . وان « السنر » لا يطمع فى أن تكون عازفا ماهرا فحسب ، أو مجرد فنان نال شهرته عن طريق التدريب وطول المران ، فان ذلك سهل غير بعيد المنال ، وهو عديم القيمة على أية حال ... انما يريد « السنر » أن تضع نفسك حيث اختارتك الطبيعة ، لتؤدى الرسالة التى خلقك الله لها ... ولقد كاد يتميز غيظا من تلك الجرأة التى حملت « كالكبرنر » على وضع اشارات بقلمه نقدا لبعض ما اشتملت عليه مقطوعة « الكونسرت » . وكيف يسمح لنفسه بذلك قبل أن يتاح له استكمال الحكم الصحيح عليها بالوقوف على تأثير موسيقاها حين يستمعها من فرقة كاملة ، كما يقتضيه تأليفها للعزف الاجماعى . على أن أعمال يد المحو فى مقطوعة تمت لجريمة فنية لا تغتفر . فالمقطوعة الكاملة فى جملتها أشبه بالمنزل الذى تم بناؤه . فليس لأحد أن يعمل على هدم شىء من دعائمه بحجة الزيادة على الحاجة . أو بمعنى آخر ليس له أن يكون عاملا على انهيار صرح بأكمله بدعوى أنه لم يحز رضاه ولم ينل اعجابه ... ويقول « السنر » أيضا انك الآن تتمتع بالمقدرة التى

تستطيع معها التمييز بين الجيد وماهو أجود منه . وان فى مستطاعك أن تشق الطريق ، وستهديك عبقريتك الى بلوغ نهاية أهدافك وكمال مقاصـدك ... ويقول « السنر » ان لك فوق جميع الاعتبارات طابعا ممتازا وايقاعا متفردا كذلك ، وقد صبغك بهما وطنك ؛ وجعل لفنك لونا ذاتيا ، وطابعا أصيلا ، يحتم عليك الواجب أن تحتفظ بهما » .

أما ماخطه « السنر » بنفسه الى تلميذه « شوبان » فهاك رسالته التى نلمس فيها الحنو الأبوى ، والنصح التربيبى ، والتوجيه الفنى ، والغيرة الوطنية . قال :

« وارسو فى ٢٧ من نوفمبر عام ١٨٣١

صديقى العزيز

اطلعت فى مزيد من الاغتباط على رسالتك التى تناولت فيها الحديث عن « كالكبرنر » وحسن لقائه لك ، وهو عازف البيان الأول (على حد تعبيرك) . وقد كنت عرفت والده عام ١٨٠٥ ، وولده ما يزال فى طراوة السن ونضارة الصبا ، وان كان يعد من أمهر العـازفين وقتذاك . وانه ليطيب لى أن يعد باطلاعك على مكنون أسرار الفن . ولكن الذى أذهلنى فى الأمر هو أنك تحتاج فيما يقدر لك الى قضاء ثلاثة أعوام أخرى !!! فهل تبين حين رآك وسمعك للمرة الأولى أنك مازلت حتى الآن بحاجة الى استنفاد مثل هذا الزمن الطويل للوصول بك الى فهم طريقته ؟... وهل تبين فى غير تردد أن استعدادك الموسيقى وقف على البيان ، وأن

موهبتك فى التلحين مقصورة على الانتاج فى هذه الدائرة وحدها ؟ فان كان يرغب مخلصا فى أن يضع خبرته الفنية فى خدمة الموسيقى بصفة عامة . وخدمتك بصفة خاصة . وكان فى ذلك مثال الصديق الوفى ؛ فكن له التلميذ الشاكر .

انما الذى ينبغى هو أن تكون الدراسة فى علم صوغ الألحان غير محدودة الأفق : ولا متقيدة بحرفية القواعد الموضوعة . وذلك ألزم بالنسبة للفنانين الممتازين فى استعدادهم ، والذين تنبىء موهبتهم عن قوة شخصيتهم واستقلالهم . وانه لخير للمربى أن يفسح المجال لهؤلاء حتى يشقوا طريقهم دون تقييد أو تأثير . فقد يكون فى مكنتهم الوصول الى مالم نستطع الوصول اليه . وينبغى أن لا يكون الهدف هو بلوغ الطالب مستوى أستاذه وكفى لكى يقفا معا فى درجة واحدة من المعرفة ، بل يجب أن يستند الطالب الى شخصيته ؛ ويعتمد على عبقريته ، فى السمو الى درجة أعلى ، يكون هو المتفرد فيها حيث تلمع شخصيته وحدها .

ومجرد العزف على الآلات ، مهما بلغ صاحبه من المهارة فيه ، مثل « پجانينى » على الكمان أو « كالكبرنر » على البيان ، ومهما يكن هذا العزف ساحرا رائعا ، فانه فى أية درجة يبلغها ، وفى أى مقام يرتقيه ، فليس سوى وسيلة من وسائل الفن ، وليس غاية له . ولا أدلّ على ذلك من أن الشهرة التى نالها « موتسارت » و « بيتهوفن » باعتبارهما أمهر عازفين بالبيان بين معاصريهما قد اختفت بموتهما . بل وأزيدك على ذلك أن مقطوعاتهما التى وضعاها خاصة بآلة البيان ؛ وان كان لا يخالف فى سمو قيمتها أحد ؛ قد طغى

عليها الكثير مما لا يحصى من مؤلفات هذا النوع ، وأثرت فى شهرتها الأذواق المتعاقبة المختلفة بين قديم وحديث . وقد تسألنى اذن فيم كان خلود هذين العبقريين وشهرتهما العالمية ؟ فأقول لك ان شهرتهما الخالدة انما كانت فى تراثهما الفنى الباقى على الزمن ، ذلك التراث الفنى الذى لم يحدد بآلة واحدة بل كان الهاما موسيقيا عاما ، غير مقيد ولا محدود ، كما يتجلى ذلك فيما خلفاه من أوبرات وسمفونيات ورباعيات وسواها من انتاجهما الموسيقى التليد الذى سيظل قويا على تعاقب الأجيال ، ويسمو على كل ما تنتجه العصور المتتالية دون أن يتطاول انتاج أى عصر الى مثل مكانته .

وعلى المربى كذلك أن لا يطيل على التلميذ مدة تلقينه طريقة معينة ، وذوق معين ، لشعب معين . فالجمال الحق لن يكون تقليدا أبدا . ولكنه يتجلى فى ارتباط العبقرية بالمشاعر والأحاسيس . وليس فى الدنيا من بلغ نهاية الفن ، ولا فى الوجود من أدرك نهاية الكمال . فالكمال لله وحده . لذلك ينبغى أن يظل باب الاجتهاد مفتوحا أمام الجميع . وليست الأفراد ولا مختلف الشعوب فى تحصيلها قاطعة فى هذا الطريق الا شوطا محدودا نحو الكمال طال أو قصر .

وبكلمة موجزة أقول لك انه لن يستطيع الفنان أن ينال اعجاب معاصريه الا عن طريق شخصيته ، وباستكمال تفسه لنفسه . وان شهرته فى الحاضر ، وخلوده فى المستقبل لن يتحققا الا حيث تكون دعامتهما عبقريته الذاتية التى تتجلى فى انتاجه الفنى .

سأكتب اليك فيما بعد بأوفى من هذا . وأملى أن تبلغ أخلص تحياتى الى النبيل « بلاتر Plater» و « جرزيمالا Grzymala » و « هوفمان Hofmann » كما أرجو أن تحمل أشواقى الى « لسوار Lesueur » و « پير Paër » مع تمنياتى الى « كالكبرنر » و « نوربلين Norblin »

جوزيف السنر

وقد كان من أثر هاتين الرسالتين ؛ من والد « شوبان » وأستاذه أن عدل « شوبان » عن هذه التلمذة . على أن « كالكبرنر » كان مثال الفنان المخلص فلم يغضبه رفض « شوبان » وأسرته لذلك العرض ؛ بل تولى بنفسه تقديم فنان بولونيا الى أعلام الموسيقى فى باريس وبخاصة الموسيقار هيلر (Hiller) وهو من مشاهير العازفين بالبيان ، كما أنه مؤلف وكاتب موسيقى ، والموسيتار فرانخوم (Franchome)عازف ممتاز بآلة الكمان الجهير (الڤيولنسيل) وقد كان لهما كبير الفضل فى معاونة « شوبان » على اقامة حفلاته فى باريس .

ففى السادس والعشرين من فبراير عام ١٨٣٢ اشترك « شوبان » للمرة الأولى فى حفل عام ، قام فيه خمسة من أشهر العازفين بالكمان بتأدية احدى خماسيات بيتهوفن . كما قام ستة من أمهر العازفين بالبيان ؛ فى مقدمتهم « كالكبرنر » و « هيلر » و « شوبان » بعزف مقطوعة من تصنيف « كالكبرنر » وضعها لتؤدى بست آلات من البيان . ثم تلا ذلك مقطوعة شوبان « كونسرت فا مينير » ومتنوعاته على أحد ألحان موتسارت .



فردريك شوپان ، في الثانية والعشرين من عمره

وبدأ « شوبان » على المسرح فى هذا المساء فتى نحيلا شاحب اللون . ولم يكن فى البهو من المشاهـدين الا من يشغل نصف المقاعد وأكثريتهم من البولونيين ، وعدد من النقاد . وكان فى المقاعد الأمامية فتى موسيقى ؛ متوقد النظرات ؛ شديد الترقب والانتباه . ولم يكن ذلك الفتى الشاب سوى « لست » الموسيقار العالمى فيما بعد . وقد تملكه العجب بمجرد لمس أنامل « شوبان » لمفاتيح البيان . أما ألحانه فقد أخذت بمجامع لبه .

وأخذ « شـوبان » مكانه من البيان ؛ منفردا بعزف قطعـة جديدة . وراح يتحدث الى الناس عن طريق هذا العزف حديثا لا عهد لهم به من قبل . وأحس كل فرد فى هذا الجمع بأسرار هذا الحديث ، وهى تنفذ الى شغاف قلبه ، وتتسرب الى أعماق نفسه. وكان عنوان القطعة الموسيقية التى عزفها شوبان « أغنية الحياة » وكانت بمثابة لغة أصيلة يفهمها كل قلب . وقد بدا الفنان رقيقا فى عزفه ؛ عنيفا فى محادثته للقلوب . ووجد « لست » فى تلك الموسيقى ما يشف عن عبقرية فذة تشق طريقا جديدا فى الفن . فما برحا منذ تلك الليلة أن أصبحا صديقين حميمين متلازمين .

أما « شوبان » فى معرض النقد الفنى لهذا الحفل فانتبينه جليا فيما كتبه فيتس (Fétis) النقاد اللاذع العنيف الذى لا تأخذه فى الفن شفقة ولا هوادة . قال فى مجلته الموسيقية :

« لقد رأينا هنا فى هذا الحفل فتى كان يمنحنا أعصابه . ولم يكن يترسم فى فنه أنموذجا يقلد فيـه غيره . بل لقد كان بحق شـيئا

جديدا . وغاية فى الجدة . بل هو فن طالما تمنى المرء الحصول على بعضه . فقد طالعنا بمجموعة نادرة من خواطر جديدة أصيلة لا يمكن أن نجد لها مصدرا أو مرجعا سواه » .

ولكن «شوبان» على ما عرفناه عنه لم يستقبل هذا الثناء بزهو أو غرور ، فهو الفنان المتواضع البعيد عن كل صلف وكبرياء . ولم يكن ما تجمع من ايراد هذا الحفل كافيا لتغطية نفقاته . ولكن لم يؤثر ذلك فى نفس « شوبان » بقدر تأثره من عدم اقبال الشعب الفرنسى على شهود حفله ، مما جعله يفكر بعد عودته من الحفل فى منتصف الليل الى مخدعه فى أن القدر يناوئه ، ثم جالت بخاطره فكرة الرحيل الى أمريكا .

ولكن أنى لشوبان أن يجد المال الذى ينفق منه فى رحلته وفى ديار غربته ، وقد كاد مورد نفقاته ينضب ، وضاق أفق معارفه وأصدقائه ، فأصبح أمره محصورا بين طبقة الفنانين ومواطنيه من البولونيين . وكان يرى أمامه مثلا حيا فى الموسيقار مايربير (Meyerbeer) الذى أصبحت مسرحيته الغنائية « روبرت الشيطان » تدر عليه كنوز الذهب ، وهو — على حد تعبير شوبان نفسه — لم يبلغ هذه النتيجة الا بعد أن أمضى فى باريس ثلاث سنوات : كان يستنفد فيها النفقة على نفسه من ماله الخاص ، على الرغم من سابق تمتعه بالشهرة قبل ذلك بعشر سنوات .

ولقد ضاق صدر « شوبان » وعيل صبره حتى كشف عن همه فى رسالة منه الى صديقه « تيتوس » قال فيها :

« لقد صرعنى القدر هنا ... انك لتجد فى باريس كل شىء تهواه ... ففى استطاعتك أن تسمر أو تسأم وأن تضحك أو تبكى ، كما تشاء ، دون أن يحس بك أحد . لأن هنا ألوفا وألوفا غيرك يفعلون فعلك . والكل يسلك طريقه . وأعتقد أنه لا يوجد بلد آخر يفوق باريس فى كثرة العازفين بالبيان . ولا أعرف عددا من الحمير . ولا من مهرة العازفين يفوق فى كثرته الموجودين من هؤلاء وأولئك هنا . أنت لا تدرى مدى حزنى لأننى لا أستطيع أن أجد من أبثه آلامى . ولعلك لا تجهل أن التعارف سهل ميسور بالنسبة لى ، ولهذا فانى غارق فى هؤلاء الأصحاب الى الآذان . ولكنى لا أجد واحدا من كل هؤلاء جديرا بأن تتنهد معا ، وأحسب أنى امرؤ غير بقية الناس فى شعورهم . ومن أجل ذلك أتعذب . وكم تمنيت لو أتيحت لى الراحة أستمتع بها ولو يوما واحدا لا أرى فيه وجه انسان ، ولا أتحدث فيه الى أحد ... » .

وكان مسكن « شوبان » الصغير لا يخلو من شخصيات كبيرة تختلف اليه وتزور صاحبه الفنان المغترب . ومن بينهم البرت جرزيمالا والنبيل پلاتر ولست وبرليوز . وكان هذا الأخير عائدا من روما ، وقد ازدحمت فى رأسه المشاريع . كما كان مسكنه قبلة يقصدها الكثيرون من مواطنيه الهاربين من أغلال الاستعباد فى بولونيا ، وهم جميعا شباب فقراء الا من ثروة الوطنية والايمان . فلم يكن « شوبان » يدخر وسعا فى بذل ما يستطيعه لهم ، مما أنضب معينه ، واستنفد ما كان لديه من مال ، رغم المعونة المحدودة التى كان يرسل بها والده اليه .

ولم تكن نفسيته فى ذلك الوقت بأسعد حالا ولا أنضر أملا ،

بل لعلها كانت قاتمة عابسة ؛ أو لعلها أصبحت فى نظره أمرا ثانويا بعد أن تحطم قلبه وتهدم رجاؤه بما نقضت « كونستانتيا » من عهد حبه وتجاوزها فى الغدر أقصى حدوده ، فقد علم الآن أنها تزوجت من سواه غير عابئة بذلك الحب العنيف الذى صوره « شوبان » فى ألحانه وموسيقاه ؛ وكان أمله الحلو وغاية رجائه فى الحياة . وقد عرف ذلك من شقيقته حينما كتبت اليه عن « كونستانتيا » تصفها بقولها :

« انى لأعجب كيف يتجرد المرء من الشعور ؟ انها تمثل فى عينى قصرا فخما يجذب اليه الأنظار بينما هو أجوف فارغ خلو من كل شيء . أما الشعور بالعاطفة فان ذلك عندها لا يتعدى الغناء » .

ولكن هل يجدى هذا المنطق الذى تعزيه به شقيقته عن فقدان الوفاء فتخمد نار الجوى فى قلبه المعذب !!!

لم يكن أمام « شوبان » من سلوى ولا عزاء سوى أن يستسلم للبيان فيودعه أشواقه ، ويبثه أشجانه وآلامه ، ويكشف له عن أسرار كتمها عن الناس جميعا وباح بها لأوتاره ، لتفصح عنها بنغمات أبلغ من الكلمات .

وكان يقيم بالدور الأعلى من مسكنه فتاة بارعة الجمال ، دقيقة الشعور ، محبة للموسيقى قديرة على فهم لغتها . فكانت تستمع الى أنغام « شوبان » وتحس لواعج شوقه المنبعثة من خلال ألحانه فتتساءل قائلة : من تلك التى ملأت هذا القلب بكل هذا الشوق ؟

وكان « شوبان » يصادفها على درجات السلم فوقعت بينهما

نظرة ، فابتسامة ، فسلام ، فكلام ... أما الموعد واللقاء فقد التمستهما من « شوبان » ودعته الى زيارتها فى مسكنها . فلم يكن يصغى الى رغباتها المتكررة فى ذلك . وما كان أصدق تعبيره عن نفسه ، واعتداده بنزاهة الفنان الأمين فيما كتبه الى صديقه « تيتوس » اذ يقول عنها :

« انها فتاة متزوجة وانى لست كلفا بأن أزج بنفسى فى تمثيل دور أكون فيه الغارم » .

لعله كان يتخيل أن « شوبان » فى شبابه النضر وفنه الفتى وموسيقاه الساحرة يحاول أن يسرى عن قلبه المكبوت فينتقم من ذلك الغدر بغدر آخر !!ولعله كان يتصور منه أيضا أن يحطم تحت قدميه كبرياء المرأة ، ويثأر لنفسه من تلك التى خدعته ، ولعبت بقلبه لعب الصبى بالكرة . وكان فى مقدوره أن يجد من السعادة الوقتية والحب الحاضر ما تلتئم به جراحه الماضية وحبه الغابر ...

لو كان غير «شوبان» فلعله كان خليقا أن ينحدر الى مثل هذا ، وأكثر من هذا . ولكنه « شوبان » ... بل هكذا يجب أن تكون فضيلة الفنان الأصيل ...

قمة المجد

لقد كان ليل الحوادث مطبقا بظلماته على حياة « شوبان » فمن غربة الى فقر ، الى آلام نفسية وذكريات مريرة ، الى عقبات فن أن القدر يتجهم له فيها ، وينازله حربا لا هدنة فيها ولا هوادة .

ولكن هل يبقى الليل ليلا بلا صباح أبد الدهر ؟...

ان القدر لأرحم بشوبان ، وبكل فنان صبور ، من أن يدعه بين أنياب الكوارث حتى يصير حطاما تذروه الرياح . فقد التفتت اليه العناية الالهية التفاتة كريمة مكنته على حد تعبيره من أن يعبر البحر الخضم الى شاطئه الثاني ، مغالبا الأعاصير والأنواء والتجج الى رحاب الأمان وساحة الاطمئنان ...

فبينما هو يجول فى باريس جولة واذا بالأمير « رادزويل » يلقاه فى صدفة من صدف السعادة المتاحة دون توقع ولا موعد ولا انتظار . هذا هو رسول الرحمة والانقاذ يأخذ بيد الغريق الحائر ليكشف عن نجمه المتوارى فى الضباب فيخرج به الى التألق والانارة فى سماء باريس كلها . فقد كان « رادزويل » فى طريقه الى زيارة الثرى العالمى « البارون روتشلد » فدعى « شوبان » الى مرافقته فى هذه الزيارة التى كانت مفتاح الكنز المفقود لشهرته . فقد كان قصر « روتشلد » نديا يجتمع فيه سراة القوم ، وتلتقى به الطبقة العليا من أرباب الثروة والنفوذ والجاه فى باريس . ولم يكد « شوبان »

يرسل موسيقاه فى أجواء القصر حتى سحر ألباب السامعين ، وسيطر على مشاعرهم ، وتملك أزمة حواسهم .

وبدأت شهرته منذ ذلك اليوم تملأ الآفاق . وتسابق الأثرياء الى دعوة « شوبان » فى قصورهم ومجتمعاتهم . ولم يكن فى قدرته أن يلبى جميع هـذه الطلبات التى أقبلت عليه اقبال السيل المنهمر ؛ وذلك على الرغم من أنه لم يكن يتقاضى فى مقابل الدرس الواحد أقل من عشرين فرنكا .

ولما اتسعت ثروته انتقل الى منزل أنيق جديد بشارع « شوسيه دى انتين رقم ٥ » وأخذ اسمه يتردد على الألسنة والأفواه . وبدأ فجر ذلك الليـل المظلم الطـويل ينبثـق نوره على حـد تعبـير « شوبان » نفسه .

ان « شوبان » منذ بداية هذه الفترة من حياته أخذ يتسع أفقه بسرعة فائقة ، فما تكاد موسيقاه تصل الى الآذان حتى تصل الى القلوب بسرعة الضوء . فنال بذلك المنزلة التى لا نجد لها وصفا أدق ولا أعمق مما وصف به « لست » موسيقاه حيث قال :

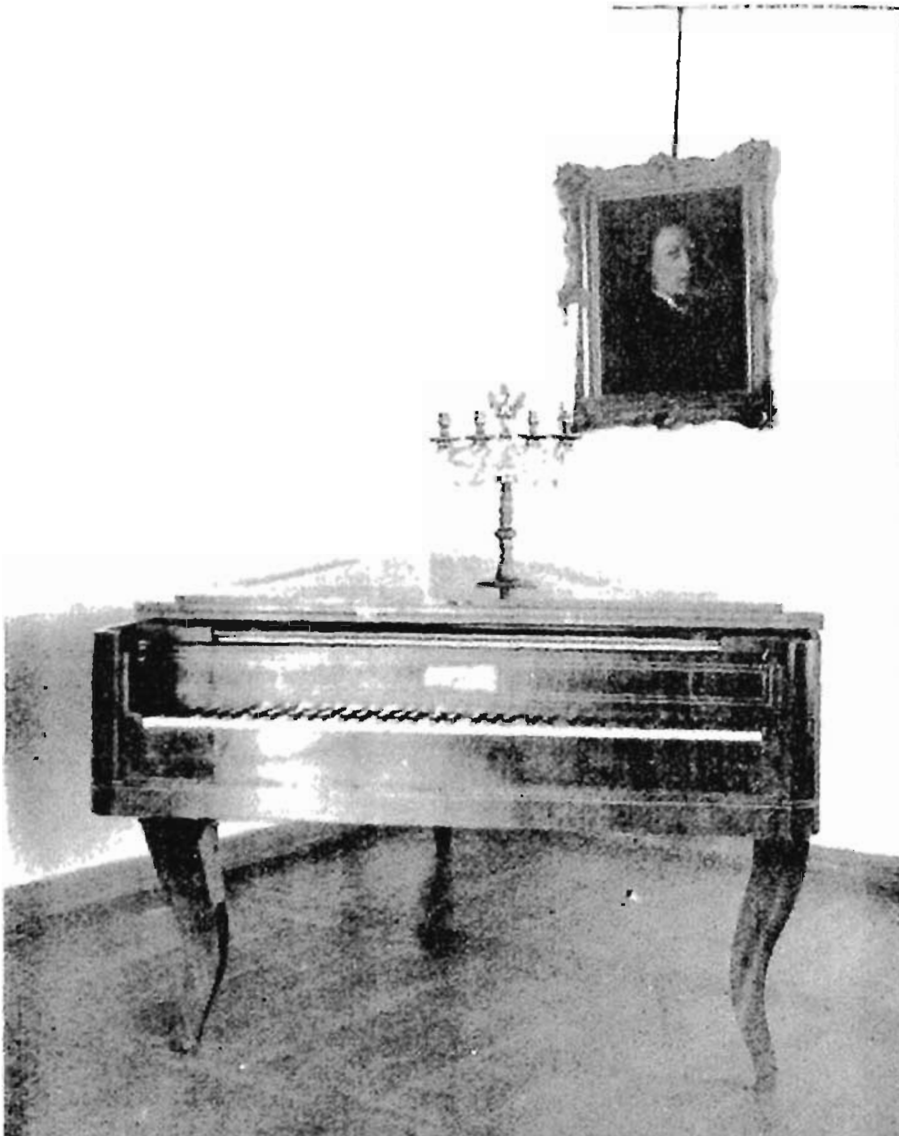
« انها أنسام الحب ، ووردة الربيـع فى الشتاء . وانها لبـاب يوصل الى دنيا غريبة ، كل شىء فيها عجيب . دنيا مليئة بمفاجآت غير مرتقبة . دنيا أحلام وأمانى . ولـكنها أحلام غير كاذبة ، وأمانى تتحقق » .

وعلى قدر ما كان « شوبان » يشعر بانطلاق وتدفق وحرية فى المجتمعات الخاصة ، فيرسل نفسه مع موسيقاه بفنه الساحر ،

شاعرا بتقدير من حوله وتفرغهم بالقلوب والمشاعر لاستماعه ؛ سيما اذا كان ما حوله من الجو مزدانا بالفتنة والجمال والوجوه المشرفة والثغور الباسمة ... على قدر ما كان « شوبان » كذلك ؛ فقد كان يكره الظهور فى الحفلات العامة ؛ وتنقبض نفسه من مظاهرها الصاخبة ؛ ذات الأذواق المتناقضة ؛ والمشاعر المتباينة التى لايجمعها فن ؛ ولا يوحدها رأى . على أننا عندما نصف شعور « شوبان » فى مثل هذه الحفلات فمن الخير أن ندعه هو يحدد لنا قيمة هـذا الشعور وحقيقته . فقد كتب الى صديقه « فرانس » فى ذلك يقول :

« اننى ما خلقت لاحياء مثل هذه الحفلات العامة . ان كثرة الجماهير تخجلنى . وأنفاسهم المتصاعدة تسبب لى اختناقا . ونظراتهم الفضولية تصيب أعضائى بشلل وكساح . ان عواطفى تنكبت وتتبلد أمام الوجوه الغريبة » .

ومن هذا تنكشف لنا ظاهرة نفسية لشوبان . ولعلها مقياس نحب ألا نهمله فى تكييف حياة الفنانين ومثلهم العليا . وباختصار يمكن القول بأنه عندما يكون هدف الفنان المتلهف على الشهرة ارضاء الجماهير ، فان هدف الفنان الصادق الأمين هو ارضاء ضميره واقناع روحه . هكذا يحدثنا « شوبان » فى تلك الرسالة الوجيزة الى صديقه فرانس ، فتتبين فيها وفيما سبقها أنه لا يتلمس نزوات العامة من الجماهير ليصنع منها الفن الذى يقدمه اليها ، ويبيعها ما أخذه منها . بل يمضى الى أعماق مشاعره ، وجراحات قلبه ، وآلام نفسه ، ووحشة اغترابه ، وجفوة حبيبه ، وكوارث أمته ، فيخلق منها الفن العبقرى الذى يأسر به الخاصة ويسحر به العامة .



پیان فردریك شوپان

ولم يكن « شوبان » يميل الا الى عزف ما تنتجه عبقريته لأن هذا الانتاج صورة اعانه وصدى مشاعره . ولم يحل ذلك بينه وبين أن يعزف للناس آثار العبقريات التى كانت تتملك اعجابه ، وفى طليعة أصحاب تلك العبقريات باخ وبيتهوفن وموتسارت .

وكان « شوبان » ككل فنان أصيل . لا ينظر الى المادة الا كوسيلة لرغد العيش ومتع الحياة وتجميل مناظر الدنيا المحيطة به ؛ فعلى مقدار كثرة دخله كانت كثرة الانفاق . فلو نظرت اليه الآن لرأيته صاحب أجمل عربة فى باريس ؛ يرتدى أفخم الملابس ؛ لايفارقه قفاز أبيض من الجلد النـادر ؛ مجاريا فى كل مظاهر حياته طبقة الأشراف والنبلاء . وقد ازدان مسكنه بأثمن السجاجيد وأفخر الرياش . وامتلأت جوانبه بالأوانى القيمة من الفضة والبللور . ولم يخل فى يوم من السنة على اختلاف فصولها من أندر الزهور وأبهج الورود . وقد أصبح كلفه بالأزهار معروفا لدى جميع أصدقائه وعارفيه ، ولا سيما الفتيات والسيدات ، فكان ذلك يحملهم على ألا يزوروه الا وهم يحملون اليه النادر الطريف منها . وأصبحت مجالسه ملتقى الأمراء والنبلاء والطبقة العليا .

وبدأت السعادة ترف بجناحيها على حياة « شوبان » وتوالت سنوات تسنم فيها ذروة الشهرة ، وبلغ قمة المجد . وغزر انتاجه ؛ وكثرت مطبوعاته . ففى عام ١٨٣٣ طبع من مؤلفاته الجديدة خمس مقطوعات من « المازوركه » وثلاثى للبيان والكمان والكمان الجهير (الفيولنسل) ، وثلاث مقطوعات « نوكتورن » ، والمقطوعات

الاثنتا عشرة للدراسة الكبرى التى أهداها للموسيقار « لست » وكذلك « كونسرت مى مينير » • وفى عام ١٨٣٤ ظهرت له قطعة « فانتازى » على ألحان بولونية ، ومقطوعة « كراكوفياك » للبيان والفرقة الموسيقية ، وثلاث مقطوعات « نوكتورن » أخرى . و « روندو » مى بيمول ماجير ؛ وأربع مقطوعات « مازوركه » والفالس الكبير مى بيمول ماجير •

وقد كانت هذه الشهرة بمثابة بعث جديد لصحائف فنه المطوية وجميع آثاره السابقة التى أنتجها فيما سلف من أيامه بوارسو وفينا وليبزج وباريس وغيرها • وأقبل أعلام الموسيقى ومهرة العازفين يتسابقون الى تأدية هذه المؤلفات فى الحفلات العامة ومن بينهم لست وموشيليس (Moscheles) وفيلد وكالكبرنر •

وقد تمتع « شوبان » بحياة هانئة وسعادة وارفة الظلال . لم يكن يقض مضجعه فيها سوى المقيم المقعد من همه وتفكيره فى آلام بولونيا وما حل بها من محن وأرزاء • وقد أورثه ذلك هزال الجسم مع آلام النفس ، حتى قال عنه أوبير (Auber) :

« ان شوبان يعيش فيما يشبه فراش الموت » •

ويحدثنا صديقه وتلميذه جوتمان (Gutmann) أنه بينما كان يعزف مرة بين يدى « شوبان » مقطوعة الدراسة الثالثة مى بيمول ماجير : وهى من أجل ثمار عبقريته ، اذا به يتفزع فجأة وينتفض انتفاضة العصفور فى شبكة القانص وينهض صارخا وهو يصيح « آه يابلادى !! »

وفى الحق لقد كان اسم بولونيا لا يذكر فى نفسه الا مصحوبا بالآلام المبرحة ، فان قلب هـذا الفنـان الشاب الذى لم يتعـد الرابعة والعشرين من سنه كان مفعما بحب وطنه ، متعلقا بذكرياته الى أبعد مدى . ولئن كانت هذه الآلام مصدر تأثير سيء فى صحته فقد كانت فى الوقت ذاته مصدر الالهام فى موسيقاه . فهذه العواطف والأحاسيس التى جاشت بها نفسه تحولت بعينها الى تلك الموسيقى التى امتازت برقة التعبير وسمو الشعور . ولعل من أبلغ أوصافها ما قاله المركيز دى كوستين (de Custine) فى رسـالة كتبها الى « شوبان » جاء فيها :

« اننى عندما أستمع الى عزفك يخيل الىّ أننى معك وحدك ، أو على الأصح مع شيء أسمى منك ، أو قل على الأقل مع أسمى شيء فيك » .

أما فيما عدا تلك الآلام النفسية فقد كان « شوبان » فى هذه الفترة من حياته مغمورا بالسعادة ، محوطا بالتجلة والحب والتقدير ، هانئا بأوفر صحة تمتع بها فى مراحل حياته .

كتب صديقه أورلوفسكى (Orlowski) يصفه فى هذه الفترة من حياته قال :

« انه ينعم بموفور الصحة والقوة . ويجتذب اليه أنظار جميع الفرنسيات . أما الرجال فما أشد غيرتهم . وقد لا يكون من العجب أن تعم باريس فى القريب « مودة » استعمال القفاز على طريقة شـوبان » .

* * *

وفى ربيع عام ١٨٣٤ قام « شوبان » وبرفقته صديقه فردناند هيلر (Ferdinand Hiller) برحلة الى مدينة اكس لاشاپل (آخن) لحضور مهرجان موسيقى فى تلك البلاد الألمانية الواقعة على نهر الرين . وقد التقيا هنالك بالموسيقار « مندلسون » . وكم كان شديد الاغتباط بلقائهما . وبخاصة « شوبان » الذى وصفه بأنه نادرة الفلك فيمن شاهدهم من مهرة العازفين بالبيان . وعاد من رحلته تلك الى باريس عن طريق دسلدورف وكولونيا .

وقد اشتدت غبطة « شوبان » وتعاظمه السرور ، فقد التقى عنــد عودته الى باريس بصديق صباه ماتوزنسكى (Matuszinski) الذى كان طبيبا فى الجيش البولونى ، وقد استدعى فى باريس أستاذا بمدرسة الطب بها . وسكن فى منزل « شوبان » . وكانت اقامته معه مصدر عزاء وسلوى ، وتجديدا لسعادته الماضية فقد استعاد به مرح الصبا وتندر الشباب ، وألف المجتمعات ، وأنس الى الظهور فى الحفلات العامة .

وفى السابع من ديسمبر من ذلك العام اشترك بدار الأوبرا الايطالية فى حفل أقامه الموسيقار برليوز لحساب قرينته « هنريت سمسطون » المغنيــة الايرلنــدية التى اقترن بهــا من زمن قريب . كما أنه اشترك أيضا فى حفلات عيد الميلاد التى أقيمت فى صالة « پلايل » فعزف مع الموسيقار « لست » على آلتين من البيــان ثنائيا من تأليف هــذا الأخير على فكرة موســيقية من « مندلسون » .

وفى الخامس عشر من فبراير من السنة التالية (١٨٣٥) اشترك « شوبان » فى حفل موسيقى ، تلاه بعد ذلك حفل آخر أقيم فى الخامس من ابريل مساعدة لأعمال البر فى بولونيا .

ويعنينا أن نتعرف رأى « برليوز » نجم الموسيقى الأوحد فى باريس اذ ذاك أين يقع « شوبان » وفنه الموقع الصحيح فى ميزان التقدير من عظمة العباقرة . وسترى أن هذا الرأى يجلو لنا أن أداء « شوبان » وموسيقاه سيقيان موضع بحث ومحاولة لاكتناه الأسرار الروحية فى مشاعر الفنان . وهذا الرأى يقفنا على صعوبة المحاولات فى كشف النقاب عن حقيقة ذلك الأداء ، وبخاصة للذين لم يعاصروا « شوبان » المؤلف ، ولم يستمعوا الى « شوبان » العازف حين أدائه الذى كان فيه مؤلفا جديدا .

قال برليوز :

« ان شوبان الموسيقى الماهر والمؤلف المبتكر فنان من طبقة ممتازة . بل انى لا أجد موسيقيا آخر من جميع معارفى أستطيع أن أقارنه به على أية حال . ومما هو جدير بالأسف أنه لا يوجد أحد غير « شوبان » يستطيع أن يؤدى موسيقاه محتفظا بطابعها الخاص ... ان ايقاعه مقرون على الدوام بآلاف التغيرات فى السرعة للكشف عن الأسرار الدقيقة التى لا يعرفها غيره ، والتى يتعذر على انسان غيره وصفها » .

ورغم هذا التقدير المنقطع النظير الذى سجله أعلام الموسيقى فى عصره اشادة بفنه وتقديرا لعبقريته ؛ فان سواد الجمهور لم

يستطع فى كثير من الأحيان ادراك قيمة هذا الانتاج على حقيقته ، مما حمله على أن يعتزم ترك الحفلات العامة بعدذلك زمنا غير قصير على اثر حفل أقامه فى السادس والعشرين من ابريل عام ١٨٣٥ بمعهد الموسيقى بباريس ، وهو الحفل الوحيد الذى لم يقم غيره بهذا المعهد طوال حياته .

وقد بلغت سعادته الروحية أوج كمالها بتعرفه حينذاك بالموسيقار بللينى (Bellini) وقد انعقدت بينهما روابط صداقة وثيقة . ووجد كل منهما فى صاحبه الخل الوفى المخلص .

كما تعرف فى ذلك الحين الى النبيلة دلفين بوتوكا (Delphine Potocka) وقد كانت فى الخامسة والعشرين من عمرها ، تمتاز بجمال بارع وقد ممشوق ، فى خفة روح ، وحسن تقاسيم . ولقد يخيل لمن يراها أنها هبطت من السماء . وكانت وفرة مرحها تخفف من رهبة مقامها وهيبة مكانتها . ويمكن القول بأن هذه السيدة ذات الجمال المفرط كانت أول فاتنة استولت على قلب « شوبان » فى باريس . وقد تأثر بصوتها الرخيم فكان جزءا من موسيقاه ، وبعاطفته نحوها فكانت بعض فنه . ولقد غنت بمصاحبة عزفه على البيان فكان يحاول أن تتجاوب موسيقاه الممتزجة بصوتها الرخيم مع خفقات قلبه . وقد بادلته النبيلة هذه العاطفة ، وأبدت لشوبان الكثير والكثير من حبها له وتعلقها به . ولكن هذه العاطفة ، وهى عاطفة سماوية اشترك فى صنعها الفن والجمال ، لم يدم حلمها الجميل وآمالها الهنيئة ، فسرعان ما مزقت خيوطها من بينهما تلك الغيرة

العنيفة التى ثارت فى قلب قرين النبيلة « دلفين » فانه ما كاد يلمح بوادر هذه العاطفة حتى تنبهت فيه تلك الغيرة . وأسرع هو وزوجه لائذا معها بالفرار من باريس ومن فيها الى بولونيا . على أن هذه النبيلة لم يبتعد قلبها عن الفنان ، وان نأت الدار وبعد المزار . وكان من آثار وفائها له هذه الرسالة التى استطاع التاريخ أن يحتفظ بها دون أن تمزقها حوادث الأيام ، فكانت دليلا على استمرار هذا الحب واستقرار تلك العاطفة ، وهى تقول فيها :

« اننى لن أجشمك السآمة والملل بكتابة رسالة مسهبة . ولكن كل ما أريده ألا تنقطع عنك أخبارى . كيف صحتك الآن ، وما الذى تنتوى أن تقوم به فى المستقبل ؟... اننى محزونة القلب لبعدى عنك وتركى اياك وحيدا ... ان وقتى هنا ينقضى بين سآمة وملال . وانى أتحاشى أن يحدث أذى آخر شر مما حدث، فقد نالنى منه الكفاية . وكل ما أقدمه من خير للناس يرتد الىّ شرا . وبايجاز أقول لك ان الحياة فى نظرى تنافر موسيقى لا حد له . يرعاك الله ياعزيزى شوبان ، والى اللقاء ... » .

لقاء أخير

فى صيف عام ١٨٣٥ بلغ « شوبان » نبأ اعتزام والديه السفر الى حمامات « كارلسباد » للاستشفاء • فرغب أن يسبقهما اليها ليكون استقباله لهما مفاجأة بسرور لم يكن فى الحسبان • وقد تم ذلك فى السادس عشر من أغسطس بعد فراق طال أمده خمس سنوات •

وليس فى المقدور تصوير تلك السعادة التى أحاطت نفس « شوبان »من جميع نواحيها • ولعل « شوبان » عجز عن تصويرها فى رسالته التى بعث بها الى شقيقاته بوارسو ، وقد وصف فيها هذا اللقاء بقوله :

« ان فرحنا ليعجز الوصف • لقد حل محل أشواقنا عناق متصل تتوالى فيه مسراتنا • والذى ينقصنا من هذا السرور ، وهو ما نأسف له ، أننا لم نلتق جميعا هنا •ما أعظم نعمة الله علىّ !! ان خواطرى مشتتة • ومن الخير لى ألا أفكر فى شىء غير هذه السعادة التى أسبح الآن فى بحرها ، فهى كل ما أعتز به من كنوز الحياة اليوم • وان الوالدين ما يزالان وهما هما ، الا قليلا مما بدا عليهما من آثار الكبر • وكم يطيب لنا أن نسير معا فى الخلاء متأبطين ذراعى السيدة الوالدة ، متحدثين ثلاثتنا عنكن ••• اننا نمضى الأوقات معا فى طعام وشراب واستمتاع بأطيب الأحاديث •

أن العادات التى درجت معها فى صغرى والمعاملة التى نشأت عليها فى طفولتى لا تزال كما كانت . بل ان تلك اليد التى حرمنى الزمان نعمة تقبيلها طويلا ما برحت هى هى ... بل وأقول اليوم اننى فى سعادة مجسمة . فى سعادة حقة . فى سعادة كاملة » .

وكما أن « شوبان » لم يلمس كبير تغير فى حياة والديه ؛ فقد كان هو فى أعينهما كذلك الابن الذى لم يتبدل ولم يتغير . وقد كان هذا اللقاء بحق مصدر سعادة لثلاثتهم ، ومبعث هناءة استمرت شهرا كاملا ، انقضى كأجمل حلم قصير المدى.

وسرعان ما آذنهم نذير الفراق فى الرابع عشر من سبتمبر . ولقد كانت تلك الساعة فى مرارتها تفوق حلاوة الرؤيا ساعة اللقاء . ولقد كانت تبدو على حقيقتها أشد مرارة ، وأعمق جرحا ، وأعظم ألما ، لو أنهم عرفوا ما يخبئه لهم القدر ، وأتيح لهم أن يقرأوا ما فى صفحة الغيب من أن هــذا هو اللقاء الأخير ، وأن فراقهم منــذ اليوم هو الفراق الأبدى الذى لا يقال معه الى اللقاء ...

خطبة بلا قران

بعد أن ودع « شوبان » والديه توجه الى مدينة درسدن حيث نزل بها ضيفا على أسرة « ودزنسكى Wodzinski » وهى أسرة نبيلة عظيمة الثروة والغنى . تعد من أسر الطبقة العليا فى بولونيا ، وتمتلك مساحة واسعة من الأرض على مقربة من وارسو . وقد أنجبت هذه الأسرة ثلاثة من البنين وشقيقة هى أصغر الجميع سنا . وكان الأبناء الثلاثة ممن أقاموا بمنزل « شوبان » الوالد أثناء تعلمهم بوارسو . واذ ذاك كان « شوبان » الصغير رفيق طفولتهم وصديق صباهم . وكثيرا ما كان يختلف الى مزارعهم ليقضى معهم أوقات العطلة المدرسية . وتعرف فى تلك الآونة بشقيقتهم الصغيرة « ماريا » . ولما شبت نار الثورة فى بولونيا عام ١٨٣١ نزحت تلك الأسرة الى سويسرا ليتثنى لأبنائها استكمال دراستهم بمدينة جنيف . وفى عام ١٨٣٤ أرسلت الأسرة الى « شوبان » بباريس تدعوه لزيارتها فى تلك المدينة . ولم يستطع وقتئذ تلبية هذه الدعوة . ولكنه رأى الفرصة سانحة بعد زيارة والديه فى « كارلسباد » فقصد الى درسدن استجابة لدعوة جديدة من هذه الأسرة ، وكانت قد سافرت الى تلك المدينة بجميع أفرادها عدا « أنطون » أحد الأبناء الثلاث وكان قد سافر الى باريس ...

أما « ماريا » ابنة الأسرة ونجمتها الساطعة فقد ناهزت الآن

التاسعة عشرة من سنها . وكان الدم الايطالى المنحدر اليها من سلائل الأسرة المالكة قد صبغها بسمرة فى بشرتها ودعج فى عينيها . وكانت تبدو رشيقة الحركة ، خفيفـة الروح ، وسيمة الطلعة ، قسيمة الوجه ، بارعة الجمال . وكانت نابهة فى الفنون : وقد أخذت من كل لون أحسن ما فيه . فهى عازفة ماهرة بالبيان ، ومغنية ممتازة فى الأداء ، وملحنة قديرة فى النغم ، ورسامة دقيقة فى التصوير . وهى كذلك تجيد التوشية والتطريز . ولقد كان جمالها مبعث الفتنة والاعجاب منذ اكتملت الرابعة عشرة من العمر . وكانت محاسنها متعبة للمأخوذين بها . وقد عرفت ذلك فى نفسها فأخذت تلاعب وتتسلى باحراق المهج ، فتجذب المعجبين اليهـا لتردهم عنها . وفى زمرة هؤلاء المعجبين الأمير لويس نابليون صديق الأسرة ، وهو نابليون الثالث امبراطور فرنسا فيما بعـد ، وكان يلقبها بعروس القارة السمراء .

وفى ذلك المحيط يحل « شوبان » ضيفا على هذه الأسرة ، وبها تلك الفاتنة التى تسيطر على دولة الفن ومملكة الجمال وقلوب الرجال فى وقت واحد . وقد تكون نظرة « شوبان » الأولى اليها مبعثها الموسيقى ، فقد عرفها منذ حداثتها تلميذة له فى دراسـة العزف بالبيان . كما تلقى منها فى باريس بعض آثار تأليفها الفنى ، وأجاب على ما أرسلته اليه بمقطوعة بنى لحنها على فكرة تخيرها من موسيقاها ، وأرفقها برسالة قال لها فيها :

« لقد تخيرت فكرة جميلة من موسيقى ماريا ، ماريا التى طالما لعبت معها فى زمن الطفولة لعبة الاختفاء . والآن أسمح لنفسى

أن أرسل الى الزميلة الغالية الآنسة ماريا لحن ڤالس قصير ، آملا أن يكون موقعه من الرضا والسرور فى نفسك جزءا من مائة مما تركته مقطوعتك من الغبطة فى نفسى والسرور لقلبى » .

وقد تلقت « ماريا » مقطوعة الفنان ورسالته قبل أن يصل هو الى درسدن ببضعة أسابيع . على أنه فى رسالته ومقطوعته لم يزل يتخيلها على مثال ما كان يشهدها عليه فى الصغر . أما الآن فقد راعه شىء آخر حين وقع عليها نظره بعد هذا الأمد الطويل . فقد شاهد اكتمال أنوثتها . وشدة جاذبيتها ، وفاتن جمالها .

وسرعان ما ارتفعت الكلفة . وقويت الألفة . وأصبح عاديا أن تخرج « ماريا » يصحبها « شوبان » فى صبيحة كل يوم للنزهة على شاطىء نهر « البا » . فاذا أدركهما النصب تفيآ ظل شجرة ، أو أمضيا بعض الوقت فى زيارة أحد المتاحف ، أو رؤية بعض المشاهد . وهما فى هذه النزهات الصباحية المتكررة المتوالية يخفق قلباهما معا بميل خفى وعاطفة مكبوتة .

وكان يصحبها مع الأسرة كل مساء لزيارة عمها ، وهو شيخ كبير قد غادر بولونيا ابان الثورة . وكان آخر ما تقلده من المناصب الرفيعة رياسة مجلس الشيوخ بها . وهو الآن فى شيخوخته ما زال رجلا واسع الثراء يعيش فى درسدن عيشا رغدا ، قانعا فيه من المجد بما مضى من الذكريات وما يحمله من الأوسمة . وكان من عيوبه — وكفى بذلك عيبا — فقدان الشعور بحب الموسيقى . فلم تكن ألحان « شوبان » وهى تدوى فى منزله بأنبل العواطف

وأجل المشاعر لتبلغ من نفسه أى تأثير . وانما كان يستيقظ فيه تأثر المحنق المغيظ من « ماريا » ابنة أخيه كلما رآها ترسل نظرات الاعجاب الى الفنان العالمى الذى لم يكن جديرا فى نظر هذا الصلف المختال بلقب من ألقاب المجد سوى أن يدعوه بصانع المازوكة . وكان يقظا الى مايتبادله « شوبان » و « ماريا » من لحظات تدل على حب كامن وميل مختبىء . وكان لهما بالمرصاد ، مهما حاولا اخفاء ما بينهما عن الجميع . وقد أزعجه وأقض مضجعه أن يرى هذه العلاقة تنمو وتزداد ، حتى صرح لزوجة أخيه بقوله :

« انه فنان محترف لا مستقبل له . ولا يمكن أن يمر بخيالى مصير ابنتك الى هذه النهاية » .
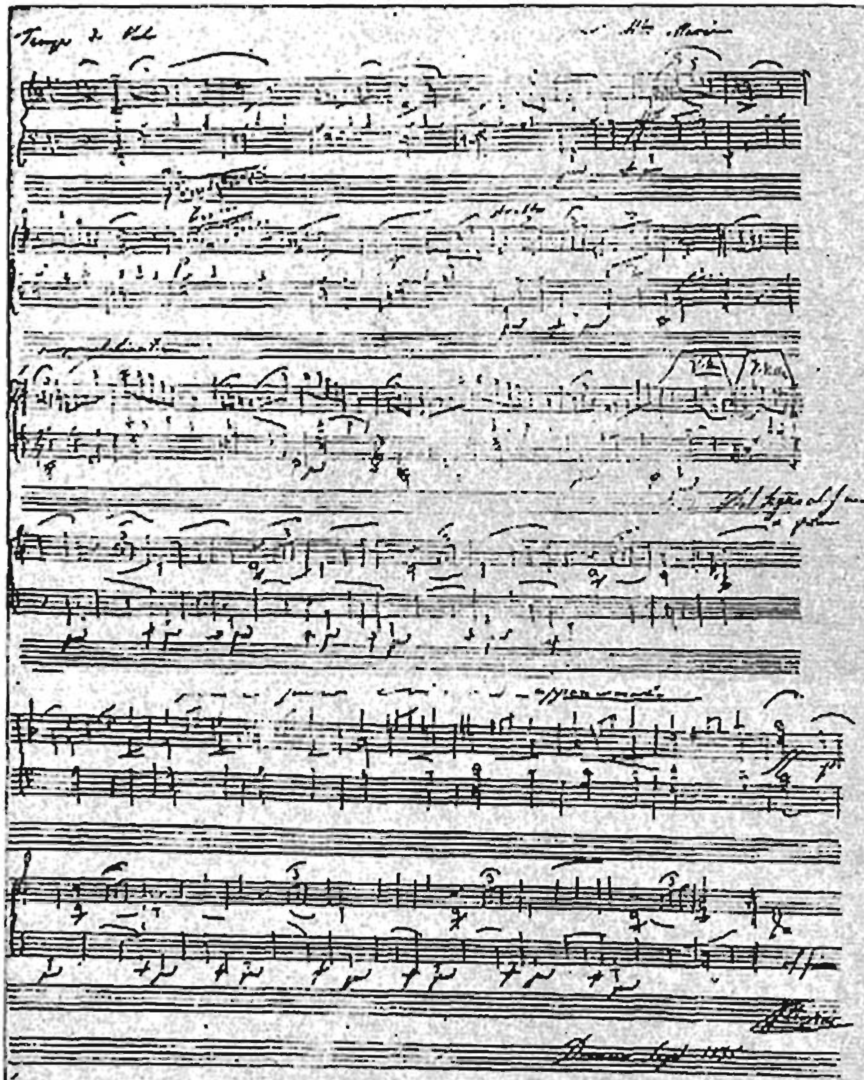
أما الأم فكانت تجيبه فى ابتسامة هادئة : « انهما صديقان فى طفولتهما ، ومنذ نعومة أظفارهما » .

فاذا أراد الذئب العجوز أن يستثير حفيظتها ، ملوحا بشبح المستقبل المخوف قالت له : « انى أعده أحد أفراد الأسرة . وهو فى منزلة يتعادل فيها مع أبنائى الثلاثة أنطون (Anton) وفيلكس (Felix) وكازيمير (Kasimir) تلاميذ أبيه . وعلام نسىء الظن بشاب نبيل الشعور ، رقيق الاحساس !! » .

أما « شوبان » فقد كان يجد متنفسا لهواه حين يجتمعان معا الى البيان أو حين تجمعهما النزهات السعيدة . وقد أطلق على كلا الأمرين « دويتو (ثنائى) الحب » . وقد استمرت هذه النزهات برغم معارضة العم .

ولم يلبثا فى نشوة هذا الهناء أن أزعجتهما ساعة النوى منذرة برحيل « شوبان » ونزوحه عن فردوس غرامه . ففى صبيحة أحد أيام سبتمبر نزل « شوبان » للمرة الأخيرة الى البهو فى انتظار محبوبته « ماريا » . فأقبلت عليه وقد انتزعت من باقة الزهور وردة الى الحبيب الذى ينتظرها . وكأنما أرادت ساعة الكنيسة أن تسجل الزمن فأرسلت احدى عشرة دقة انطلق طنينها فى الفضاء كأنها صيحات نذير الفراق . أما « شوبان » فقد جمد فى مكانه شاحب اللون ، مسلوب الفؤاد ، شارد اللب . وقد طغت العواطف فى نفسه على كل قول فلم ينبث بحرف واحـــد ، بل قصد الى البيان يستلهمه ما عجز عنه اللسان من التعبير فى مقطوعة « ڤالس » فريدة رائعة ؛ أطلقت عليها « ماريا » بعد ذلك اسم « ڤالس الوداع » . وقد دون الفنان بنفسه تلك المقطوعة وأهداها اليها فيما لا يزيد على كلمتين ، تاركا بقية التعبير للموسيقى فكتب : « للآنسة ماريا » . وقد احتفظ « شوبان » بقدسية هذه الذكرى ، وضن بنشر هذه المقطوعة طوال حياته ، ولم تنشر الا بعد وفاته . وهى فى مجموعة مؤلفاته « ڤالس لابيمول ماچير مصنف ٦٩ رقم ١ » وهى المنشورة فى الصحيفة المقابلة مصورة عن خط يده مع الاهداء .

أما ما تصوره هذه المقطوعة وتترجم عنه فهى همسات حبيبين تقاطعها دقات ساعة البرج ، وتنهدات هوى عميق يعلوها صخب الشارع وضجيج الطريق . وقد وصف الموسيقار « شومان » هذه المقطوعة حين سمعها بقوله : « انهـــا عواطف انسانية عميقة تنطق بغير لسان » .



تدوين شوپان لمقطوعة الڤالس

المهداة الى ماريا ودزنسكى (مصنف ٦٩ رقم ١)

وقد احتفظ « شوبان » بتلك الوردة ، التى قدمتها اليه « ماريا » تذكارا لحبها ، الى نهاية حياته .

وفى السادس والعشرين من سبتمبر غادر درسدن قاصدا باريس ، مارا فى طريقه بمدينة ليبزج حيث التقى مرة أخرى بالموسيقار « مندلسون » الذى قدمه الى الموسيقار « شومان » والى ڤيك «Wieck» والد العازفة الشهيرة « كلارا » . وقد أعجب « شوبان » بعزفها بالبيان أيما اعجاب حتى قال عنها انها الفتاة الألمانية الوحيدة التى تستطيع تأدية موسيقاه . وقد أمضوا جميعا أهنأ الساعات بين أروع العزف وأعذب النغمات .

عاد « شوبان » الى باريس ، وأقام بها منطويا على نفسه ، غارقا فى ذكرياته . وهو يعيش بين موسيقى يودعها أسرار قلبه ويبثها مكنون شعوره، وبين رسائل يخط فيها بقلمه أشجان هواه .

ولا يعوزنا أن نستطلع رأى « ماريا » وأسرتها فى « شوبان » ومدى تعلق الجميع بمودته ، وتأثرهم بفراقه ، فقد احتفظ لنا التاريخ بهذه الرسالة من « ماريا » الى « شوبان » على أثر عودته الى باريس . فلنستمع اليها تقول له :

« انى لأعلم أنك لا تميل الى تحرير الرسائل ولا الى تسلمها . ولكنى أنتهزت فرصة سفر السيد « سيشوفسكى Cichowski » لأنبئك بما حدث من أخبار درسدن بعد سفرك . وهكذا ترانى لا أزال أضايقك ، ولكن ليس بعزفى على الأقل ... انك حين غادرتنا يوم الأحد تفرقنا جميعا ، والحزن يغمر أفئدتنا ، والدموع

ترقرق فى مآقينا . وانفرد كل منا بنفسه فى البهو الذى لم يبارحنا الشعور بأنك كنت معنا فيه منذ لحظات . وعاد والدى على الأثر وقد آلمه أن لم يكن فى استطاعته وداعك . كما أخذت والدتى تذكرنا فى كل لحظة بعمل كان يؤديه ولدها الرابع « فردريك » كما تسميك . ولشد ما جلس شقيقى « فيلكس » محزونا منقبض الصدر . بينما حاول شقيقى « كازيمير » أن يتندر على عادته . ولكن الدعابة كانت تتعثر على شفتيه ، فلم يستطع أن ينطق بواحدة دون أ نيختنق صوته بالبكاء . وقد أخذ والدنا يحاول أن ينسلى بمنظرنا ويضحك . ويقينى أنه لم يكن يصنع ذلك الا خوفا من أن يبكى هو الآخر أمام أعيننا . ولما حضر مدرس الغناء كان موضوعنا غير موضوعه ، وشأننا غير شأنه ، فلم يجد بدا من تعطيل درسه . لقد كان اسمك على أفواهنا عماد كل حديث . وألح على « فيلكس » راجيا أن أسمعه مقطوعة الفالس التى أهديتها الى حتى نستمتع فى الاستماع اليها بذكرى شقيق رحل عنا . ذهبت بنسخة هذا الفالس للتجليد فدهش الوراق ، وهو رجل ألمانى ، من اهتمامى بطلب التجليد الفخم لورقة واحدة . ان أحدا منا لم يستطع تناول الطعام . وقد كان كل منا يثبت نظراته صوب المقعد الذى كنت تجلس فيه على المائدة ، ومن ثم الى الركن الذى كان ينتحيه « فريتس »[1] . ولا يزال المقعد الذى تعودت الجلوس عليه باقيا فى مكانه ، وظنى أنه سيظل كذلك ما دمنا مقيمين فى هذا المسكن . وحين أقبل المساء مضينا الى منزل عمتنا التماسا للسلوى

(١) صيغة التصغير لاسم فردريك .

فى الليلة الأولى من غيابك . ثم عاد بنا والدنا وهو يقول ان المنازل لدينا فى الوحشة سواء ، وان الألم ليتجدد فى كل مكان نحل به . اذا كان شقيقى « أنطون » فى باريس فرجائى أن تصل مودته فانك لا تعلم مدى صداقته لك . انه صديق وفى نادر . انه طيب القلب كثيرا ، ولكنه غاية فى الاهمال . انه لا يهتم بذكر شىء ؛ وان فعل ففى النادر ...

أما أنت فاذا حدثت المعجزة ورأيت أن تكتب ؛ وألا تزيد رسالتك على قولك كيف حالك ... انى بخير ... ليس عندى متسع من الوقت للكتابة ... فكل ما أرجوه أن تضيف الى هذه الجمل القصيرة الاجابة عن هـذا السؤال : هل ابتدعت لحنـا جديدا ؟... وفى امكانك الجواب فقط بنعم أو لا . لقد تلقيت أغنيتك التى مطلعها « لو كنت أنا الشمس الساطعـة فى السماء لما أرسلت ضيائى الا اليك وحدك » . ولم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لأدائها لأنها لك وأخشى أن يدرك من يسمعها منى مبلغ ما ينتابنى من التأثر الذى ينم عما فى قلبى ...

ولقد نأسف جميعا لأن اسمك لم يكن « شوبانسكى » ليحمل فى مقطعة الأخير رمز تبعيتك لبولونيـا . اذن لاقطعت ألسنة الفرنسيين فى منازعتنا شهرتك ، زاعمين أنهم مواطنوك ... أحس أننى أكتب أكثر مما ينبغى مدركة أن وقتك ثمين ، حتى لأحس بأننى سارقة له حين أطلب اليك أن تقرأ هذا اللغو الذى أكتبه ، وان كنت موقنة أنك لن تستوعب قراءة الرسالة كلها ، بل سيختفى

خطاب « ماريا » الصغيرة فى ناحية ما بعد أن تمر فيه على بضعة سطور . وهذا ما يخفف علىّ لومى لنفسى ، ويقلل عتبى لها على اغتصابى لوقتك » .

وقد أرسل اليها مع جواب هذه الرسـالة ما كان ينتجه من مؤلفات ...

وبدأ عام ١٨٣٦ يحمل طابع حبه لماريا . ومن انتاجه فى تلك الفترة مقطوعته « كونسرت فامينير » ومقطوعته « البولونيز الكبرى » للبيان مع مصاحبة الفرقة الموسيقية ، وكذلك « بالاد صول مينير مصنف ٢٣ » . وكلها تحمل آيات هذا الحب . وكان له من ذلك قوة تحفزه على مواصلة جهوده الفنية ، كما كان ذلك حافزا على غير ما تعوده من الاقتصاد فى النفقات ليتمكن من السفر مرة أخرى للقاء « ماريا » .

وقد رفض أن يلبى دعوة ملحة تلقاها من « مندلسون » لحضور المهرجان الموسيقى فى دسلدورف ذلك العام ، وأخرى تلقاها من « شـومان » لزيارته . ولكنه لبى دعوة العاطفة القـاهرة وغادر باريس فى شهر يوليه فى العام نفسه (١٨٣٦) لمقابلة أسرة « ماريا » فى حمامات « مارينباد » ، وقد بلغها فى الثامن والعشرين من هذا الشهر . ولم يحضر من الأسرة الى هذه الحمامات غير « ماريا » ووالدتها . ولم يحضر الوالد ولا الأشقاء ، وبذلك أصبح الجو صافيا ، وخلا مما يعكر صفو سـعادته . ورسمت له « ماريا »

فى هذا الوقت صورة بيدها . وأمضيا شهر أغسطس فى نزهات رائعة وموسيقى ممتعة .

ولما رغبت السيدة وابنتها العودة من مصيفهما الى درسدن طلبتا الى « شوبان » أن يصحبهما اليها قبل عودته الى باريس . وكانت الثمرة الفنية لهذه الرحلة أن صنف مقطوعتين تعدان من أروع مقطوعات دراساته وهما مصنف ٢٥ رقم ١ ، ٢ ثم أغنية الخاتم ، وهى أنشودة كأن مؤلفها الشاعر كان يرسل فى طيات أبياتها نبوءة المستقبل المنتظر لشوبان فى غرامه هذا . ففيها يقول : « لقد كنت أحبك دائما ولكنك أصبحت زوجا لرجل آخر » .

وفى اليوم التاسع من سبتمبر حين هبت أنسام الأصيل تحمل عطر الأمل الندى تقدم « شوبان » الى « ماريا » وقد بدت عليه أمارات الارتباك . كأنما هو مقبل على أمر جلل . وهمس اليها متسائلا عما اذا كانت ترضى به زوجا . فأومأت اليه « ماريا » بما يدل على القبول . وتلقت والدتها أمر هذه الخطبة بالرضا ، مشترطة أن تظل طى الكتمان الى حين : حتى تمهد لقبولها عند زوجها . وهى وان كانت تدرك مدى البون الشاسع والفارق الكبير بين أسرتى الخطيبين من حيث الجاه والثراء ، فهى ترى أن ليس ثمت ما يحول دون قبول زوجها لهذه الخطبة سوى ضعف صحة « شوبان » ، فقد بدت عليه دلائل هذا الضعف حتى لقد راجت شائعة فى بداية هذا العام تذيع نبأ وفاته . وقد نشرت احدى صحف وارسو فى الثامن من يناير من العام المذكور تقول :

« نريد أن نعلن للأصدقاء ولجميع المعجبين بالفنان العبقرى « فردريك شوبان » أنه لا صحة لما أذيع فى الأيام الأخيرة عن نبأ وفاته » .

وقد نشأت هذه الشائعة عن خطأ وقع فيه « شوبان » نفسه فقد أصيب بباريس فى نهاية عام ١٨٣٥ بانفلونزا حادة ألزمته الفراش . فقطع رسائله عن أهله وذويه فى وارسو حتى لا يزعجهم بأنباء مرضه . فكان ذلك مصدرا للقلق ومبعثا لاثارة هذه الشائعة . وقد حدث لسوء طالع « شوبان » أن والد « ماريا » كان بوارسو حين خاضت الأنباء حول هذه الشائعة بين مصدق ومكذب ؛ فكان يتردد على أسرة « شوبان » ليسأل والده عما اذا كان قد ورد اليه من « فردريك » ما يتضمن أخبارا عن ولده « أنطون » شقيق « ماريا » .

وهذا يوضح لنا السبب الذى من أجله اشترطت والدة « ماريا » فى قبول « شوبان » خطيبا لابنتها أن يراعى حالته الصحية ، اذ يتوقف عليها كل شىء فى أمر هذا القبول . وقد أوصته أن يتجنب السهر المضنى فى « صالونات » باريس . وختمت تلك الوصية بقولها له : « وانى أباركك من أعماق قلبى كأم لك » .

وفى اليوم الحادى عشر من سبتمبر عام ١٨٣٦ ، وعقب توثيق هذه الخطبة بيومين غادر « شوبان » درسدن ، وهو مملوء بالثقة والأمل فى سعادته المستقبلة ، مارا فى طريق عودته الى باريس بمدينة ليبزج حيث قضى يوما ممتعا مع الموسيقار « شومان » .

وما كاد يستقر بالعاصمة الفرنسية حتى ألهته بأجوائها الصاخبة عن الوفاء بما أخـذ به نفسه من رعاية صحته بالتبكير فى النوم والاقلال من السهر والاجهاد . وتابع حياة الاستهتار ، وغمره التيار الذى لم يستطع مغالبته . ولم يغب علم ذلك عن أسرة « ماريا » فقد حـدث فى تلك الآونة أن قامت بزيارة أسرة « شـوبان » فى وارسو . وقدمت « ماريا » اليها الصورة التى رسمتها بيدها للفنان . وقد كتبت والدة « شوبان » الى ولدها تقول :

« يوسفنى أن والدة « ماريا » أخبرتنى عنـد زيارتهـا أنك لم تحفظ كلمتك التى قطعت بها العهد على نفسك » .

وهى تنوه فى ذلك بعدم ابقائه على صحته . وهذا يدل على مبلغ اهتمام الخطيبة وأسرتها بشئونه ، واستطلاع خفايا حياته فى باريس . وذلك من حقها بعد أن قبلت ارتباط مستقبل فتاتها الوحيدة النادرة فنا وجمالا وثروة ونبالة بيت وأصـالة محتد ، بمستقبل هذا الفنان . وهى لا تطلب اليه سوى أن يعيش موفور الصحة كى لا تعيش معه « ماريا » ممرضة بائسة أكثر منها زوجة سعيدة . وفى الحق لقد ظل « شوبان » متلافا لصحته حتى عاوده مرض الانفلونزا الحادة مرة أخرى تحت عبء الشتاء القـارص فى نهاية عام ١٨٣٦ وألزمه الفراش .

ثم بدأ شبح الحقيقة المرة يتجلى أمام والدة « ماريا » . وأخذت ترجح مصلحة وحيدتها فى ميزان هذا الزواج الذى أصبح مهددا غير ميسور الهنـاء . فأخذت تفكر فى خطة الانسحاب من هذه

الخطبة . ولكن فيما يليق بمثلها من لطف وأدب . فبدأت تهمل الاجابة على رسائله وان استمر تبادل الهدايا فى المواسم والأعياد .

وفى الخامس والعشرين من يناير عام ١٨٣٧ وجهت اليه خطابا ينم فى فتوره عن قلوب تغيرت . وحال تبدلت . فقد تحاشت أن تنوه فيه بشيء عن الخطبة . أو حتى عن برنامج الأسرة فى ربيع ذلك العام وصيفه .

ولم تكن رسائل « ماريا » خيرا من ذلك . فهى على ندرتها وايجازها عديمة الروح : خالية من لغة العاطفة ، وحديث الشعور .

فهل أدرك « شوبان » أن فى المسألة شيئا جديدا يشف عنه تغير اللغة وتبدل الأسلوب ؟ هل دله خلو العبارات من الوجد والهوى عن خلو القلوب منهما ؟ هل تبين من تلك الرسائل التى أغفل فيها التنويه برحلات الربيع والصيف أن تلك الأسرة لم يعد الجوى وطيف الأمل يدعوانها الى التشوف اليه والرغبة فى ملاقاته ؟

لم يدرك « شوبان » شيئا من ذلك . فهو الفنان البرىء ، سليم دواعى الصدر ، الذى لم تتسرب الى نفسه الوساوس والظنون . والفنان يعيش فى عالم ملائكى ، لا تحوم حوله الشكوك والريب ، ولو أن دلائلها بادية ظاهرة للعيان . وليس ذلك لنقص فى ذكاء الفنان ، أو قلة فى تعمقه ، ولكن لأنه فى صفاء المؤمن ، وسمو روح العبقرى ، بعيد عما يكون فى الطبائع البشرية من زيغ والتواء . وعلى هذا فقد رأينا « شوبان » يدفعه وفاؤه لماريا الى سؤال

الأسرة عما تنتهجه فى برامج رحلاتها وتنقلاتها : ومتى وأين يمكن أن يجمع بينهما اللقاء .

ولكن « شوبان » وان فاته أن يتنبه الى ما كان يخبئه له القدر فيما أشارت اليه تلك الرسائل المقتضبة : لأنه لم يكن يدين فى حياته بالحيلة والدهاء وسوء الظن ، فقد كان لزاما عليه بعد ذلك أن يدرك من تكرار هذه الحالة وتكشفها رويدا رويدا أن هذه الخطبة قد انفصمت عروتها ، وأن تلك الأمنية التى ولدت فى كتمان قد انطوت فى كتمان دون أن تبدأ باعلان أو تتم بقران .

ويالها من صدمة عاطفية رهيبة : وجرح نفسى عميق الأثر ، قلما يدرك غوره وألمه الا من قاسى مثل ذلك فى حياة كحياة « شوبان » . ولقد عبر عن تأثره هذا أصدق تعبير حين جمع رسائل « ماريا » وضم اليها الوردة التى أهدته اياها فى درسدن ، ووضعها جميعا فى حزمة واحدة كتب عليها « آلامى » . وقد عثر على هذا الأثر بعد وفاته .

ولئن كان بعض المؤرخين قد التمس المعاذير لأسرة « ماريا » باعتلال صحة «شوبان» مدللين بما وقع للفنان من الأحداث فى مستقبل أمره ، على أن الأسرة كانت بعيدة النظر يوم ضنت عليه بوحيدتها المتربعة على عرش الجمال والمال . نقول اذا كان بعض المؤرخين يبرز موقف الأسرة على هذا النحو فان من بين محققيهم من وضع « ماريا » موضعا مشينا ، يحوط تاريخها بظلمات من الريب والشائعات . فقد قالوا ان هذه الفتاة ، التى لم تتجاوز تسعة عشر

عاما من سنها ، والتى خلبت لب « شوبان » وبادلته العاطفة ، كانت تلعب نفس هذا الدور مع الشاعر « سلوڤاكى Slowacki » الذى تعرفت اليه فى چنيف ، وقد أخذت تطارحه ما كانت تطارح به « شوبان » من هوى ملح وعاطفة ثائرة فى درسدن • وقد أثارت من « سلوڤاكى » شاعريته الملتهبة يوم ألقت به الى حضيض الهجران يعانى ألم الفرقة فى چنيف . كما أثارت من « شوبان » موسيقيته الحارة حين قذفت به الى ظلمات النوى فى مدينة النور • فيالها من حسناء لعوب ، وضعت على المائدة قلبين انتزعتهما انتزاعا من شاعر وموسيقار • ولعلها لعبت بقلوب أخرى على مائدة هواها •

على أن « ماريا » قد تركت كل هذه القلوب المحترقة من ورائها لتنعم بالحياة الزوجية فاقترنت عام ١٨٣٧ بالنبيل « چوزيف سكاربك » • ولعل القدر كان عادلا يوم ثأر لتلك القلوب من « ماريا » فلم يدع لها من سعادة الحياة الزوجية عدا سبع سنين انفصمت بعدها عقدة هذه الرابطة •

أما « شوبان » فقد هم بالرحيل عن باريس متخفيا ، ليتمتع فى ظل هذا التنكر بقليل من الهدوء فى ثورة آلامه التى لا تبارحه • فسافر فى رحلة قصيرة الى لندن مع صديقه كميل پلايل (Camille Pleyel) أحد الناشرين وصاحب مصانع البيان المشهورة • ولكن مما يثير الشجن أن ميكروب السل الذى كان كامنا فى جسمه بدأ يرسل طلائعه منذ الآن •



فردريك شوپان (مدالية صنعت عام ١٨٣٧)

وقد كان يريد أن يتابع الرحلة من لندن الى هولندا ثم الى ألمانيا ، ولكن حالته الصحية حملته على أن يبادر بالعودة الى باريس فى شهر أغسطس .

وقد كتب الموسيقار « مندلسون » فى الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٨٣٧ من لندن يقول انه استوثق من وجود « شوبان » بها منذ وقت قريب ، ورغم تجنبه للأندية والمجتمعات والمجالس العامة ، فانه لم يستطع أن يخفى على الناس أمره فما كاد عزفه ينبعث بسحر نغماته لأول مرة بتلك المدينة فى أحد مجالسها الخاصة حتى نم العزف عن صاحبه . وقد يمكن للاسم المستعار أن يحتجب وراءه الفنان لو لم يكن فى مثل مكانة « شوبان » .

وقد يكون من الطريف فى هذه المناسبة ألا تفوتنا المقابلة بين الفنانين الخالدين « شوبان » و « سلوفاكى » . فان من أعاجيب القدر وغرائب المصادفات أن تتشابه حياة كليهما فى تماثل يدعو الى اطالة التعمق والتفكير . فقد كان مولدهما فى زمن متقارب ، وكذلك موتهما فى عام واحد ، وبنفس المرض العضال الذى لم يبق على شبابهما الغض وفنهما الشاب . وقد كانا كذلك متشابهين حتى فى الخلقة . واجتمعا على حب فتاة واحدة هى « ماريا » كانت سببا فى اثارة موسيقية الموسيقار وشاعرية الشاعر . وهما فى اتجاههما الفنى متقاربان متشابهان . تجمعهما جنسية

واحـــدة . وقد التقيا معا وهما غريبان فى عام ١٨٣٨ فى النـــادى البولونى بباريس ...

وهكذا تأتى الأقدار بمالا تحيط به الأفكار فنرى موسيقيا وشاعرا يتشابهان مهدا ولحدا ، ويتكافآن فنا وفكرا ، ويتماثلان وطنا واغترابا ؛ ويتحاكيان حبا وعذابا .

وليس بغريب على قدرة الله أن تتشابه الحوادث التى تكرر عبر الحياة ...

شوپان وجورج صاند

لازم « شوبان » مسكنه ولاذ فيه بالسكينة والهدوء ؛ فلقد كان يوما عبوسا ممطرا من أيام باريس المكفهرة . وكان منظر الطبيعة هكذا فى قطوبها وحلوكتها مما يؤثر فى أعصاب « شوبان » ويحدث له ضيقا فى صدره . كما أن الرطوبة فى مثل هذا المناخ وذلك اليوم مما كان يحدث تأثيرا سيئا فى صحته . فلم يزر أحدا فى ذلك اليوم ولم يزره أحد حتى ولا وحيه الموسيقى . وأراد فى المساء أن يفر من وحدته ويتخلص من هذه السآمة الجاثمة على روحه المستوحشة فقصد قصرا لاحدى النبيلات ؛ وهو من جملة تلك القصور التى كان يكثر الترداد على صالوناتها ، وهى يومئذ ملتقى أعلام الفن وأقطابه من موسيقيين وشعراء وكتاب ، كما تضم الطبقة الممتازة من الأشراف والنبلاء وذوى المكانة .

مضى « شوبان » الى القصر . وبينما هو فى صعوده درجات السلم أحس كأن ظلا خفيفا يلاحقه ، كما امتلأ الجو بأريج البنفسج الذى ارتاحت اليه نفسه ، ودب اليها دبيب النشوة والانتعاش . فلما أقبل « شوبان » حيى صاحبة القصر ، ورأى فى ضيافتها كثيرين ممن يعرفهم ، كما التقى بوجوه جديدة لم يسبق له رؤيتها ... وانقسمت هذه الندوة الى جماعات أخذت كل واحدة منها تسمر فى خفة ورشاقة . وقد طافت أحاديث هؤلاء

السمار بالمسرح والفن والأدب والسياسة • ولما كان « شوبان » فى تلك الليلة أكثر ميلا الى الاستماع منه الى التحدث فقد انتحى ناحية فى أحد أركان البهو ، واكتفى بما يصل اليه من قطوف الأحاديث ؛ وما تقع عليه نظراته من وجوه الحسان اللاتى ازدان بهن الحفل •

وبعد أن انصرف أكثر الحاضرين ، ولم يبق سوى أقلية المقربين الى سيدة القصر ، نهض « شوبان » الى آلة البيان يبثها ما كان يكتمه من حديث نفسه ويفضى اليها بما كان يخفيه من آلام قلبه الجريح • وراح يقص بلغة الأنغام قصصا بارعا ، ويرسل من آيات ابتكاره ابداعا رائعا •

أما المستمعون فقد حبسوا أنفاسهم ، وأقبلوا بأسماعهم ؛ بل بقلوبهم على ذلك الفنان الذى نسى نفسه واستغرق فى موسيقاه • ولما أتم العزف وثاب الى نفسه ، رفع عينيه ، واذا به يرى سيدة تبدو فى ملابس غير مبالغ فيها ، وقد نسيت هى الأخرى نفسها ، واتكأت باحدى يديها على آلة البيان ومضت ترشق الفنان بنظرات من عينين سوداوين متأججتين تحجبان من ورائهما ما يشبه حمرة الجمر خلف سواد الفحم • وكأنما كانت بنظراتها المصوبة كالسهام تحاول أن تستشف روحه ، وتقرأ مافى أعماق نفسه • فلما شعرت بأنه قد انتبه اليها ، ألقت على هذه المفاجأة ابتسامة خفيفة •

وعاد الفنان وشيكا الى مجلسه من البهو • ولم تكن الا برهة حتى تنسم عبير البنفسج ؛ مقبلا فى حفيف الملابس الحريرية •

انها لتلك التى تبعه ظلها على السلم ، وهى تلك التى كانت منذ لحظات متكئة على البيان ترمقه بنظرها وسمعها • وهى الآن فى صحبة صديقه الموسيقار « لست » الذى قام بدور التقديم والتعريف • وقد أطرت السيدة فن « شوبان » وأثنت على مهارة عزفه وبراعة تأليفه ، وتعمقه البعيد ؛ مع دقة فى التعبير ؛ وتجديد فى الابتكار ؛ وسحر فى النغم ، يملك من النفس قيادها • وقد أسمعته آيات الثناء والاطراء فى أسلوب فريد ؛ وبيان غير مألوف ، كان لابد أن ينفذ الى شغاف قلبه دون استئذان ؛ فقل أن بلغ أحد فى صدق التعبير عن موسيقاه ما بلغته فيما صاغته من عبارات شعرية سامية ، وأسلوب نادر فى البلاغة واجادة فى الوصف ، وقدرة على التصوير • وليس هذا وأكثر منه بمستبعد على هذه السيدة فقد كانت أشهر كاتبة تحت سماء فرنسا كلها ؛ وهى « أورورا دوديفان » التى كانت شخصيتها اللامعة لا تخفى على أحد حين تنشر قصصها ومؤلفاتها تحت اسمها المستعار « چورج صاند George Sand » •

ولما عاد « شوبان » الى منزله وآوى الى فراشه ؛ كانت كلماتها التى حيته بها كالصدى المتردد فى همس الليل ، فهو يستعيدها ويستوعبها مراجعة واستذكارا • وقد أعجبه من تلك السيدة عمق تفكيرها ونباهة شأنها فى الأسلوب وروعة البيان • على أنه وان كان قد أعجب بروحها وقيمتها المعنوية فان مظهرها الخارجى لم يبلغ من نفسه تأثيرا ذا خطر • يدل على ذلك ما صرح به لأحد أصدقائه فى طريقهما الى المنزل بقوله :

« ان چورج صاند هـذه السيدة لا تتمتع بمنظر جـذاب حتى ليسأل المرء نفسه أهى امرأة حقيقيـة ؟ انى لأرتاب فى أنوثتها ... » .

وكما يصفها أيضا فى احدى رسائله الى أبيه بقوله :

« لقد تعرفت الى احدى الشخصيات البارزة البعيدة الصيت : وهى السيدة « دوديڤان » التى اشتهرت باسم « چورج صاند » . ولكن وجهها لا يثير فى نفسى أي شعور بالجاذبية اليها . ولم أر فيه مايسرنى اطلاقا ، بل على النقيض أحس فيه بشىء ينفرنى منه » .

ثم أخذت هذه المقابلات تتوالى بينهما فى هذا القصر وغيره من « صالونات » باريس التى كانا يلتقيان بها مع من تضمهم تلك القصور من أعيان الطبقة الممتازة ونجوم الفن فى تلك المدينة . وكلما تكررت المقابلة بين الموسيقار والكاتبة توثقت عرى الاتصال بينهما ؛ وخفت دواعى النفور منها فى نفسه ، بقدر ما تجلت له فيها مزايا تزيده اعجابا بها وميـلا اليها . وكذلك « چورج صاند » بالنسبة الى « شوبان » فقد كانت عبارات الاطراء والثناء من أعماق قلبها ؛ حتى نزع بها اليه حب أكيد ، وغرام ثائر ، ربما كان له الفضل فى تجميل مزاياها ؛ واخفـاء ما كان يبدو فى عينيـه أنه رجولة فى أنوثتها . وشهدها بعـد ذلك ، فاذا بها كما يجب أن تكون الأنثى التى يغمرها الخجل ويعلوها الحياء .

وكانت « چورج صاند » وقتذاك فى الثالثـة والثلاثين من عمرها . وقد عرفت بأنها شخصية نفاذة قاهرة ، ما صارعت رجلا



چورج صاند



چورج صاند

الا صرعته . ولم يثبت أنها هزمت مرة فى معركة غرامية اشتبكت فيها مع شخصية أيما كان قدرها ومقامها ... تزوجت قبل ذلك من النبيل « كازمير دوديفان » ثم انفصمت عروة ذلك العهد عام ١٨٣٦ بعد أربعة عشر عاما من هذه الزيجة . ويبدو أن الزوجين لم يكونا من التكافؤ والتماثل على ما ينبغى . مما حملها على أن تغادره مقيما بقصره فى « نوهان » لتعيش فى باريس ، وذلك قبل انفصالهما بخمس سنوات . وفى تلك الحاضرة المائجة ، وتحت سماء تلك المدينة المختالة بمدنيتها الصاخبة : اعتلت « جورج صاند » ذروة الشهرة فى ميدان القلم ، وجالت فى حلبة الكتابة والأدب جولة أحلتها المكان الأول بين أترابها . أما حياتها الخاصة فقد كانت تتمتع فيها بحرية مطلقة ، حتى وهى فى قيد الزوجية . وقد حمل الينا تاريخ الأدب الفرنسى قصة علاقتها بالشاعر « الفريد دى موسيه Alfred de Musset » الذى رحلت معه الى ايطاليا عام ١٨٣٤ وما لبث هذا الغرام المتوقد أن انطفأت جذوته ، وتبدل الأمر فيه الى ما يشبه البغضاء وحب الانتقام . ولولا أن يخرج بنا القول عما نحن بسبيله فى هذا المصنف لالتمسنا من « ليالى موسيه » وأشعاره التى مزق فيها قلبه مزقا استحالت الى ألفاظ صارخة باكية من الغدر والخداع وسرعة التحول ... لولا ما أسلفناه لوجدنا فى ذلك الأدب ، وفى غيره ، تحليلا لنفسية هذه المرأة التى تركت صرعاها يسقطون الواحد بعد الآخر ، وفى مقدمتهم زوجها الذى كانت تتردد عليه فى « نوهان » دون خجل من استهتارها ، الى أن وقع الانفصال بينهما . وعلى أثر ذلك رحلت بطفليها من

ثمرة هذا الزواج وهما « موريس » و « صولانج » . وقد بدأ تعارفها بشوبان بعد انفصالها بعام .

والروايات متعددة مختلفة فى كيفية هذا التعارف بينهما ، ولكن ما لا خلاف عليه أن الموسيقى كانت هى الطريق السحرى الى قلبها . ومن ثم أعجبت به ومالت اليه . وتم هذا التعارف بفضل صديقهما الموسيقار « لست » على نحو ما أسلفنا . وهذه الرواية هى التى سجلتها « جورج صاند » نفسها عن لقائها الأول لشوبان .

ومن المحقق أيضا أن هذا التعارف كان قائما فى مارس عام ١٨٣٧ وان لم يكن وثيقا ، حيث لا نجدها فى هـذا التاريخ تكتب اليه مباشرة . وانما تجعل بينه وبينها صديقهما « لست » وقد كتبت اليه فى الثانى والعشرين من مارس تلح عليه فى أن يزورها مصطحبا معه « شوبان » الى قصر « نوهان » الذى تخلى عنه « دوديفان » لها ولطفليهما .

وهذا العام أعنى ١٨٣٧ كان يبدو منذ أوائله صحيفة مخضبة لذكريات دامية لشوبان وجورج صاند على السواء .

أما هو فقد ورد عليه فى الشهر الأول من ذلك العام نبأ تخلى أسرة « ماريا » عما كانت تهفو اليه أحلامه وتشدو به أنغامه من قران سعيد . وقد تحطم قلبه بفسخ هذه الخطبة وبما قبلها من عهود موثقة ، وعقود مبرمة ، مزقتها يد الدهر التى كانت تقطع كل خيط من الأمل يتعلق به .

وأما هى فلم تكن أحسن حالا ، ولا أنعم بالا . فقد فشلت فى

حياتها الزوجية ، كما لم تسعد فى قصتها الغرامية مع « موسيه » • ولعل لها غير ذلك من الحوادث والقصص ما جرح قلبها : وجرعها غصة اليأس والفشل مرة ومرة •

وفى ذلك العام ، وعلى تلك الآلام : التقى القلبان المحطمان ، وتحاب « شوبان » و « جورج صاند » وزاد التقارب بينهما • ورأى كل منهما ألا غنى له عن صاحبه حين ينشد برد العزاء والسلوى • على حد قول القائل : « شبيه الشيء منجذب اليه » • ولقد استمعت « جورج صاند » الى موسيقى « شوبان » فرأت فيها صورة قلبها المحطم ، وقصة فشلها المتكرر • ووجدت آلامها حاضرة بين يديها فى تعبير صادق يؤديه الموسيقار فيسلبها لبها وينزعها من كبريائها ، فاذا بسلطانها مقهور أمام سلطانه • وهو أيضا قد أصبح نهبا للغربة والوحدة ، وخانته حبيبة بعد حبيبة ، وفجع بفسخ خطبة بعد خطبة ، وامتد مرض قلبه الى جسمه ، وألم روحه الى هيكل جسده النحيل • فما أحوجه الى قلب المرأة فى مثل هذه الحال ، على أن تكون فيما يليق بعظمته الفنية على مثل ما كانت عليه « جورج صاند » • ولم يكن القدر ضنينا عليه فى هذه المرة بتقديم العزاء • ولكن •••

رحلة بعد تعارف

وضح فيما سبق أن « شوبان » بعد فجيعته فى خطبة « ماريا » والرحلة الى لنـدن لم يستطع مواصلة ما كان يعتزمه من متابعة السفر الى هولانده فألمانيا ، وأن تدهوره الصحى اضطره للعودة الى باريس فى شهر أغسطس عام ١٨٣٧ وكان الأمر يزداد به سوءا حتى نصح له الأطباء بالسفر الى الجنوب طلبـا للدفء وحرارة الشمس .

ولما كانت العلاقة قد أصبحت وثيقة بينه وبين صديقته « جورج صاند » فقد اتفقا على أن يقوما بالرحلة معا الى جزيرة مايورقة احدى جزر البليار الاسبانية .

ولئن كانت علاقة « شوبان » و « جورج صاند » فى بداية الأمر قد اكتنفها كثير من الغموض فان أخبار رحلتهما هذه لم يخف من أمرها شىء ، بفضل كتابات «جورج صاند » ورسائل «شوبان» التى يمكن على ضوئها تفهم الرحلة اجمالا على هذا النحو :

فى العاشر من شهر نوفمبر عام ١٨٣٨ غادرت باريس « جورج صاند » تصطحب طفلهـا موريس ، وقد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، وصولانج وكانت فى العاشرة . فمروا فى طريقهم بمدينة ليون وأفنيون ونيمس وبربنيان حيث التقوا فيها بشوبان الذى كان يحاول اخفاء أمر هذه الرحلة جهد طاقته . فكتم أخبارها الا عن أوثق

أصدقائه وألصقهم بنفسه وكان من بينهم « فونتانا » الذى لم ينس فى كل مرة كتب اليه فيها من رحلته أن يوصيه بكتمان أمرها عن الناس ، والا كانت اذاعة أخبارها تغـذية لأصحاب الشائعات فى باريس بما يشتهون . وعلى الرغم من المبالغة فى التكتم والحيطة فى اخفاء أمر هذه الرحلة فقد كان من المحال أن تجهل أندية باريس مقر أسطع نجمين للموسيقى والأدب ؛ وقد تغيبا عن سمائها غيبة مفاجئة ، سيما اذا كان الجميع يعرف عن « جورج صاند » أنها تسمح لنفسها بالحرية الكاملة فى حياتها الخاصة دون اكتراث بأحاديث الناس ونقدهم .

مضى الجميع فى رحلتهم وغادروا فرنسا على سفينة أقلتهم الى مدينة برشلونة ، وقد قضوا فيها بضعة أيام استمتعوا خلالها بمشاهدة المدينة وضواحيها . ثم تابعوا رحلتهم الى مدينة « پالما » عاصمة جزيرة مايورقة . وقد صفت لهم سماء الحياة الهانئة حيث استقبلتهم شمس دافئة ، ومناظر رائعة جذابة ؛ وجو ممتع ساحر ، مما أهاج قلم « جورج صاند » فصنفت مؤلفا خاصا بهذه الرحلة .

ولعل تأثر « شوبان » يتجلى لنا أيضا فى رسالته الى صديقه « فونتانا » من مدينة پالما . وفيها يقول :

« اننى الآن فى پالما بين خضرة يانعة ، وظلال وارفة ، تمتد من أشـجار النخيل والأرز والصبار والزنبق والبرتقـال والليمون والرمان وهكذا ... ان قبة السـماء تبدو لامعة كالفيروز ، وصفحة البحر كأنها اللازورد . ويظهر الجبل كأنه الزبرجد . وقد سكن

الهواء فى مثل صفاء السماء والشمس تضىء النهار كله ، وترسل أشعتها الدافئة . والناس هنا يرتدون ملابس الصيف . وفى كل ليلة ، بل وفى كل ساعة ، يسمع الانسان فى جميع المواطن ومختلف الأصقاع أغنيات يحملها الجو فى مصاحبة أنغام القيثارة ... شرفات رحيبة قد تدلت من حولها أغصان أشجار الأعناب فى تلك الأبنية التى تحمل الطراز المغربى . وتقع هذه المدينة صوب افريقية . ويمكننى أن أقول فى ايجاز أنها لحياة ممتعة ... أرجوك أن تبلغ «پلايل» أن آلة البيان لم تصل بعد وأن مقطوعات «البريلود» ستكون لديه فى وقت قريب . ربما يتاح أن أسكن فى دير أنيق بهيج يعد موقعه من أمتع مواقع العالم . يجمع بين البحر والجبل والنخيل الى جانب كنيسة وأطلال مسجد وأشجار زيتون خلفت وراءها ألف عام من السنوات . وهكذا أنعم بالحياة فى أجمل بقاع الدنيا ، وأرى نفسى فى صحة متحسنة » .

وهكذا كانت تلك الرحلة فى بدايتها مريحة ذات تأثير طيب فى كليهما . ولكن هذه السعادة سرعان ما تغيرت ، وولت هذه الراحة وذلك النعيم . فالطبيعة بجمال مناظرها شىء ، ويسر الاقامة وتوفر المعيشة شىء آخر . فان مدينة « پالما » كما ترى « جورج صاند » لا يوجد بها فندق واحد . فكان عليهم أن يقنعوا جميعهم بالاقامة فى حجرتين متواضعتين تنقصهما جميع وسائل الراحة ، وتكتنفهما مسارب الهوام والحشرات ، وتحوطهما أماكن تعوزها الرعاية والنظافة .

واهتدوا أخيرا الى منزل صغير مؤثث : محوط بحديقة وارفة ، تطل على مناظر جميلة . ولا يزيد أجره فى الشهر على خمسين فرنكا . ولئن كان كل ما فيه من الأثاث والفراش بدائيا متواضع المظهر . فقد كان فرحهما به عظيما . حتى أطلقا عليه اسم « ابن الريح » . وكان فى موقع صحى ساحر فقد بنى فى سفح جبل ، مطلا على سلسلة جبال ؛ كما يشرف على البحر أيضا ، مما جعلهم يقضون الأسابيع الأولى فى مثل أحلام الجنة . فهذه «جورج صاند» تقول :

« ان هنا لمنظر شاعرى متفرد . وكل ما حولنا يخلق اعتدال المزاج تحت سماء وأى سماء بل وأى أرض . نحن نسبح فى السعادة » .

وسرعان ما أسدل الستار على تلك السعادة التى سبحوا فيها ، ثم تغير المنظر الى عبوس وظلمة . فقد داهمهم موسم الأمطار فى بيت كان رقيق البناء ، فلم يقدروا فيه على مقاومة الرطوبة ومغالبة الريح ... لقد نفذ البرد القارس من تلك الجدران الواهنة ، وأصبح البيت كأنما بنى من الجليد . وهذه هى الأمطار تهطل فى الخارج دون انقطاع أسابيع متوالية ... فماذا يمكن أن ترى العين فى هذا المنظر ؟.. « شوبان » وقد بدأ فى السعال .. وأهل الحى على قلتهم يظنونه مصدورا فيتجنبونه ومن معه ... ولم يكن فى هذه المنطقة طبيب يمكن التعويل عليه . بل امتد نكد الطالع الى الأدوية نفسها . فكل العقاقير التى أمكن العثور عليها

كانت تالفة ... وأعلن صاحب البيت هؤلاء السكان بوجوب مغادرة المنزل بحجة أنهم مصابون بمرض وبائى ، وذلك مع الزامهم بتطهيره وتنقيته وطلاء جدرانه وتجديد فراشه على نفقتهم .

ولم يستطيعوا الحصول على مسكن آخر بهذه المدينة ، لما كان يكتنفهم من هذه الشائعات الوبائية التى تفرت الناس من الدنو منهم وقبول جوارهم . ولكن الرحمة الالهية أكرم من أن تدع هؤلاء فى مطارح غربتهم يموتون بالعراء تحت سماء يكاد وابلها يحيل البر بحرا . فهداهم البحث والجهد الى دير قديم مهجور كان يتوارى فيه أحد اللاجئين السياسيين من الأسبان . وكان السفر يضطره الى مغادرة مسكنه فى هذا الدير فنزل عنه لشوبان ومن معه فى مقابل ألف فرنك .

وهذه المحن التى انهالت على الفنان العظيم ماذا كان خطرها على فنه وتأثيرها فيه ؟... فما لنا أن نسرد الحوادث أو نتتبع عبرها وحسب ، بل لابد من العبرة الفنية أيضا ننقب عنها ونحاول ايجادها والاحتفاظ بها . فاذا نحن نظرنا الى « شوبان » بين تلك المحن التى يلاحق بعضها بعضا فى سرعة عجيبة ، رأينـــاه يتعجل صديقه ارسال آلة البيان فى مكان لا تكاد تستقر فيه قدماه . ولماذا ؟... لأنه كان فى مسيس الحاجة الى تلك الآلة ليعبر بلسانها عن أشجانه ، ويخفف بأنغامها بعض آلامه . وقد أوصى صديقه هذا فى رسالته ألا يخبر الناس فى باريس بمرضه حتى لا يصبح اسمه مضغة فى أفواه المتقولين .

على أن هـذا الدير وان استثار اعجاب « شوبان » بحسن موقعه . وتغنى بجماله الممتع فى رسائله . فقد كان فقير الأثاث ، كما كان قديم البناء ...

واشتد عليهم غضب الشتاء فى هـذا الدير فأمطرهم أربعين يوما لم ينقطع خـلالها هطول السحاب ، وحملت شـدة البرد « شوبان » على طلب مدفأة من فرنسا . وعند وصولها مع آلة البيـان كان منظرهمـا مثـار العجب والتخوف من السلطات فى « بالما » فقد ارتابوا فى أن يكون فيهما ما يهدد حياة المدينة كلها .

وهكذا كانت الحياة فى « مايورقة » فادحة العبء على صحة « شوبان » فكان يلاحظ دائما أن جسمه آخذ فى النحول ، ووجهه ينحدر الى الشحوب والذبول يوما اثر يوم ؛ حتى أجمع أطباء تلك الجهة على اليأس من شفائه . أما هو فكان يتلقى هذه الصدمات بايمان عجيب ، وجأش ثابت ، وثقة لا تتزلزل .

والحقيقة أن آخر طبيب زاره أخطأ تشخيص المرض ؛ وتبع ذلك خطأ فى تكييف العلاج . فقـد أثبت أنه عليـل باضطراب الأعصاب والتهاب الرئتين وأنه مصاب بالسل . وتبعا لهذا فقد قرر بذل دمه ، وقصر الطعام على اللبن . وكلاهما مضاد للمصلحة الحقيقية فى علاجه على نحو ما قرره الأطباء فيما بعد . واستتبع هـذه الحال زيادة ضعفه ، ومضاعفة علته . وعلى الرغم من أن « جورج صاند » استأنت الطبيب واستمهلته فى هذا البذل المتتالى الذى قد يودى بحياة الفنان ، فقد صمم الطبيب على الاستمرار

فى هذا العــلاج الذى كان فى حقيقة الأمر مرضا ثانيــا مع المرض الأول . ومما زاد الحال سوءا أنه لم يكن يوجد من الأنعام بتلك الجهة غير الماعز ؛ فليس أمام المريض وقد أكره على شرب اللبن سوى أن يرضى به من المعز ؛ وان كان مما لا يستسيغه .

واذا كان لنا أن تتصور « شوبان » فيما آل اليه من انهيــار وضعف ؛ وحالة نفسية أليمة ؛ فليكن عمادنا قلم « جورج صاند » فقد وصفت هذه المحنة بقولها :

« لقد كان من الصعب فى الكثير من الأحيان امكان التفاهم العادى مع الفنان العظيم فى محنته . وقد وقع ما كنت أخشاه ، فــرعان ما تضاءل ثباته ، واضمحلت سكينته ؛ ففقد مزية الصبر . لقد احتمل آلام الجسد احتمال الرجل ، بيــد أنه سقط فريسة الأوهام والأخيلة المثيرة . وكان يخيل اليه أن الدير ملىء بالأرواح والأشباح . وكانت هذه الخواطر تعذبه وتقض مضجعه أكثر من مرض صدره . وكان يحاول أن يخفى عنى آلامه ولكن كان الأمر أكبر من أن يخفى عنى ... وأذكر أنى عدت اليه مع طفلى فى احدى الليــالى بعد العاشرة ؛ فرأيته جالسا الى البيان ، وكانت نظراته جنونية ، وشعره مسترسلا فى غير اتساق . ولم يستطع أن يتعرفنا الا بعد مضى لحظات . على أنه لم يزد اذ ذاك على ابتسامة متكلفة عاود بعدها العزف بالبيان . لقد كانت موسيقاه تترجم عن مدى تأثره فى وحدته بالأشباح والأرواح ... ولعمرى لقد أبدع فى هذا الحين روائع النغم ، وأطلق على تلك المقطوعات اسما يشف عن

التواضع فسماها « بريلود » . وهى جميعا مقطوعات مثالية ، تحمل فى نغمها صورا حية عبر فيها أصدق تعبير عما كان يجيش برأسه من الخواطر كيفما كان لونها . ففى احداها خيال لذلك الكاهن الذى مات ، ثم الاحتفال الرهيب بدفنه . فتراه وقد كاد بموسيقاه يصور أمام عينيك موكب الجثة ... وفى مقطوعة ثانية يطلعنا بفنه على مدى الانقباض والحزن الذى استولى على نفسه ... وفى ثالثة ينطلق من هذا الحزن ويعود الى الحياة فيرى وجهها طلقا باسما ، يرد اليه صحته وجمال عافيته فى أمل وتفاؤل ... ثم هو حين يرى مرح الطفلين بين يديه ويستقبل من بعيد أصوات القيثارة يتجاوب فيما حول الدير مع تغريد الطيور على أفنان الأشجار الندية بقطرات المطر ، وعندما يطل بنظراته على الورود الناشئة الذابلة فى حديقة الدير وقد اختفت رءوسها الصغيرة بين طبقات الثلوج البيضاء ، اذ ذاك تصـدر الألحان من بين أنامله حلوة مؤثرة ، فى جمال لا يوصف ، ورشاقة لا تحد . ولكن الكثير منها مشوب بالحزن العميق . على أن المرء يحس معانى السعادة عند سماعها ، ولكنها سعادة مليئة بالألم .

ولئن كنت قد أصبت هدف الحقيقة فيما وصفت به الفنان فذلك يبدو جليا فى احدى مقطوعات « البريلود » . ففى احدى الأمسيات أبدع فيها وحيه والهامه فجاءت مؤثرة ، تنزع بخواطر النفس الى اليأس ... وان أنس فلن أنسى أننى خرجت مع طفلىّ فى أحد الأيام الى « پالما » لبعض شئوننا ، وتركنا « شوبان » وحده .

ثم انهمر المطر فى المساء بغزارة جعلت السيول تجرى على الأرض أنهارا . وفقدنا أحذيتنا فى هذا الفيضان ، وتركنا دليلنا ، وتهددنا خطر جسيم حتى أمضينا ست ساعات كاملة فى قطع مسافة ميل ونصف الميل . ولم نصل الى البيت الا فى نحو منتصف الليل . وقد كان تأخرنا مثار تألمنا وانزعاجنا . فقد كنا على ثقة من أن هذا سيسبب الفزع والقلق لمريضنا المحبوب . وفى الحق لقد رأيناه فى تأثر شديد ويأس عميق . ولقد عبر عن ذلك بلغة فنه فأتم احدى مقطوعات « البريلود » التى جعلته يستغرق فى الدمع . وما كاد يرانا مقبلين حتى وقف جامدا فى مكانه يصيح بصوت متهدج « لم أكن أعتقد أنكم ستعودون على قيد الحياة » . وبعد أن عاودته السكينة رويدا رويدا ، ورأى بعينيه أثوابنا المبللة أثر فى نفسه تعرضنا للخطر الذى كنا على شفا التردى فيه . ولقد حدثنا فيما بعد أنه أثناء تغيبنا وهو فى وحدته طاف به أمر جعله فى حالة يعجزه معها التمييز بين الحقائق والأحلام . لقد وقع فريسة لفقدان الحواس . وحين أقبل على البيان أحس كأنما تميد به الأرض ، وأنه لم يعد حيا بين الأحياء . وشعر كأنه يغرق وقد احتوته الأمواج لتضمه الى أعماق البحر . ثم هو فى لون من ألوان هذه الغيبوبة يحس قطرات الماء البارد تتساقط أرسالا فوق صدره . ولما نبهت « شوبان » الى أن هذه القطرات التى أحسها فوق صدره لم تكن سوى قطرات المطر يتوالى سقوطها على سقف الدير رفض الاذعان لهذا مصمما على أنه لم يسمع شيئا قبل ذلك . وقد اشتد غضبه منى حين حاولت اقناعه بأن هذه الموسيقى لم تكن فى تعبيرها

الا توافقا حاكيا يقلد فيه ما كان يسمعه • وفى يقينى الآن أنه كان على حق فان التقليد يكون عملا لا وجود له اذا كان المرء خارج منطقة الحواس ، وان عبقرية « شوبان » كانت تحتوى فى أعماقها أسرارا مليئة بالتوافق الموسيقى ، وهى أسرار قد ولدت معه بحيث تصدر عنها تعبيراته الصادقة عن خواطره الموسيقية • وهى بهذا ليست تقليدا للعالم الخارجى • وان مقطوعة « البريلود » التى ابتكرها هذا المساء وان كانت تذكر بقطرات الأمطار المتساقطة على سقف الدير فهى على حد تعبيره قطرات الدموع التى كانت تساقط من السماء على قلبه ••• وما أظننى حتى الآن عرفت عبقرية كعبقرية « شوبان » تحس احساسا شاعريا عميقا • وان آلة البيان لتتحدث تحت أنامله حديثا خالدا ، حتى ان المقطوعة القصيرة التى لا تستغرق فى تدوينها أكثر من مساحة نصف صحيفة لتحمل فى طياتها الفن المعجز الذى لايمكن وصف مايحتويه من عمق الشاعرية ودقة التعبير • وليس « شوبان » فى حاجة الى الاستعانة بالوسائل المادية الضخمة ؛ فله فى عبقريته وحدها غنى عنها جميعا • فلم يكن يحتاج الى استخدام أنواع النفير والبوق لكى يشعر النفوس بمؤثرات الفزع والعنف ، لأن فى مقدوره أن يوقظ هذه المشاعر كلها دون التجاء الى هذه الآلات • وظنى أن الناس لم يعرفوه الى الآن حق المعرفة ، ولم يصلوا به بصفة عامة الى التقدير الذى يستحقه والمكانة التى يستوجبها • وان على العالم أولا أن يتقدم خطوات واسعة نحو السمو بالذوق والوعى الموسيقى حتى يتيسر له أن يدرك أسرار الفن فى موسيقى شوبان ••• » •

ان فقدان أسباب الراحــة فى هــذه الجزيرة قد أثار متاعب « شوبان » حتى فقد الغبطة التى كانت تغمر نفسه عند استنشاق زهور البرتقــال . أو رؤية عناقيد الكرم وهى تثقل الأغصان ، أو الاستماع الى الأغانى المغربية ترسلها أفواه الرعاة فى غدوهم ورواحهم ، كما كان ذلك منه عند بداية الأمر . وقد ألحت عليه العلة فأصبح سريع التهيج ، مرهف الحس ، يتأثر لأقل بادرة وأتفه أمر ، حتى ليدمى قلبه منظر غصن مائل أو وردة ملتوية أو فراشة فقدت ساقها .

ولما لم يعد المقام محتملا على هذه الصورة فقد اعتزم الجميع انهاء هذه الرحلة والعودة الى فرنسا . وانتهزوا فرصــة اعتدال الجو فى يوم من منتصف فبراير عام ١٨٣٩ فغادروا « بالما » على ظهر سفينة كانت هى وسيلة النقل الوحيدة فى هذه المنطقة . وكانت خاتمة البلايا فى مناظر هــذه الرحلة أن يحاط هؤلاء المسافرين فى هذه السفينة بمائة من الخنازير كان يراد نقلها من هذه الجزيرة الى احدى الجهات .

وقد بدأوا يرون وجه الدنيا باسما مرة أخرى حين وصلوا الى برشلونة ، واستقبلهم قنصل فرنســا بما خفف عنهم فداحة هذه الآلام المبرحة . وأمكن لشوبان أن يتلقى بعض المشورات الطبية . وطاب لهم المقام بهذه المدينة فاستقروا فيها أسبوعا بأحد فنادقها . وبعثت «جورج صاند» برسالة من هذه المدينة فى الخامس عشر من فبراير الى احدى صديقاتها فى باريس تقول :

« عزيزتى المحبوبة ! أنا الآن فى برشلونة . واذا شاء لى الله

انى أغادرها فلن تطأ قدماى الأرض الأسبانية أبدا . ان هذه البلاد لا توافقنى بحال ... اقرئى على « جرزيمالا » من هذه الرسالة ما يخص « شوبان » على ألا يذيعه لأحد . وانه بعد أن أكد لنا الطبيب ما يطمئن الخواطر على صحتـه فلم تبق من حاجـة الى ازعاج أسرته » .

ثم أبحروا من برشلونة حتى انتهوا الى مارسيليا وهم لا يكادون يتمالكون أنفسهم من نشوة سرورهم بالعودة الى أرض فرنسا . ولندع « جورج صاند » تتحدث عن هذا فى احدى رسائلها فتقول :

« وأخيرا ياعزيزتى أنا فى فرنسا ... ولو أن الرحلة امتدت بنا شهرا واحدا من الاقامة فى أسبانيا لكان فى ذلك هلاكى وهلاك « شوبان » . أما هو فمن الجنون والخوف ، وأما أنا فمن الضيق والغضب . لقد جرحوا أعمق مكان فى سويداء قلبى يوم اخترقوا برءوس الابر أمام ناظرى جسم المحبوب العزيز وهو على فراش مرضه . ولن أغتفر ذلك لهم ما حييت . واذا كتبت عنهم فانى سأكتب فى قسوة ومرارة » .

ثم نرى « جورج صاند » أيضا تقدم وصفا لنفسية « شوبان » فى هذه الرحلة فتقول :

« ليس « شوبان » هـذا سوى ملاك طاهر . ولقد ابتكر ، فى مرضه بجزيرة مايورقة ذلك المرض الذى كاد يسلمه الى الموت ، ألحانا صادرة من أعماق الفردوس . وشاء القدر أن أكون أنا وحدى التى تعودت أن أراه محلقا فى آفاق السماء فكان من المتعذر على

أن أتبين ما اذا كان لا يزال فى عداد الأحياء أو هو فى قائمة الراحلين عن الدنيا . بل هو نفسه يتعذر عليه أن يدرك فى أى كوكب يعيش » .

وحدث فى مارس أثناء وجودهم بمارسيليا أن أعلن نبأ وفاة المغنى « أدولف نوريت Adolphe Nourrit » وكان يتمتع بأعظم صوت من نوع الصادح (التينور) وقد انتحر فى ايطاليا بقذف نفسه من احدى النوافذ حزنا على سقوط سمعته . فأسرع « شوبان » الى الكنيسة حيث جلس الى الأرغن يبتكر بعزفه ألحانا كانت فى وقعها المؤثر آخر ما يهديه فنان الى ذكرى صديقه الفنان . وعزف مقطوعة « النجوم » من موسيقى شوبرت وهى الأنشودة التى طالما تعود جمهور مارسيليا سماعها من المغنى الراحل .

وامتدت اقامة « شوبان » مع أسرة « جورج صاند » فى مارسيليا من أوائل مارس الى أوائل مايو . وكان أكبر همه فى هذين الشهرين معالجة مرضه على أساس طبى صحيح لم يتوافر له فى رحلته . وقد أصاب طبيبه الدكتور « كوڤير » فى ذلك هدف النجاح وقرر أنه مصاب بنزلة شعبية حادة . وتدل الرسائل الواردة من « شوبان » ومن « جورج صاند » التى بعثا بها من مارسيليا على أن الحالة الصحية للفنان كانت تسير من حسن الى أحسن .

وبلغ به التحسن الصحى خلال تلك الأسابيع التى قضاها فى مارسيليا أنه استطاع مرافقة « جورج صاند » وطفليها فى رحلة

الى جنوا بايطاليا : حيث نصح له الأطبـاء بقضاء بضعة أسابيـع فى الجنوب • وما لبثوا أن عادوا منها الى مارسيليا بعد رحلة بحرية شاقة فى العشرين من مايو • وبعد أيام قلائل غادروها الى قصر « نوهان » •

وفى قصر « نوهان » هذا توفرت لهم أسباب الراحة والهناءة • وكانت فى أعينهم بالنسبة الى مايورقة وأيامهـا العصيبة كالجنة بالنسبة الى الجحيم الأليم • وهنـالك ما هو أعظم من ذلك شأنا وأجل أثرا • فهذا هو طبيب ممتاز يمت الى « جورج صاند » بود سابق وصداقة قديمة • وهاهو ذا الطبيب يفحص الحالة الطبية لشوبان ويدرس مشكلة مرضه دراسة عميقة يخرج منها بنتيجة سارة كان وقعهـا على الأسماع أجمل من وقع بشرى العيـد • ان « شوبان » ليس مصدورا وليس مريضا بالسل • ويتفق هـذا الطبيب مع ماقرره زميله طبيب مارسيليا من أن مرض الفنان انما هو نزلة شعبية حادة ولا يعوزه سوى الراحة والاستجمام • وقد أصبح أمر المعالجة والدواء فى متناول اليد بعد تلك الكارثة التى اجتمع عليها بذل الدم ولبن الماعز •

وفى هذه الفترة أمكن لشوبان أن ينعم بحياة عائلية منتظمـة كان فيها بالنسبة الى «جورج صاند» كأنه ثالث ثلاثة بين أطفالها ••• كانت هى تنصرف الى تعليم أطفالها والعناية بتربيتهم • وبعد أن تتناول الأسرة وجبة الغداء فى الخلاء يعزف « شوبان » ألحانه فى الأصيل ، حتى يبادر الى فراش نومـه فى الوقت الذى يبكر فيه الطفلان

الى سريريهما . ثم تبعهما « جورج صاند » بعد اعداد دروس الغد .

وقد تركت هذه الحياة لشوبان فراغا يملؤه بفنه : وصحة يتوجها بروائع مبتكراته . فها هو يكتب من « نوهان » الى صديقه « فونتانا » قائلا :

« انني ألحن هنا الآن سوناتة من سلم سي بيمول مينير وهي تحتوي على المارش الذي سبق أن بعثت اليك به . وتتألف من جزء « الليجرو » ثم جزء « سكرزو Scherzo » . وبعد المارش يجري حوار بين اليد اليمنى واليد اليسرى في موسيقى لحنية خالية من تعدد التصويت . وقد لحنت غير ذلك مقطوعة « نوكتورن » جديدة وهي صول ماجير ، وستنشر في نفس الوقت مع مثيلتها صول مينير اذا كنت تذكرها . وقد انتهيت كذلك من أربع مقطوعات « مازوركة » : واحدة انتهيت منها في « پالما » وهي مي مينير والثلاث الأخريات تمت هنا وهي سي ماجير ، ولا بيمول ماجير ، ودو دييز مينير . وأعتقد أنها جميلة . ومهما يكن من شيء فذلك هو شعوري نحوها ، وهو شعور الأبوين نحو صغارهما حين تتقدم بهما السن . ولا يشغلني شيء ، عدا ما ذكرت ، الا القيام بتصحيح طبعة پاريس لموسيقى باخ . وان كنت أقوم بذلك لنفسي وارضاءا لضميري . واني لا أقتصر في ذلك على تصحيح الأخطاء الكتابية التي يمكن أن تكون قد وقعت في « الكليشيهات » بل أزيد على ذلك القيام بتصحيح الأخطاء التي كان يمكن أن يقوم



فردريك شوپان امام مكتبه
: بريشة چورج صاند ا

بتصحيحها باخ نفسه لو أتيحت له مراجعة هذه الطبعة • ولا أزعم لنفسي أنني أكثر منهم تفهما لباخ ، ولكن يدفعني الى ذلك اعتقادي بأن هذا هو الذي يجب أن يكون » •

وكانت « جورج صاند » تصغي بمجامع فؤادها ومشاعر نفسها الى موسيقى « شوپان » ، وهي تنطلق كل يوم مع نسمات الأصيل • وكان يعزف لها وحدها بلغة تجيد فهمها ؛ وهي التي كانت تجيد الفهم الصحيح للغة الموسيقى •

وفي الحق لقد كان لهاتين الشخصيتين أفق التقت فيه حياة كل منهما ، وامتزجت بالأخرى ؛ ولاسيما في هذه الساعات التي سمت بهما الى سماء الفن الخالد والحياة الروحية العالية التي يشرفان منها على الجمال والصفاء •

ولقد آمنت « جورج صاند » أن صديقها العبقري فنان من طراز منقطع النظير • وآمنت كذلك بأن « شوپان » انسان روحي ليس في محاسن العالم المادي ما يجتذب فؤاده اليه ، وانما كان يعيش أبدا في أحلامه ، بعيدا بروحه عن روابط هذا العالم المادية • وكان يختص آلة البيان بكل أسرار قلبه وخوالج شعوره •

وهكذا كانت أيام « نوهان » راحة واستجماما ومدرسة للتأليف والانتـاج والتصحيح والعـزف ••• حيـاة هي الحب والفن والجمال ••• ولكن شخصية « شوپان » الغنية بجميع كنوز الفن والتي تقود ركب المدنية في التقدم الموسيقي لابد أن تضيق بهـا الاقامة بالريف ، كما لا تستغني عنها عاصمة دنيا الفن والجمال •

فلتشد الرحال الى باريس •••••••

العودة إلى باريس

فى خريف عام ١٨٣٩ اعتزم « شوبان » و « جورج صاند » مغادرة قصر نوهان الريفى الجميل بعد شهور قضياها فى غبطة وسعادة وهناءة . أما اليوم فيدفعه للعودة الى باريس استئناف حياته الفنية فيها ، والتدريس لتلاميذه بها . أما هى فيدفعها الى تلك المدينة شعورها بأنها أصبحت غير قادرة وحدها على المضى فى تربية طفليها . فهى الآن فى حاجة الى من يعاونها على مواصلة تعليمهما ، فقدظهر استعداد «موريس» وميله لفن التصوير فكان لزاما أن يلتمس له فى باريس ما يشبع موهبته ويغذى استعداده . ولم تكن حاجة شقيقته « صولانج » بأقل من ذلك ، وهى فى حياتها النفسية تبدو صعبة المأخذ ، عنيدة غير سلسة القياد . وقد كلفا أصدقاءهما قبل مغادرة نوهان أن يبحثوا لهما عن مسكنين متقاربين ، وأوضح كل منهما مايجب أن يتوافر فى مسكنه .

فمما اشترطه « شوبان » ألا يكون الى جوار مسكنه حداد يفسد بالمطرقة والسندان ما ترسله أنامله على أوتار البيان . وفى جهة لا يكتنفها الدخان ولا تعمها الروائح المؤذية . وأن تكون نوافذ غرفته صوب الجنوب . وتوفر الجمال والراحة فى درج السلم .

وقد وصلتهما أنباء سارة . فقد أمكن العثور على مسكن لشوبان فى شارع ترونشيت رقم ٥ وآخر لجورج صاند

مؤلف من جنـاحين صغيرين تتوسطهما حديقـة بشارع بيجال رقم ١٦ • ولئن سر « شوبان » بهذا التوفيق . وبقرب العودة الى باريس فقد أراد قبل سفره اليها أن يستوثق من توفر مجملات مسكنه • فمن ذلك أن يكون لون أوراق الجدران أخضر داكنا أو رماديا فاتحا . وأن يكون من اللون البراق على غرار مسكنه السابق فى تلك المـدينة • وأن تكون ستائر المدخـل من اللون الرمادى ، وستائر البهو حمراء • وأن تفرش الغرف بأجود أنواع السجاد الثمينة على أن يكون نقشه خلوا من التقاسيم المتسعة ، مع توافر آلتين من البيان من مصانع « بلايل الكبرى » احداهما له والأخرى لتلاميذه • ولم ينس « شوبان » قبل مغادرة نوهان أن يفكر فى أمر هندامه ومظهر زيه • فهو بطبيعته أنيق فى ملبسه ؛ لا يرضى من جمال المظهر بما دون الكمال • لذلك فقد كتب الى صديقه « فونتانا » بباريس يقول :

« لقد فاتنى أن أرجوك أن تشترى من « ديبون » بشارع شوسيه دى أنطين قبعة ، وهو على علم بالمقياس المناسب لى • وأود أن تكون خفيفـة غير مبالغ فى شكلها لأنى لا أعلم أي الأنواع تلبسون الآن • وفى نفس الوقت أرجوك أن تمر بدوت ريمون الترزى الخاص بى فى البوليفار لتطلب اليه أن يعد لى على عجل حلتين من اللون الرمادى الداكن الذى يصلح للشتاء • على أن يكونا من نوع فخم غير مخطط ولا متعدد الألوان ••• وان دوت ريمون سيسر حين يعلم أننى قادم الى باريس • فأرجو أيضا أن تكلفه اعداد صديرى بسيط من المخمل الأسود فى تخطيط خفيف

لا يلفت الأنظار . وليكن لونا بسيطا ولكنه فاخر . فاذا لم يتوافر لديه مخمل من النوع الجيد فلا بأس بصنعه من قماش آخر يجمع بين البساطة والجمال : دون أن يبالغ فى فتحته » .

وفى الثانى والعشرين من أكتوبر رحل « شوبان » و « جورج صاند » الى باريس . ولم يكد يستقر بكل منهما المقام فى مسكنه الجديد بعيدا عن صاحبه حتى شعر كل منهما برغبته فى أن يعيش مع الآخر . ولم يكن ذلك مستغربا منهما ، فقد تلازما عاما كاملا اعتادا فيه الحياة معا ، وأصبحت الفرقة تسلبهما كثيرا من الراحة والاستقرار ، وبخاصة أن « شوبان » فى حاجة الى من يسهر على راحته : ويراقب تنظيم شئونه . فما أسرع ما غادر مسكنه الى مسكن صاحبته فأقام بالدور الأول من أحد الجناحين . وابتدأت حياتهما تسير فى مجراها الطبيعى .

ففى الصباح يبدأ موريس وصولانج فى تلقى دروسهما على أيدى مدرسيهما . بينما يقوم « شوبان » بالقاء دروسه الموسيقية على تلاميذه . وربما كان يستغرق فى الدرس الواحد ساعة كاملة ، وقد يمتد به الوقت الى ماهو أطول من ذلك . وكثيرا مايقوم الموسيقار نفسه بالعزف لتدريب تلاميذه وتوجيههم ، حتى لقد عزف لاحدى تلميذاته أربع عشرة مقطوعة من « البريلود » و « الفوج » من موسيقى « باخ » من ذاكرته وحفظه ، غير مستعين فى ذلك بقراءة التدوين (النوتة) . ولما أبدت الفتاة دهشتها واعجابها بتلك القدرة المعجزة ابتسم « شوبان » فى تواضع وقال : « ان هذا فن لا يمكن أن ينسى » .

وقــد خصصا الساعات التى بعــد الظهر لأعمالهما الفنية • وفى المساء يلتقى الجميع عند « جورج صاند » حيث يتناولون الطعام معا ، وقد يشترك معهم بعض المقربين من أصدقائهما • وكان بهو الاستقبال يبدو فى لون أبيض مشوب بسمرة خفيفة ؛ مزدانا بعدد وافر من الأصص الصينية الجميلة المليئة بأندر الأزهار وأجملها ، تجاوبا مع هواية « شوبان » وارضاء لذوقه • وقد حليت الجدران بمجموعة قيمة من الصور الفنية الرائعة •

وفى أخريات عام ١٨٣٩ قدم الى باريس الموسـيقار الألمانى «موشيليس» من لندن • وكان من أغلى أمانيه أن يتعرف الى الموسيقار البولونى الذى طبقت شهرته الآفاق ، وأصبح اسمه يموج فى القارة بعاطر الثناء على عبقريته • وقد تم لقاؤهما على خير حال فى مجلس ضمهما معا ، وتبادلا فيه دواعى الود والمجاملة التى توثقت عراها حين دعاهما الملك « لويس فيليب » الى قصره فى « سان كلو » فى التاسع والعشرين من نوفمبر لاحياء حفل فى بلاطه • وفى هذا الحفل بدأ « شوبان » يعزف أمام الأسرة المالكة احدى مقطوعاته « النوكتورن » ، تلتها مقطوعة أخرى من دراسات البيان ؛ فكان مثار الاعجاب وموضع التقدير فى فنه وفى أدائه • وبعد أن أدى زميله الألمـانى بعض المقطوعات عزفا معـا مشتركين بأربع أيد « سـوناته » لشوبان (وقيل لموتسارت) • وقد غمرهما الملك بفاخر الهدايا ، وأنعم عليهما بما يرفع مكانة فنهما •

وانه لمن آيات العبقرية أن تفرض شخصية « شوبان » نفسها فرضا على كل من يصادفها أو يتصل بها ولو لأمد قصير • وهكذا

يضيف « موشيليس » اسمه الى قائمة المعترفين بعظمة هذا الفنان اذ يقول فى رسالة له الى قرينته :

« ان مظهر « شوبان » يساير موسيقاه فى توافق وانسجام ؛ فكلاهما رقيق وعاطفى . لقد عزف أمامى استجابة لرغبتى . والآن فقط أستطيع أن أدرك كنه موسيقاه ، وأن أفسر هيام الجنس اللطيف بعزفه ... وما كنت أحسب ، ولا أظن أحدا يعتقد ، أن « شوبان » الفياض بأعمق الاحساسات يتمتع فى شمائله بجانب فكاهى . فقد رأيته نشطا مرحا حلو الدعابة يحسن التقليد والمحاكاة . فقد مثل « پكسيس » و « لست » وثالثا أحدب » .

ولعل القارىء لا ينسى ما ألمعنا اليه من أن استعداد « شوبان » فى القدرة على التقليد والمحاكاة يرجع الى عهد الطفولة والحياة المدرسية الأولى . ولم تفارقه هذه الهواية حتى فى عهد رجولته واقامته فى باريس . ولا أدل على ذلك مما كتبه أيضا زميله المدرس القديم جوزيف نوڤاكفسكى (Joseph Nowakowski) فقد قال :

« عندما زرت « شوبان » فى باريس رجوته أن يقوم لى بالتعارف الى « كالكبرنر » و « لست » و « پكسيس » . وسرعان ما أجابنى « شوبان » بقوله لست فى مسيس الحاجة الى مثل هذا الجهد . انتظر قليلا ، سأعرضهم عليك واحدا واحدا . ثم أخذ « شوبان » مجلسه من البيان منتحلا جلسة « لست » وطريقة عزفه ، وقد غير ملامح وجهه ليقنعنى أنه « لست » بعينه . وثنى بتقليد « پكسيس » ، ثم « كالكبرنر » . وفى الليلة التالية قصدت مع

« شوبان » الى المسرح . ولما أخذت مكانى من المقصورة غادرنى لوقت قصير . وتلفت فاذا « پكسيس » جالس الى جانبى . فاستولى علىّ الضحك ، وأخذت أربت على كتفه فى غير تكلف ، اعتقادا منى أنه « شوبان » . وقلت له كفى تقليدا . فأخذ جارى يحملق فى وجهى وقد أخذته الدهشة ، وتلفت الى هذا الذى يمازحه على غير معرفة سابقة ، وهو لا يدرى ماذا يقول لى . وشاءت العناية أن تنقذنى فأقبل « شوبان » مسرعا الىّ ، وقد ضحك من أعماق قلبه أمام هذا الخطأ الذى جعلنى فى موقف لا أحسد عليه . على أنه استطاع بلباقة أن يخرجنى من هذا المأزق ويسوى المشكلة فى رقة وأدب » .

وقد كان الموسيقار « لست » يتمتع بصداقة وثيقة العرى مع « شوبان » . ولم تؤثر فيها عوامل المنافسة وحب التفرد بالشهرة والصيت البعيد ، مما يحدث غالبا بين أبناء المهنة الواحدة . بل كانا فوق كل اعتبار فنانين متآخيين يقدر كل منهما عبقرية زميله ويعجب بفنه . ولم يكن « لست » ينقم على « شوبان » قيامه فى المجتمعات بتقليد حركاته وعزفه وملامحه ، بل على النقيض كان يستقبل ذلك كله بسرور ومرح . وقد يروعك أن تعلم أن أمر التآلف والتوافق بينهما كاد يجعل من شخصيهما شخصا واحدا . وانظر الى التواضع الذى يذهب فيه الاخلاص كل مذهب وتنمحى من طريقه الأثرة وحب الذات . وحدث مرة فى أحد المجتمعات أن طلب الى « شوبان » أن يعزف بالبيان . ولما أخذ مكانه تبين أن تلك الآلة تنقصها مفاتيح القدمين (البدال) ، واعتذرت ربة المنزل

بأنها قد بعثت بها للاصلاح . فنهض « لست » فى الحال وقال لشوبان : قم أنت بالعزف وسأجلس عند قدميك لأقوم بوظيفة هذه المفاتيح أثناء عزفك . وقد قام بذلك فعلا ، فدل على سمو روح الفنان وحسن تواضعه .

ومهما كانت الصداقة تجمع بينهما بأوثق رباط وأقوى صلة من المودة ، فان « شوبان » لم يكن يقبل التسامح مع صديقه اذا كان ذلك على حساب فنه .

طلب مرة الى « لست » فى أحد المجتمعات أن يقوم بالعزف . فنهض ليؤدى احدى مقطوعات « شوبان » . وأخذ يفتن فيها ويزيد عليها . فما لبث « شوبان » أن بدت عليه أمارات القلق وعدم الرضا . حتى اذا تمادى به الأمر وضاق ذرعا ، قام الى صاحبه وقال له : أرجوك أيها الصديق العزيز اذا قمت بعزف احدى مقطوعاتى تكريما لى أن تؤديها كما كتبتها أو أن تعزف شيئا آخر . فقال « لست » : اذا كان الأمر كذلك فلتجلس ولتعزف أنت بنفسك . قال « شوبان » : حبا وكرامة . ولما أخذ مكانه من البيان تصادف أن حامت فراشة فأطفأت أحد المصابيح . ولما هموا باشعاله ثانية قال « شوبان » : كلا بل أطفئوا هذه المصابيح كلها ويكفينى ضوء القمر . وكان له ما أراد . ثم مضى « شوبان » يعزف من مبتكراته ساعة كاملة ، فكان فى موسيقاه نورا يفوق تلك الأنوار المطفأة ، وكانت سحرا عجيبا يأخذ بمجامع القلوب . ولقد ترك المستمعين اليه مذهولين ، ونقلهم من هذه الأرض ومادتها الى عالم شفاف علوى ، كله فتنة وجمال . وبعد نهاية



فردريك شوپان ، حوالى عام ١٨٤٠

العزف أقبل عليه « لست » يضمه الى صدره والدموع تترقرق فى عينيه وهو يقول : أى والله ياصديقى ، انك لعلى حق ، ان آثار عبقرية كعبقريتك يجب ألا تمس ، وأقل تعديل فيها يسىء اليها ، انك لشاعر حقيقى » ، فأجابه « شوبان » فى ثقة العالم وتواضع الفنان ووفاء الصديق : « ليس الأمر كذلك ، وانما لكل منا طريقته الفنية فأنت تعلم ، كما نعلم علم اليقين ، أن ليس فى هذا العالم كله من له مثل مقدرتك على عزف موسيقى « بيتهوفن » أو « ويبر » ، ولهذا فانى أرغب اليك فى أن تسمعنا جزء الأداچيو من سوناتة دو دييز مينير لبيتهوفن » وقد أجاب « لست » صديقه الى رغبته وقام بعزف ما أراد ،

ولقد كان استدعاء الملك « لويس فيليب » لشوبان للعزف مع الموسيقار « موشيليس » فى بلاطه من بواعث همته ومن الحوافز التى ضاعفت نشاطه ، وحملته على بذل الجهود تلو الجهود فى زيادة انتاجه ، وانماء ثروة ابتكاره ، مما جعل السنوات الأولى من عودته الى باريس جديرة بأن تضاف الى أنبه صحائف عظمته ، وأن تحتسب فى قمة مجده ، ففى عام ١٨٤٠ ظهر له الكثير من مؤلفاته الموسيقية ، نخص من بينها مقطوعة « البالاد » الثانية وقطعة « سكرزو » الثالثة ، و « سوناته سى بيمول مينير » ، وهذه الأخيرة قد فازت بأكبر نصيب من الاطراء والتمجيد ، وهى التى قال الشاعر « هاينى » عند سماعها : « ان شوبان هو رفائيل البيان » ،

وفى السادس والعشرين من ابريل عام ١٨٤١ أحيى « شوبان »

حفلا فى صالة « پلايل » ندع وصفه للموسيقار « لست » فقد نشر فى جريدة « الغازيت موزيكال » الباريسية أن الجمهور كان يتألف من سيدات الطبقة الراقية وشبان بلغوا غاية الاناقة وفنانين يشار اليهم بالبنان ومن لا يمكن حصرهم من أثرياء ونبلاء ، والجميع يتزاحمون على الجلوس فى أقرب مكان للعزف • ثم قال :

« ان شهرة شوبان الذائعة لم يصبها أى فتور خلال مرضه . ولقد توقف النقد تماما وكأن أصحابه قد انتقلوا الى عالم آخر . وقد أنس الجمهور الى رؤيته فاستقبله كأن لم يكن قد تغيب عنه . وجميع الألسنة رطبة بالثناء » •

وبعد عشرة شهور من موعد ذلك الحفل أقام « شوبان » حفلا آخر فى باريس فى نفس الصالة الأولى ، وقد أفاضت أقلام الكتاب عليه بآيات التمجيد • واحتوى البرنامج أحدث مؤلفات « شوبان » وهى مقطوعة « البالاد » الثالثة ، و « بريلود » رى بيمول وابتكارات صول بيمول ماچير • وتلا ذلك غناء من ڤياردو جارشيا (Viardot Garcia) ثم عزف بالكمان الجهير (الفيولنسل) من « فرانخوم » الموسيقار البارع •

وكان حفل عام ١٨٤١ هو الحفل الأول بعد مضى تسع سنوات لم يظهر فيها « شوبان » فى الحفلات العامة • وقد عاد بعد الحفل الثانى الى احتجابه ، فهو على ما بيناه لا يميل بطبيعته الى عرض موسيقاه بنفسه على الجماهير • انما يحس بميله الى العزف على البيان حين تدفعه رغبة الجماعات فى المجالس الخاصة التى يجد

فى أفرادها الثقافة العالية والتقــدير السليم • يقول « برليوز » فى ذلك :

« ان الشيء الوحيد الذى كان يدفع « شوبان » الى البيان هو وجود دائرة صغيرة من المستمعين المنتخبين الذين يلمس فيهم الرغبة الأكيــدة والشوق الملح الى استماعه • واذن فأي عجب كنت تسمع !!! » •

أما مقطوعة « البالاد » الثالثة فقد كانت وصــفا موسيقيا لأسطورة « المرأة السويسرية » • وتتلخص فى أن صيادا التقى بفتاة فى احدى الغابات فأحبها وعاهدها على ألا ينظر الى فتاة سواها • فقبلت منه هذا الحب . ومضت فى سبيلها • وعند عودته الى بيته قريبا من البحيرات السويسرية رأى على حافة الماء فتاة أخرى اجتذبت نظره اليها بجمالها وفتنتها ؛ فقصد اليها ؛ واذا هى فتاته الأولى التى عاهدها على الاخلاص لهــا • انها جنية هــذه البحيرة • وقد عاقبته على خيانته ، فاجتذبته الى القاع وأخذت روحــه تولول مــع طيور الشاطىء ؛ بينما أخــذت هى ترقص على الماء •

أما مقطوعة « البالاد » الرابعة فتصور اسطورة « بودرى » وموجزها أن بطريقا لتوانيا أرسل أبناءه الى العالم باحثين عن حظهم بعد أن زودهم بطرق ثلاثة أوضحها لهم : أولها الانخراط فى سلك الجيش للذهاب فى صحبة القائد الذى يهاجم الروس والرجوع بغنــائم السيوف • وثانيها الذهــاب فى صحبة القوة المهاجمة

للألمان ، والعودة بغنائم الثياب والكهرمان . وثالثها ركوب الجواد الى بولونيا للحصول على شيء من ثروتها ممثلا فى شخص امرأة . وقد اجتذب الطريق الثالث هؤلاء الأبناء الثلاثة فذهبوا جميعا الى الخارج : وعاد كل بقرينة بولونية .

هذا اللون من القصص الخيالى أو الوجدانى هو ما يمكن أن يفهم من لغة الموسيقى . وان الهاتف بها والمرسل لأنغامها قد آمن برسالته الفنية وبقدرته فيها على الافصاح والتعبير بما تعجز عنه الكلمات والجمل والحروف . على أن الناس يختلفون فى الفهم وطريقة تفسير الجمل الموسيقية واستيعاب المعانى الروحية فيها . فالموسيقى تمنح الجميع تعبيرا صادقا مكنون العواطف وخفى المشاعر ، وتصف للأحياء قصص الحياة كلها على تباين صورها وتعدد ألوانها . ومن ميزات فضلها أنها لغة غير محدودة ولا مقيدة بالمساحات ، ولا خاضعة لرسوم القواميس . لذلك ينفسح فيها مجال التعبير المرن . وكأنها تخاطب كل فرد على حدة وتناجيه بقصة لا تناجى بها الآخر . ومن اعجازها ارتباط حوادثها وانطباقها على حقائق الوجود ، وتقلبات الدهر ، وتغير الناس والزمان . ولكل أن يقول فى نفسه : انها تخاطبنى وحدى ولو كانت هذه الأنغام ألفاظا وحروفا لكشفت عن مكنون صدرى للناس .

هكذا كانت موسيقى « شوبان » تتحدث فى كل مقطوعة بقصة تختلف عليها الأفهام ، وان كانت تلتقى عند معنى واحد هو صدق الاعراب عن مجموعة معينة من الأحاسيس والمشاعر التى جعلته فى عداد أقطاب الفن الخالدين .

انقطع « شوبان » عن الحفلات العامة . وأقبل على التدريس حرصا على اذاعة رسالته وتثبيتها نقشا على صدور تلاميذه الذين كثر اقبالهم عليه بقدر عظم شهرته وعلو مكانته وذيوع قيمة مؤلفاته . وكان يستشعر المتعة والسرور فى اختيار تلاميذه واختبارهم وطول الأناة معهم ، على غير ما كان عليه أنداده من عظماء الفن كبيتهوفن وموتسارت وغيرهما ممن كانوا يضنون بأوقاتهم أن تضيع بين حوار التلاميذ واعداد الدروس . وما كان لهم أن يتقبلوا مهنة التدريس الا لكسب القوت ، لا عن استخفاف بالمهنة . ولكن عبقريتهم ملكت عليهم فراغ الزمن وزاحمتهم حتى لم تدع لهم سبيلا الى الراحة والهدوء . فان أقبل « شوبان » على التعليم بنفس راضية فانما هى صناعة والده تركزت فى فطرته منذ نعومة أظفاره . وكان شرط « شوبان » على تلاميذه الاجتهاد وتوافر الاستعداد . ولهم عليه لطف المعاملة وحسن التوجيه . وقد استمر ذلك الى العهد الأخير حين وهنت أعصابه وضاق صدره الرحب فأصبح قليل الاحتمال سريع التأثر لأيسر الأمور . فكان ينفد احتماله ؛ ويضيق صدره ؛ وتثور ثائرته على الطالب الذى لا يسايره فى سرعة الفهم . وكان أحيانا يقذف بأوراق التدوين والحامل معا ؛ وحينئذ تقوى يده الضعيفة على تحطيم الأقلام بل المقاعد واسماعه نابى الألفاظ ومرها . ثم يعقب هذا الغضب الهائج دموع تترقرق فى عينيه ؛ رحمة بتلميذه ، وعطفا عليه ، وتعبيرا عن الندم والأسف . وكان أول ما يوجه اليه تلميذه أن ينقله الى أسلوبه فى رقة العزف ولين التوقيع على مفاتيح البيان . فاذا اشتد طالب فى عزفه انتهره

غاضبا . وربما قال له : لكأنى أسمع ذئبا يعوى أو ثورا يخور . وكان لا يقبل التدريس لأحد مالم يكن قد قطع فى دراسته الموسيقية ومهارة الأداء مرحلة غير قصيرة . وكان فى أول ما يبدأ به العناية باستقلال الأصابع والاهتمام بعزف السلالم والتمرينات المبنية عليها . وكان لشوبان تلاميذ ينتمون الى مختلف الجاليات المقيمة فى باريس ؛ ومن بينهم عدد غير قليل من مواطنيه البولونيين .

وقد اعتزم « شوبان » أن يسجل كل خبرته وما اكتسبه من المران فى العزف ؛ ومن تجاريبه خلال تلك السنوات التى كان فيها مؤلفا وعازفا ومعلما ومصححا ، وذلك بوضع كتاب يجمع شتات هذه النواحى ، على أن يكون خير موجه ومرشد للبادىء والمنتهى وللمعلم والمتعلم على السواء . وقد بدأ محاولته بكتابة بعض فصول من هذا المؤلف قبل مرضه ، ولكن شاءت الأقدار أن يحرم العالم هذا المصنف فقد مزق « شوبان » ماكتبه قبل موته بوقت قصير .

ولكن اذا كان « شوبان » لم يتم له تأليف ما أراد فقد قال كلمة هى شعار كل تأليف صادق لأسلوب العزف وقيمة الأداء السليم ... كلمة كأنها لحن خالد ... بل هى اللحن الخالد فى كلمة ... « اعزف كما تشعر وسيكون عزفك اذن جيدا » . وكان « شوبان » اذا استمع الى تلميذ يعزف بمهارة قال له : « لا ينقصك اذن الا أن تضع روحك فى فنك » .

وتحدث مرة عن أحد تلاميذه فى لهجة الآسف فقال انه عنى

الرغم من وفرة اجتهاده ، وأنه لا يسأم مواصلة الدرس ، ورغم تحليه بكثير من الصفات التى تجعل منه فنانا ممتازا فانه ينقصه أهم الخصائص التى تعده لبلوغ هذه المنزلة . أعنى فقدان قدرة التعبير عن الشعور .

وكان اذا استمع الى أحد تلاميذه الفرنسيين وقد أجاد احدى مقطوعاته البولونية بمايثير استحسان الجميع قال انه حسن حقا لولا أنه تنقصه الروح البولونية .

وان « شوبان » لعلى حق ، فان هذه المقطوعات البولونيه من تأليفه كان طابعها البولونى يشق على غيره التعبير عنه والوصول الى صميم روحه وعميق تأثيره ...

وهؤلاء هم الأقطاب الثلاثة « لست » و « هيللر » و « شوبان » ضمهم مجلس فى قصر النبيل « پلاتر » وخاضوا فى أحاديثهم الفنية ، حتى انتهى بهم المطاف الى « القومية فى الموسيقى » . فقرر « شوبان » أنه من العسير على انسان مالم يولد فى بولونيا ، ولم يتنسم هواء مروجها ، ولم تبهره خضرة حقولها ، ولم يلمس قلبه شعور أهلها ، أن يؤدى الأداء الصادق لأغانيها . فانعقد اجماع الحاضرين على أن يتبارى الثلاثة فى أداء احدى مقطوعات « شوبان » وهى « المازوركة » المسماة « ان بولونيا لم تخذل بعد » ، ليتبينوا مدى الصواب فيما ذهب اليه . فبدأ « لست » بعزفها كاملة . وقام على أثره « هيللر » وأداها أيضا . فكان كل منهما مخالفا فى عزفه طريقة صاحبه وأسلوبه . ثم نهض « شوبان » وأدى

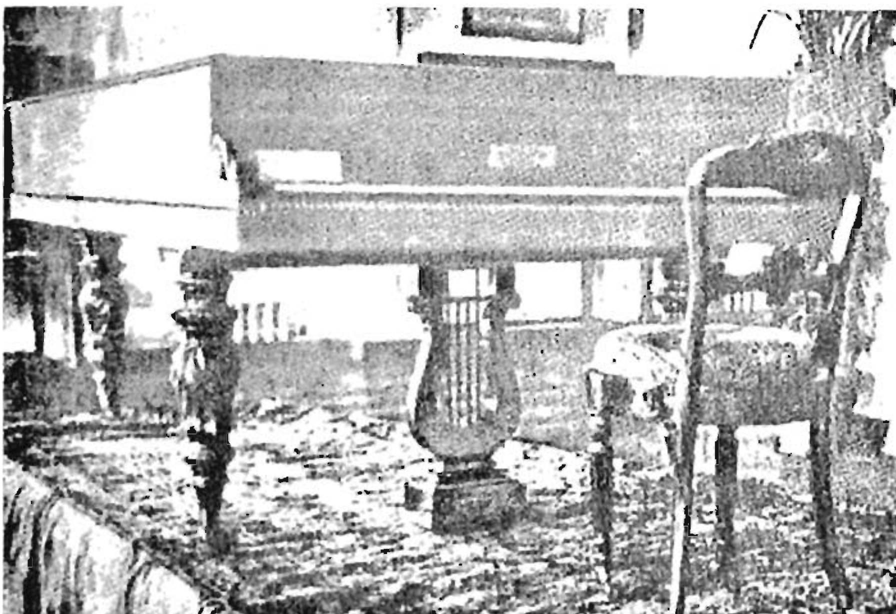
المقطوعة بالروح التى يؤمن بها والتى ألهمها يوم تصنيفها . فما كاد ينتهى من عزفها حتى أقبل عليه زميلاه مقرين بأنهما كانا بعيدين غاية البعد عن روح هذه المقطوعة وأنه ليس فى مقدورهما التعبير عنها .

ولئن كان المقدرون لموسيقى « شوبان » يتزايدون كثرة على ممر الأعوام فانهم لا يزالون على قلة نسبية . وأقل من هذا القليل من يستطيع أن يؤدى موسيقاه كما ينبغى أن تؤدى وكما يجب أن تكون .

وكان لشوبان خصائص يمتاز بها أسلوبه فى العزف ؛ وصفات يتفرد بها دون سواه . فمن ذلك أن تظل يده اليسرى محافظة فى هدوء على الايقاع المنتظم بينما تتحرك يده اليمنى فى حرية وانطلاق كما يشاء ، سرعة وابطاء ، على أن تتلاقى اليمنى مع اليسرى فى سرعة وخفة حركة . فكان ما يسلبه من زمن احدى العلامات الموسيقية يمنحه للتى تليها بحيث يستوفيان معا زمنهما المقدر . وكان عدم ارتباطه والتزامه بقيود زمن الايقاع يجعل لعزفه تأثيرا بالغا وميزة فنية غير مشارك فيها . وكان يصنع هذا بخاصة فى « المازوركة » و « النوكتورن » فيخيل لك أن اللحن قارب يطفو على صفحة ماء البحر الخضم .

ويقول لست : « ان شوبان كان أول من أقدم على هذا الأسلوب فى أداء مصنفاته بما أكسبه لونا خاصا فى التعبير » .

وهكذا كان يجتهد « شوبان » فى أن يلقن هذا الأسلوب لتلاميذه ولاسيما مواطنيه البولونيين منهم .



بيان فردريك شوپان ؛ محفوظ بمتحف وارسو .

واذا كان الحظ لم يسعدنا بأداء « شوبان » فى تسجيلات من الأشرطة أو الاسطوانات ، واذا لم يكن قد أدركه عصر التسجيل ، مما يجعل من غير اليسير على موسيقى معاصر امكان محاكاة أسلوبه وبلوغ القمة فى تفهم روحه . فانه لما يقرب الى هذه الغاية الاستماع الى موسيقى « شوبان » فى التسجيلات التى قام بها أساطين الموسيقيين الذين تشربوا مدرسته . وتوفروا على دراسة مذهبه ، ورسخت أقدامهم فى ادراك مراميه . ولعلهم أقرب من سواهم الى الرواية والنقل عمن عاصروا « شوبان » واستمعوا اليه ، فهم بذلك أقرب تمثيلا وأصدق تصويرا للموسيقى والأداء عند شوبان .

كان فناننا العبقرى يؤثر العزف بطراز معين من آلة البيان ومن مصانع خاصة يفضلها على سواها . فكان اذا دعى الى المجتمعات الراقية فى بعض الليالى أرسل اليها بيانا من النوع الذى يؤثره اذا تبين عدم توافره فى مكان هذا الحفل .

وكان الفن فى نظر « شوبان » هبة سماوية طاهرة : يترفع بها عن أن تكون وسيلة لجمع الثروة الضخمة . ولم تكن الموسيقى عنده بقرة حلوبا ولكنها كانت فى نظره ابنة السماء . فما أجدرها بأن ترتفع على المادة وتتنزه عن الأغراض .

لقد رفض أن يقبل تعليم أبناء الأثرياء ممن كل مميزاتهم المال مع خلوهم من الموهبة الفنية والاستعداد الفطرى . وعجيب منه أن يصنع ذلك بنفسه ويرفض الثروة وقد ارتمت على أعتابه

ملتمسة رضاه : على الرغم من أنه لم يعد يتلقى من أبويه معونة مالية منذ عهد بعيد ، وبالرغم من ضرورته الى الانفاق فى حياة كان يميل فيها الى البذخ والاسراف ، وقد كان مضيافا سخيا يزاحم النبلاء والأثرياء فى اقامة الولائم والحفلات . وهذا الذى كان يرفض الثروة من الأغنياء غير ذوى الاستعداد كان يضع نفسه وفنه رهنا لخدمة الموهوبين ولو كانوا فقراء ، حتى لقد يمد بعضهم بالكتب والمقطوعات الموسيقية وبالنقود أحيانا . لهذا كان موضع حبهم واجلالهم واحترامهم . ولم يكن الأمر بينه وبينهم دروسا تحفظ وأجورا تدفع ، بل كانت صلة روحية وثيقة تجعله دائب الاهتمام بشئونهم والحرص على مستقبلهم.

لم يكن « شـوبان » يستكثر من عدد تلاميذه فلم يزيدوا فى الأغلب على أربعة أو خمسة فى وقت واحد ، ليتمكن من القيام بالأمانة فى تعليمهم والتفرغ لتوجيههم ، وليحقق فى انتاجه ما هو الأحسن والأصلح لا ماهو الأكثر والأكبر .

ولقد يأخذك العجب حين تعلم أن كثيرين وكثيرين رغبوا فى أن يحصلوا ولو على مجرد الانتماء الى تلمذته بصفة فخرية على أن يقدموا من النفقات ما يرضيه دون أن يكلف نفسه عناء التدريس لهم . وقد رفض فى اباء الفنان الكريم أن يتقبل هذه العروض على حساب شهرته ، وأن يخون أمانة الفن الخالد من أجل مادة زائلة .

وقد زاد على هذه الصفات الأدبية العليا ما امتاز به من الاخلاص لفنه والعطف على طلبته ، فلم يعتذر اليهم عن مواصلة الدرس حين

تزايدت به العلة وألح عليه المرض . فلو أنك رأيته فى أحد هذه الدروس ، رأيت « شوبان » العظيم مضطجعا على أريكة وأمامه آلة بيان غير التى أمام تلميذه أو تلميذته . فاذا استمع الى توقيع خاطىء أو أداء لم يحز رضاه نهض فأدى ذلك الموضع بعينه من اللحن على ما يجب أن يكون ، ثم عاد الى اضطجاعه ...

هـذه هى الأخـلاق فى الموسيقى ، وتلك هو الموسـيقى فى الأخلاق . فمن لنا بالفنان الذى تكون أخلاقه أنغاما وأنغامه صفات عالية وسجايا فاضلة !!!

بداية النهاية

فى هذه المرحلة من حياة « شوبان » كان الأطباء قد نصحوا له بالتحفظ لصحته وأن يحيى حياة منتظمة . وقد شق عليه أن يعمل بنصح الأطباء كما شق عليه من قبل أن يأخذ بهذه النصيحة يوم قدمتها اليه أسرة خطيبته « ماريا » عربونا للزوجية المنشودة . وأنى له أن ينظم حياته فى باريس الصاخبة المليئة بمجتمعات هو روحها ومتعتها ، والتى كان يملؤها بساحر فنه الى ساعات متأخرة من الليل . فلم يكن بد مما ليس منه بد ...

هذه هى أعراض ذات الرئة التى بدت طلائعها تظهر منذ عام ١٨٤٠ أخذت تشتد عليه يوما فى اثر يوم مما جعل هذا العام فى حياته عام البداية فى أفول النجم الساطع ، وذبول الزهرة اليانعة . ومن ثم أخذ الفنان العظيم يشكو شدة الأرق الذى سبب له الكثير من النوبات العصبية واتيابه بالأوهام المحزنة . وأصبح خطر المرض هذه المرة أمرا واقعيا لا يختلف عليه طبيبان . وكان « شوبان » قد اعتاد أن يقضى صيف كل عام فى قصر « نوهان » فيجد فى سكونه ترفيها من عبء الشتاء المضنى فى باريس . كما كان يلقى فيه الراحة الكاملة والجو الصافى والطبيعة الهادئة بما يخفف عنه ثقل الداء العضال ويشرح صدره لمعاودة التأليف .

وفى عام ١٨٤٢ فجع بوفاة صديقه چان ماتوسرينسكى

وهو من أصدقاء طفولته وزملاء صباه الأقربين . وقد قضى نحبه فى باريس متأثرا بذات الرئة . وكان لفقده رنة حزن فى قلب « شوبان » وأثر عميق فى نفسه .

وأبى القدر الا أن يضاعف همه ، ويتبع المصيبة بأخرى أشد منها . فقد تمت الفجيعة الكبرى بوفاة والده المحبوب ، فاستل الموت بذلك أعز الناس عليه وأحبهم اليه . وكانت وفاته بوارسو فى الثامن من مايو عام ١٨٤٤ . وقد وقع هـذا النبأ على الفنان المريض موقع الصاعقة . وكان أبلغ ما يحز فى نفسه أنه لم يستطع توديع والده الوداع الأخير .

على أنه لم يتمكن حتى من الكتابة الى والدته الحزينة وشقيقاته المنكوبات ليمزج دمعه بدموعهم ، ويعزى بألمه آلامهن لفقد أحب رجل اليه واليهن . فلقد كانت الكارثة من الحسرة والأسى بما لم يقو معه على الكتابة فيها ؛ سيما وهو المريض الذى اجتمع عليه مرض يهدم جسمه ورزء يحطم قلبه . فاحتملت « جورج صاند » هذا العبء وقامت بهذا الواجب عنه . فكتبت هى الى والدته رسالة تعزية فى فقد قرينها الراحل .

وقد بلغت الفاجعتان فى الصديق والوالد من نفس « شوبان » ما لا يحتمله الوصف من مرارة اللوعة ، وفداحة الخطب ، حتى تضاعفت به العلة وزاد ما كان ينتابه من الوساوس والأوهام . وقد ذكرت « جورج صاند » أن شبحى الفقيدين كانا يلازمانه حيثما توجه وأينما سار ؛ الى جانب ما كان يتمثله من الصور الرهيبة

والأرواح المفزعة والأوهام المريبة فى يقظته ومنامه . وكثيرا ما كانت تضطرها هذه الحالة الأليمة الى ملازمته لتطرد هذه الأشباح عنه وترد اليه سكينته واطمئنانه .

وما زالت العلة تزداد عنفا وسوءا من شهر الى آخر ، وهو يتعرض فى كل وقت لنوبات السعال الحاد بما هدّ من كيانه وأضعفه من بنيانه .

وحتى فى هذه الفترة القاسية المريرة لم تخنه عبقريته فأنتج فيها من آثاره الفنية الخالدة « الپولونيز مصنف رقم ٥٣ » . وأنشودة « مصنف رقم ٥٧ » . وسوناته سى منير « مصنف رقم ٥٨ » . ومقطوعات مازوركة « مصنفا ٥٩ ، ٦٣ » ومقطوعة باركارولا « مصنف رقم ٦٠ » . وپولونيز فانتازى « مصنف رقم ٦١ » . وسوناتة صول مينير للبيان والكمان الجهير (الڤيولنسل) « مصنف رقم ٦٥ » .

وهذه المقطوعات وان كانت فياضة بأروع جمال موسيقى ، وأسمى خيال شاعرى ، فى ابداع نادر ، وتصور ساحر ، فهى مليئة بالحزن العميق ، والشعور الجريح ، اللذين كان الفنان يعانى آلامهما .

وقد بدا لجورج صاند أن تدعو شقيقته الكبرى « لويزا » الى نوهان فلعل فى قربها منه ما يخفف عنه قليلا مما يعانيه . وكان « شوبان » يشك فى النتيجة التى ترجوها ، ولكنها صممت على تنفيذ فكرتها . وبعثت بدعوة رقيقة تدعو بها شقيقته وزوجها تستقدمهما الى نوهان . ومن هذه الرسالة قولها :

« وانك ستجدين طفلى العزيز مريضا جدا ، وقد تبدلت حاله • ولكن لا تنزعجى كثيرا على صحته ، فان حالته العامة لم تتغير فى هذه السنوات الست الماضية التى كنت أتعهده خلالها يوميا • فهو كل صباح ينتابه سعال حاد • ويتعرض لنوبتين أو ثلاث فى كل شتاء تستغرق كل واحدة منها يومين أو ثلاثة • ويساوره مرض عصبى من حين الى حين » •

وقد ختمت رسالتها هذه بالترحيب بقدومها ، وبأنها متفائلة بتقدم صحته اذا ما رآها الى جانبه •

وقد لبت شقيقته هذه الدعوة : وقدمت الى نوهان يصحبها زوجها ، فتحقق أمل « جورج صاند » من تقدم صحة « شوبان » وتحسن حالته النفسية ، وأصبح فى قدرته مواجهة الحياة مرة أخرى • وقد عادت شقيقته وقرينها بعد أن قضيا الى جانبه شهر أغسطس بأكمله • وبلغ من تحسن صحة «شوبان» أن كتبت «جورج صاند » الى شقيقته بعد رحيلها تقول لها : « اننى أؤكد لك أنك خير طبيب زاره حتى الآن » •

ثم ألحت عليه العلة حتى أصبح ميئوسا من شفائه • وعلى رغم ما كان يملأ نفسه من أدب الفنان وسمو ذوقه مما كان يحمله على أن يلح على « جورج صاند » راجيا ألا تتقيد به فى حياتها ، وألا تحرم نفسها المتعة بمشاهدة المسارح وحضور المجتمعات ، فقد صبرت على ملازمته عاما بعد عام • ولكن ما كان لها أخيرا الا أن تحس ثقل العبء فى القيام على مريض طالت علته ، وأصبح

ليله غير مرجو الصباح . ولئن كانت « جورج صاند » قد أحبت الفنان وهو فى نضارة شبابه ، وفى أوج عظمته الفنية ، وفى جمال صحته المشرق فانها اليوم خليقة أن تفقد الدوافع النفسية والحوافز العاطفية مما أنهك من قواها ، وأمال ركن احتمالها . ولعلها أفصحت بحضرة المريض عن شىء من تبرمها ، فكان مريرا ، وأمرُّ من المرض نفسه أن يحس الفنان المريض مثل هذا التبرم وهو الذى تغنيه الاشارة عن العبارة .

وهذه البذور البغيضة التى بدأت تنمو فى صدر «جورج صاند» كانت تتجاوب معها بذور تنمو فى صدر آخر ، هى أشد أثرا ، وأمر ثمرا ، وربما كانت هى الحد الفاصل فى الموضوع كله . ذلك أن ولدها « موريس » أصبح يافعا يدرك ما يجرى حوله من شئون الحياة فيحكم لها وعليها . ولئن راقه فى فجر صباه أن يرى والدته سعيدة فى حياتها مع « شوبان » الفنان العظيم الذى طبقت شهرته الآفاق ، وقد كان خليقا اذ ذاك أن يشعر نحوه بمحبة واجلال فان الأمر بعد رحلة مايورقة أخذ يتبدل رويدا رويدا ، وانجابت الغشاوة التى كانت تحجب عينيه عن شبح الحقيقة المجردة . فقد آن له أن يرى فى « شوبان » رجلا أجنبيا ، لا تربطهم به صلة من قرابة ، ولا وشيجة من وطن . وانما هو لاجىء ، مريض ، طالت علته ، كما طالت اقامته . وكان مما أثار الحفيظة ، وأجج نار الحقد غيرته المتوقدة التى ما تكاد تهدأ حتى يوقظها ما كان يراد من تعلق أمه بهذا الغريب . وعظمى المصاب فى نظره أن يرى ذلك الغريب يحتل هذا الوضع الشاذ من أسرة لا يمت اليها

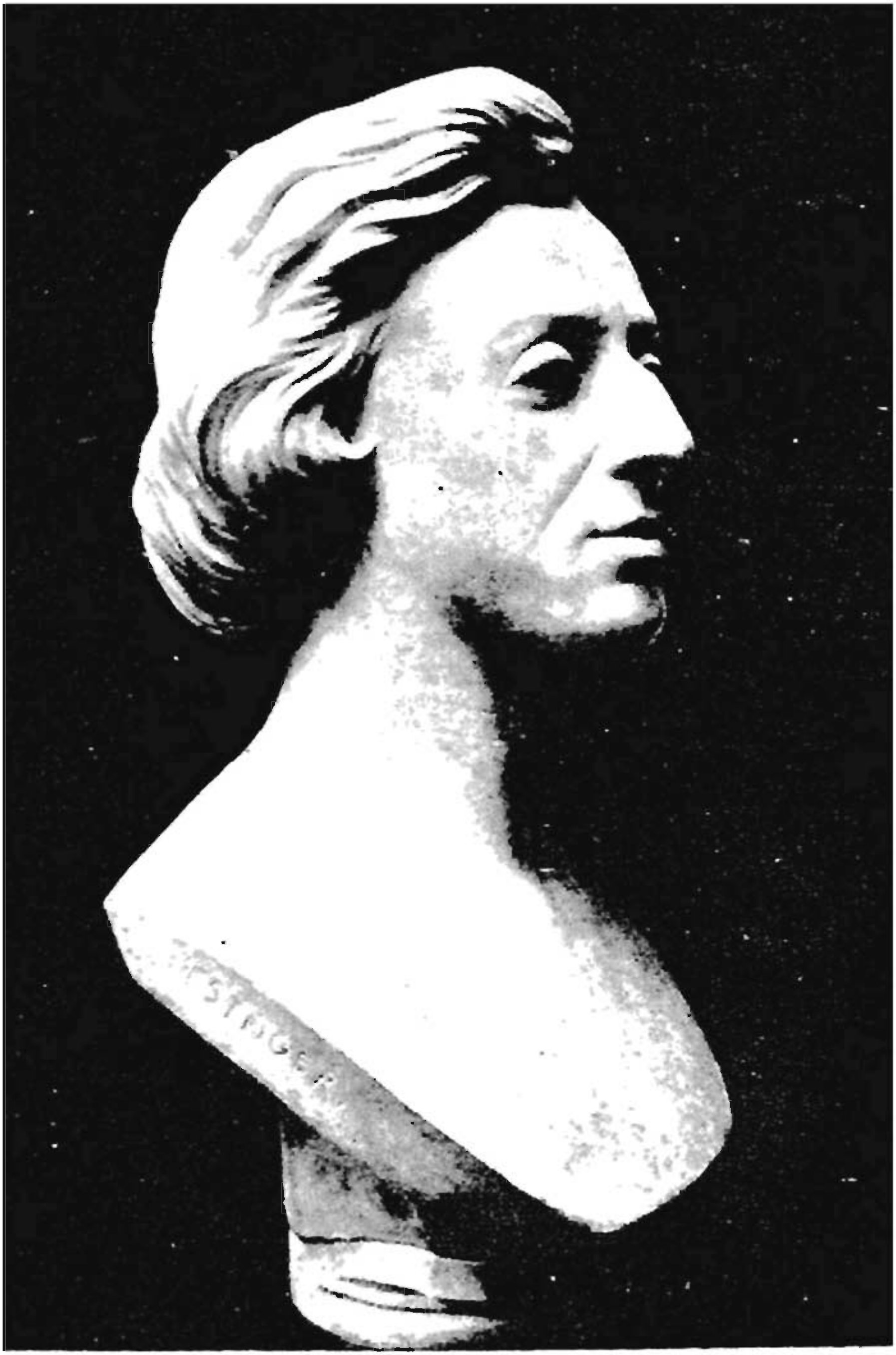
بصلة ، ويحتل مركز الوالد ، ويتمتع مع الأسرة بقصره وثروته ، بعد أن خرج عنهما لزوجه وطفليه . ثم ان « موريس » هذا كان يحز فى صدره أن يتردد على أبيه من حين الى حين فيرى فيه الوالد الطريد المستبعد ، كما يرى أنه هو نفسه أصبح يتيما فى حياة أبيه ... تلك العوامل كلها غيرت من نظرته الى « شوبان » فلم يعد يرى فى مملكة عبقريته الا شخصا ضئيلا ، أصبح عبئا ثقيلا .

وبينما هذه البغضاء يشتعل أوارها فى صدر « موريس » اذا بالعوامل المتلاحقة تسرع فى اذكائها فمن ذاك أن « جورج صاند » استقدمت اليها فى نوهان احدى قريباتها ، وكانت فتاة متوسطة الحال تدعى « أوجستينا » ، وذلك لتقيم معها . وكانت بارعة الجمال ، أنيقة المظهر ، ففتن بها « موريس » . وكانت شقيقته « صولانج » دائمة الخصومة معه فى كل ما هو من شأن الذوق . فأنكرت عليه ميله الى هذه الفتاة وعابت ذوقه واختياره . وحاولت اكتساب « شوبان » الى صفها فلم تخفق ، وهى الحسناء اللعوب التى بلغت الآن تسعة عشر عاما وهو سن الفتنة والاغراء . يضاف الى ذلك ما امتازت به شخصيتها من دلال ساحر وجمال فاتن . وقد كان هو يتولى تدريس الموسيقى لها . ومن الناحية الأخرى استطاع « موريس » أن يستميل والدته الى جانبه . تلك التى زاد على فتور علاقتها مع « شوبان » غيرتها عليه من ابنتها الحسناء الفتية التى أصبحت أقرب الى قلبه منها . فانقسمت الأسرة فى أهوائها وميولها الى معسكرين ، كانت الخصومة بينهما فى كل ما يعرض لهما من ألوان الحياة على نحو ما وصفنا .

وكان احدى آثار تلك الحرب الضروس بين المعسكرين فى تلك الأسرة أن « شوبان » كان له فى قصر نوهان خادم يدعى « چون » هو البولونى الوحيد الذى يقوم على خدمته ، ويسمع منه لغة أمته ؛ فأخذ « موريس » فى مضايقته وأغرى جميع الخدم به . واضطر « شوبان » الى فصله من خدمته : أحوج ما يكون اليه : وهو مواطنه المخلص النشيط . وكانت هذه على بساطتها احدى الصدمات العنيفة التى زادت من جراح « شوبان » .

وكل هذه العوامل متجمعة أضيف اليها عامل تاريخى وفنى أفاد منه الأدب والفن بقدر ماكانت الخسارة فيه عظيمة لشوبان . وذلك أن « جورج صاند » وضعت أمرها بين يدى الجمهور فى قصة عنيفة مؤثرة أطلقت عليها اسم «لوكريزيا فلوريانى Lucrezia Floriani» وقد رأينا من الخير أن نشرك القارىء معنا فى متعة هذه القصة التى كانت من أمس صحائف التاريخ بحياة « شوبان » والتى كانت من أهم العوامل فى فصم عروة الاتصال بينه وبين « جورج صاند » . ثم أصبحت هذه القصة بعد ذلك مثار الجدل والتأويل ، والأخذ والرد ، بما جعل التعليق عليها قصة أخرى . ونورد اجمالها فيما يلى :

« الأمير شارل رجل نبيل جذاب ، ارستقراطى المظهر ، ولكنه مريض حاد المزاج شديد الغيرة . لقد شغف بحب « لوكريزيا » وأغرم بها . على أنها لم تعد فى سن الفتاة المشرقة ، وانما هى امرأة عافت الدنيا وعافت الحب ، وأصبحت لا تعيش الا من أجل أطفالها . ثم تطور شغف الأمير « شارل » واستحال الى ما يشبه المرض الذى يهدد حياته . لقد أنقذته « لوكريزيا » وبذلت فى سبيله تضحية



فردريك شوپان (عمل كليزنجر

كانت تضاعفها كلما تزايد الخطر المحدق به . وقد عاشت بعض الوقت فى نشوة هذا الحب هانئة بسعادة لا توصف . وسرعان ما تغير وجه الأمور . وأصبح « شارل » كثير الغيرة عليها فى غير عدالة ، متقلب المزاج فى حدة وسرعة . ولم يعد يطيق رؤية نفر الأصدقاء الذين اعتادوا التردد على تلك السيدة المشهورة . وكثيرا ما تصيبه من أجل ذلك نوبات من الغضب والعصبية واليأس . وها هى « لوكريزيا » تتعذب من هذه الصور ، ويتعبها تكرارها ، فتخور قواها ، وتتأثر صحتها . ولكنها لا تبوح بالشكوى لأحد ، فقد عاهدت نفسها أن تضحى فى سبيل سعادة شارل . وهى تقدر تماما أن استمرار هذه الحال سيقتلها لا محالة ، ويترك أطفالها من بعدها يتامى . ولكنها رغم كل ما تتوقعه من الفواجع ماضية فى اخلاصها ووفائها ... وتنقضى السنوات على جحيم هذه الحياة المريرة وهى معذبة فى سبيل شارل . وقد فقدت جميع أصدقائها ارضاء لغيرته . كما أنها فقدت حبها له منذ أمد بعيد . وما لبثت أن تخاذلت قواها تخاذلا متواصــلا أسلمها للموت ، فقضت نحبها شهيدة آلامها » .

وليس من العسير ، حتى على قارىء عادى ، أن يدرك عند أول استعراض لحوادث هذه القصة أن بطلتها « لوكريزيا » لم تكن غير مؤلفتها « جورج صاند » نفسها . وأن « شارل » لم يكن الا « شوبان » ، وأن الكاتبة لم تصنع غير ما يصنعه كل من يختفى وراء الألفاظ والأسماء ، ليبين بلسان غيره عما قد يخجله الافصاح عنه بلسانه . وهكذا اتخذت هذا الأسلوب العادى لبعض الكتاب

لتفصح عن موقعها من « شوبان » . وبلغ من امعان « جورج صاند » وولدها فى القسوة على « شوبان » وتكدير صفوه أن « موريس » كان كثيرا ما يحمل اليه تجارب طبع هذه القصة بزعم تصحيحها . وكان يصارحه فى ايلام وايجاع بأن والدته انما تذكر فى قصتها « شارل » وهى تعنى « شوبان » .

وعلى الرغم من أن هذه القصة تنهض دليلا على القسوة والعنف ؛ والجحود المستتر وراء اسم التضحية ، وهى تنطق بما قصد منها ؛ وأن الجمهور الذى قرأها لم تخف عليه حقائق الأشخاص المتوارية وراء هذه الأسماء ، كما لم يغب عنه فهم ماورد فيها من الفضائل المفتعلة من تضحية ونبل ووفاء مما أطلق لسان الجميع بذمها والسخط عليها ... على الرغم من ذلك كله فان « جورج صاند » حاولت بكل قواها انكار هذا التفسير فى قصتها ؛ وأنها ليست تصويرا لعلاقتها بشوبان ، مستدلة على ذلك بأن « شارل » الذى اختارته بطل قصتها لم يكن فنانا انما هو أمير محدود الادراك وليس عبقريا كشوبان العظيم . وليست له رقة هذا الفنان الملائكى ؛ فوجه التشابه بينهما مفقود . وتحتج « جورج صاند » كذلك بأن « شوبان » كان يقرأ كل يوم أصول هذه القصة ولم يدر بخلده أنه المعنى بها . وانما الحساد والحاقدون من أصدقائهما هم الذين أخرجوا له القصة على هذا النحو ؛ فأوغروا صدره ؛ واستغلوا ضعف ذاكرته الذى سببه المرض ، حتى صدق ما فسروه له من وقائع القصة . ولو أنه أعاد قراءتها لأيقن أنه ليس هو المعنى بها .

ولئن كان أحد يحاول أن يقنع نفسه بصدق اللهجة التى اعتذرت بها « جورج صاند » فليس من الناس من يستطيع الاقتناع بأن قصتها اشتملت على موضوع مناسب ؛ أو أنها اختارت له الوقت الملائم . ولم تخيرت ولدها « موريس » بالذات ليقدم اليه أصول القصة لتصحيحها مع ما سجلته فى رسائلها من أن علاقة ولدها هذا بشوبان أصبحت من السوء فوق ما يحتمل ؛ ثم هو مريض عليل ... وما شأن « شوبان » البولونى بقصة أدب فرنسى !!!...
انها لقصة أساءت فى الواقع الى جميع ما يمكن أن تكون قد قدمته « جورج صاند » من جميل المعاشرة وحسن الصحبة الى شوبان . وليس لمن صنع خيرا أن يقول انى صنعت الخير ...

ومن معاذير « موريس » وقد يكون محقا فيها ؛ أن هذا الفنان المحب يضع والدته موضع السخرية بغيرته عليها وهى سيدة تجاوزت الثالثة والأربعين من السن . وقد جارت « جورج صاند » ولدها فيما ذهب اليه فى تصوره هذا وقد كتبت عن « شوبان » فى لهجة جمعت السخرية والامتهان حين تقول : انه أصبح شديد الغيرة عليها لا من الرجال وحدهم بل من النساء أيضا وحتى من العجائز والأطفال مما جعل الأمر فوق أن يحتمل ، وأنه كان يصنع ذلك أمام ولديها وأمام الخدم وغيرهم ممن ينظر الى هذه المشاهد المضحكة التى لا تتفق مع سنها ولا تلائم وقارها .

وفى ضجيج هذه الحوادث المتلاحمة التى تتلاطم كالأمواج ، وتقرب يوم انفصال « شوبان » و « جورج صاند » خطبت قريبتها ونزيلة قصرها « أوجستينا » الى « تيودو روسو » أحد أصدقاء

« موريس » الذى رضى عن هذه الخطبة وباركها ، على رغم ما كان بينه وبينها من علاقة كانت مصدر انقسام هذه الأسرة الى معسكرين • وكانت شقيقته « صولانج » قد تزوجت قبيل ذلك من النحات « كليزنجر » وصحبته فى زيارة الى نوهان • وما كادت تعلم نبأ هذه الخطبة حتى استيقظت كراهيتها القديمة لأوجستينا . فاتصلت بخطيبها ، وأبلغته ما كان بين شقيقها وخطيبته من صلة وعلاقة • وكانت نتيجة ذلك أن انفصمت عروة هذه الخطبة •

أما « جورج صاند » فقد ضاقت ذرعا ، وتميزت غيظا من ابنتها ، كما تضايق « موريس » من فعلتها وقد فوتت عليه فرصة التخلص من هذه العلاقة المبهمة • ووقعت على اثر ذلك حوادث دامية فى هذه الأسرة التى سرعان ما انقلب سعدها نحسا ونعيمها بؤسا • ومن ذلك أن حدث شجار عنيف ، تجاوز ما يليق بمثل هذه الأسرة الى ما يقع بين رعاع الناس وسوقتهم • وهكذا دارت المعركة بين « صولانج » وزوجها فى جانب ، و « جورج صاند » وولدها فى الجانب الآخر • وبلغ الأمر بالفريقين أن رفع زوج « صولانج » مطرقة ليهوى بها على رأس « موريس » • فألقت « جورج صاند » بنفسها بين الخصمين فأصيبت بضربة قوية فى صدرها • وأجاب « موريس » على ذلك بتصويب مسدسه الى خصمه « كليزنجر » وكاد يصيب منه مقتلا لولا تدخل الخدم وبعض من شهدوا هذه الموقعة • وقد أسرعت « صولانج » بالكتابة الى « شوبان » فى باريس تصف له هذا الشجار وتستميله الى صفها • وكان لها ما أرادت • فتوقف « شوبان » نتيجة لذلك

عن الكتابة الى « جورج صاند » مدة غير قصيرة . ولما كتب اليها أجابته برسالة تأنيب له وسخرية بخطابه . وقد أدرك « شوبان » أن هذه الرسالة هى النهاية الأخيرة والضربة الفاصلة التى انقطع بها ما كان بينهما من صلة ومودة حتى الأبد . فقد رد على رسالتها تلك بجملة قصيرة : « سأغادر منزلك فى الحال وليس لك عندى بعد ذلك وجود » .

ولقد بر « شوبان » بما أخذ به نفسه فهجر منزلها الى غير عودة . أما هى فقد كان جوابها أن لا جواب ...

وهكذا هجر « شوبان » منزلها فى أحد أيام يوليه عام ١٨٤٧ وسواء أكان على خطأ أم على صواب فلقد أثر هذا الانفصال فى نفسه أعمق تأثير ، فانه بعد عشر سنوات قضاها فى ظلها ، وهو يركن اليها ركون الطفل الى الأم الرءوم ، ويعتمد على بيتها اعتماده على أسرته ، فوجىء اليوم بمواجهة طور جديد من حياته لا قبل له به ، وبفاجعة عاطفية تنوء بها قدرته واصطباره . وقد غدت حالته الصحية تزيد همه وتضاعف بؤسه وتضعف مقاومته . وكان أبلغ وصف قيل فى هذا الصدد : « انه خرج من بيت جورج صاند ليستقبل نعشه » ...

أفول النجم

من آيات العبقرية ومعجزاتها وفضائلها أنها لا تخذل صاحبها ، حتى فى ساعات محنته الأليمة . بل ربما كانت تلك الساعات من بواعث أضوائها وعوامل اثارتها . وهكذا كان الشأن مع « شوبان » فلم تخذله عبقريته وهو يرزح تحت أعباء المحن الجسمية فى تلك السنوات الأخيرة . وربما كانت تلك الأيام هى التى أمدته بروح نقية لاخراج أبدع المؤلفات وأروع المبتكرات .

لقد كان « شوبان » ينفس عن صدره المحزون وآلامه المكبوتة حين يترجم عن مشاعره ويجليها بثمار هذه العبقرية . وبقدر ما أفاد العالم واقتبس التاريخ من هذه الثروة الفنية الطائلة ، فقد كان لتلك الثمار كثير من الفضل عليه وجميل الأثر عنده فيما خففت عنه من الضائقة الروحية والغربة عن الأهل والوطن . ففى عامى ١٨٤٦ ، ١٨٤٧ أخرج ثلاث مقطوعات مازوركة « مصنف رقم ٥٩ » ومقطوعة بولونيز فانتازى « مصنف رقم ٦١ » ومقطوعتى نوكتون « مصنف رقم ٦٣ » وثلاثا أخر من نوع الفالس « مصنف رقم ٦٤ » وأخيرا سوناتة للكمان الجهير (الفيولنسل) والبيان ، وكان ذلك آخر ما طبع له فى حياته . وقلما أتيح له أن يتم مقطوعة بدأها بعد أن هجر « جورج صاند » .

ثم توالى ضعف صحته واطراد علته حتى لم يعد يقوى على



فردريك شوبان في عام ١٨٤٧

صعود درج السلم الا بمشقة وألم . وفى صيف عام ١٨٤٧ تحسنت صحته قليلا . وما لبث أن دهمه الشتاء التالى ؛ فعاودته العلة ولكنه استطاع أن يستجمع قواه ليقيم آخر حفل له فى باريس . بصالة « بلايل » فى السادس عشر من فبراير عام ١٨٤٨ . وعلى الرغم من فداحة قيمة تذاكر هذا الحفل فلم يكن لأحد سبيل الى الحصول عليها الا بكبير وساطة وعظيم نفوذ . ولقد أظهر « شوبان » فى هذا الحفل براعة استولى بها على ألباب السامعين . وكان همّ كل فرد من أولئك الألوف أن يتاح له التعبير للفنان عن مدى اجلاله لعظمة فنه وسحر موسيقاه . وبين يدينا من وثائق هذا الحفل ما نشرته صحيفة « غازيت موزيكال » حيث قالت :

« وفضلا عن ازدحام المقاعد بطبقة السيدات الأرستقراطيات ؛ فقد اشتمل الحفل كذلك على أرقى طبقة من الفنانين والهواة الذين توافدوا مسرعين اليه لينعموا بهذه السعادة النادرة . ولكن أي نجاح وأي سحر وأية عبقرية معجزة !!! انه لمن الميسور أن نصف شيئا مما لقيه الفنان من الترحيب البالغ والاعجاب الفائق وعظيم تأثر الجمهور بسحر الموسيقى . ولكن لن يكون سهلا على أحد مهما بلغ من قدرة التعبير أن يأتى بوصف أو تحليل لفن هذا العبقرى . فكل ما يمكن أن يقال عنه انه لايعرف له نظير فى هذا العالم الأرضى » .

وهذه المظاهر التكريمية من شعب باريس على اختلاف طبقاته كانت أنجع بلسم لجراح « شوبان » الدامية التى استهدف لها بتلك المدينة فى السنوات الأخيرة .

وبعد انقضاء أسبوع على تاريخ هذا الحفل اندلع لهيب الثورة فى فرنسا ، وكان من نتائجها تنازل الملك « لويس فيليب » عن عرشه فى الثانى والعشرين من شهر فبراير • ومن غريب المصادفات أن تتفق بالتحديد مدة حكم هذا الملك مع مدة اقامة « شوبان » فى باريس • وكأنما شاء القدر أن يتنازل ملكان عن عرشهما بها فى وقت واحد • هذا عن عرش ملكه وذاك عن عرش فنه • فقد نصح الأصدقاء لشوبان بمغادرة باريس طلبا للراحة والاستجمام ، كما أن تلميذته « چين ستيرلنج » وهى موسيقية موهوبة من أثرياء الطبقة الراقية فى اسكتلندا قد أشارت عليه بالسفر الى انجلترا راجية له أن يجد بها ما يهون من شدته ويخفف من علته • فأذعن لنصيحتها واعتزم السفر الى تلك البلاد •

وقبل موعد السفر بنحو شهر أقبلت اليه سيدة كان كثيرا ما يلبى دعوتها ويحضر مجتمعاتها قبل اعتلال صحته ، ورغبت اليه فى رجاء ملح أن يزور قصرها ذلك المساء • وقد أبى قبول الدعوة فى بداية الأمر ، اذ كان قد تعود فى السنوات الأخيرة الانقطاع عن أمثال هذه المجتمعات • ولكنه أمام الالحاح العنيف والرغبة المتكررة لم ير بدا من تلبيتها •

وضاق المكان بالمدعوين قبل حضور « شوبان » فلم يكن لهم من حديث سوى هذا العبقرى الذى شغل بسحر فنه الأوساط كلها • ونهضت احدى المدعوات تشرح فى افاضة واسهاب فضل موسيقى « شوبان » على قلم « چورج صاند » مبينة كيف كانت ابتكاراته وابداعاته الهاما لها فى مؤلفاتها • وكانت بالقصر سيدة

قد خلت الى نفسها فى غرفة جانبية . وهى بمسمع من أحاديث المدعوين دون أن يتبينها أحد • لقد علت وجهها حمرة ملتهبة ؛ وثار فيها انفعال نفسى ؛ وترقرق الدمع فى عينيها عندما سمعت حكم المرأة على المرأة •

وبعد أن قدم « شوبان » وانتظم عقد المدعوين ؛ وأخذوا يتنقلون على ألوان من الحديث ؛ وساد المكان هرج ومرج ؛ غادرت السيدة المختبئة غرفتها ، ولم يكن يفطن اليها أحد غير صاحبة القصر • ومشت فى خطوات وئيدة متعثرة قاصدة الى « شوبان » • وهمست باسمه همسة لم يسمعها سواه : « فردريك » • فالتفت الفنان اليها ليرى من تكون هذه التى تناجيه باسمه الصميم • اى والله انها « جورج صاند » بعينها تقف الى جانبه محاولة فى ندم أن تستغفره • فصوب اليها الفنان نظرات باهتة صادرة عن جسم رقيق ضامر ؛ وروح سماوية عالية • وبعد أن مرت لحظة رهيبة كانت خلالها تنتظر حكمه عليها ، نأى بجانبه عنها وغادر الجمع فى صمت وسكون •••

وفى الحادى والعشرين من ابريل ومن ذلك العام نفسه غادر « شوبان » باريس بعد توديع حار من أصدقائه وتلاميذه ، حتى اذا وصل الى لندن كانت اقامته بها فى شارع دوفر • وكانت شهرته قد سبقته الى تلك البلاد وقد أعجبت المجتمعات والهيئات بمؤلفاته ؛ وأغرموا بالاستماع الى ألحانه • لذا كان يتمتع فى كل مكان بأوفى نصيب من التكريم والتبجيل • وقد رحب به زملاؤه من أعلام الموسيقى فى انجلترا ممن سبق لهم معرفته والاستماع اليه

فى باريس من أمثال أوسبورن (Osborne) وبينيدكت (Benedict) وسلوبر (Sloper) وبرنلى ريشاردس (Brinley Richards) وغيرهم • وعن هذا الطريق الفنى اتصل بالمجتمع مرة أخرى ، وقام بمزاولة العزف على البيـــان • وكان له من غرامه بالموسيقى وتفانيه فيها ما يشغله عن « جورج صاند » التى ما يزال يذكرها ويحن اليها رغم ما سببت له من الكوارث النفسية والآلام القلبيـــة ، فلم تكن « جورج صـــاند » بالشخصية العـــادية بل كانت ذات عقليـــة جبـــارة ، وتفكير بعيد ، وخيال ليس له مـــدى ينتهى اليـــه • ولم لا يذكرها وقد أذاقته فى ظل حنانها أياما سعيدة قلما يعرف المرء لها نظيرا الا فى القصص والأحلام • فلم يكن فى استطاعته أن يطوى فؤاده على نسيان تلك السعادة وجحودها ، وان كان عقله قد حـــكم له بأن تلك المرأة لا تستحق من أنفاسه المحترقة زفرة واحدة •

وكان يقيم فى لندن اذ ذاك جاليـــة بولونية من المهـــاجرين والمستبعدين السياسيين ، ومن بينهم ذوو مكانات وأقدار • وما كاد أولئك البولونيون يعلمون بوجود مواطنهم العبقرى بين ظهرانيهم حتى أجمعوا على تكريمه ، وأقاموا لذلك حفلا شائقا اشترك فيه مايربى على الأربعين بولونيا من ذوى المكانة وكبار الشخصيات • وبعد أن خلعوا عليـــه حلل التكريم من روائع الخطب وآيات البيان فى تمجيد فنه والاشادة بوطنيته نهض « شوبان » ووجه اليهم هذه الكلمة :

« مواطنى الأحباء !!! ان ما وجهتم الىّ من كلمات العطف



فردريك شوپان : صورة زيتية بمتحف اللوفر بباريس

والحب قد أثر فى قلبى تأثيرا عميقا يفوق مدى كل تعبير . وكم كان بودى أن أؤدى بدورى واجب الشكر اليكم بأسلوب الخطابة الساحر الذى طرب له سمعى ، الا أن استعدادى فى ذلك لا يسعفنى لأعبر عما يجيش بصدرى من الأحاسيس . لذلك فانى أدعوكم الى مسكنى المتواضع فلعلى أستطيع أن أعبر لكم عن شكرى على أوتار البيان » .

ولقد استقبل الجميع هذه الدعوة بعاصفة من الرضا . وتبعوه على الأثر ... وعلى الرغم من أن « شوبان » كان مجهدا فى ذلك اليوم ، وقد أثرت فيه الانفعالات المتتابعة فقد استجمع قواه كلها وعزف ، ثم عزف . وكلما أوشك على الانتهاء ألح عليه الجميع فى معاودة البدء . ومازال على هذه الحال حتى الثانية بعد منتصف الليل .

وقد كان لأنغام مقطوعات « المازوركة » و « البالاد » و « البولونيز » و « الابتكارات » التى صيغت ألحانها فى طابع بولونى ، وتصوير آلام وآمال وطنية قومية ... كل ذلك كان له أبلغ الأثر فى نفوسهم حتى أحس أولئك المبعدون عن أوطانهم منذ سبعة عشر عاما فى تلك الأنغام ذكريات الوطن المحبوب . وكأن موسيقى « شوبان » نقلت اليهم الوطن كله مصورا فى ألحان ونغمات .

وفى مناسبة أخرى قامت احدى النبيلات بتقديم « شوبان » الى الملكة فيكتوريا فعزف فى بلاطها ونال الاعجاب الذى جعل صالونات الأشراف والنبلاء تتلقفه وتتبارى فى دعوته لاقامة حفلاتهم الخاصة .

على أننا فى مقام البحث العلمى لانرى مندوحة من الاشارة الى رأى « شوبان » وحكمه على مـدى موسيقية من لقيهم من أبناء هـذا الشعب • فمن ذلك ماكتبـه الى أسرته فى أغسطس عام ١٨٤٨ على أثر اختلافه الى هذه الحفلات قال :

« بعد حفلة المساء كتب الكثير من الصحف نقدا طيبا عنى عدا جريدة التيمس فقد نشر فيها المـدعو « دافيسون » رأيه فى شخصى وهو أننى صورة رديئة من « مندلسون » • ولعله تخيل أو قيل له اننى خصم منافس لمندلسون » •

وكتب الفنان أيضا الى صديقه جرزيمالا يقول :

« ان سيدة ثرية من فضليات السيدات قضيت فى قصرها بضعة أيام ، وتعد هنا موسيقية عظيمة • وقد حدث أن أمسكت ذات يوم بآلة كبرية (موسيقى اليـد) فأخـذت تعزف عليها فى وقار متزايد أقبح النغمات • وانه ليخيل لى أن كل مخلوق هنا به مس من الجنون • فهذه سيدة أخرى عرضت علىّ مجموعة من الصور التى تحتفظ بها ، وأرادت أن تبرهن لى على عظيم قيمتها فقالت ان جلالة الملكة قد نظرت الى هذه المجموعة وأنا الى جانبها • وقالت لى ثالثة انها ابنة العمة الثالثة عشرة لماريا ستيوارت • وغنت لى رابعة أغنية كانت مزيجا فى ألحانهـا من الانجليزية والفرنسية بمصاحبة البيان ، وهى تقسم لى وتبالغ فى تأكيدها أنهـا أغنية انجليزية صميمة • ثم انظر الى أميرة « بارما » وهى تخبرنى فى اعتزاز أن احدى السيدات أدت بصفير فمها مقطوعة بمصاحبة

القيثـارة • أما رأي هؤلاء الذين زعموا أنهم يعرفون مؤلفاتي فقد تقدمت الي احداهن قائلة : أرجو أن تعزف لي تنهداتك الثانية فاني أحب الأجراس التي فيها • وكل ثنائهم وغاية ملاحظاتهم تنتهي بتشبيه موسيقاي بالماء • وكل تعليق على أية مقطوعة بعد عزفها يعقبون عليه بقولهم « مثل الماء » ؛ يعنون بذلك أن النغمات تنساب هينة مثل الماء • فما عزفت أمام سيدة انجليزية الا كان هذا المـاء آية اعجابهـا وغاية حـكمها • انه شعب غريب الأطوار • ساعده الله » •

ولقد أثر على صحته طول السهر المتواصل وما كان يقيمه من حفلات يقضي فيها الوقت الطويل الى ما بعد منتصف الليل • وزاد ذلك في علته حتى أصيب بأرق شديد • ولما ساءت صحته نصحت له تلميذته « چين ستيرلنج » بالسفر الى أسرتها باسكتلندا ليستجم بها • وقد سـافر اليها بعد أن وجهت اليه الأسرة دعوة لزيارتهـا • وقبل سفره ببضعة أيام بعث برسـالة الى صديقـه « جرزيمالا » جاء فيها :

« لن أكون أكثر حزنا بعد اليوم مما أعانيه الآن فقد فقدت السعادة الحقيقية منذ زمن طويل ، انني لا أكاد أحس شيئا من الوجود حولي ، وأعيش على مرير الصبر ، انتظارا للنهـاية المحتومة • وسأسافر في الأسبوع القادم الى اسكتلندا حيث أنزل بها ضيفا على اللورد « توربشين » صهر صديقتي الآنسة « چين ستيرلنج » • لقد عفت حياة التنقل من مجتمع الى غيره ومن حفل الى سواه • واني لا أطيق بقائي متنقلا من مكان الى آخر شـأن الموسيقي

المتجول . لقد أصبحت أمقت هذه الفوضى فى المعيشة التى لاتقوى صحتى على احتمالهـا . وقد اعتزمت البقاء فى اسكتلندا الى التاسع والعشرين من أغسطس حيث أعود بعدها الى منشستر فأشترك فى حفل عام بها ، على أن أنفرد فيه بالعزف مرتين دون مصاحبة الفرقة . وسأتقاضى عن ذلك ستين جنيها » .

وكان لمناخ سكتلندا الرطب تأثير أساء الى صحته . كما أن الضباب المتراكم دون انقطاع فى أرجائها سبب له انقباضا روحيا ، وأيقظ فى نفسه أفكارا قاتمة وأشباحا مظلمة من نوع ما أقض مضجعه فى السنوات الغابرة . وقد تجلى أثر هذا الوجوم والانقباض فيما أخرجه من مؤلفات خلال هـذه الفترة . وكانت اقامته مع اللورد « توربشين » فى جهة نائية عن العمران . وقد كتب منها رسالة الى « جرزيمالا » يقول :

« انك لا ترى هنا بريدا ، ولا سكة حديدية ، ولا عربة حتى للنزهـة ، ولا تجد قاربا ، ولا تسمع نباح كلب . كل شىء هنا جدب مقفر » .

ولما عاد من رحلته الى لندن أخذت حالته الصحية تزداد انحدارا حتى كتب رسالة منها فى منتصف أكتوبر قال فى مطلعها :

« منذ وصولى الى لندن قضيت ثمانية عشر يوما تنتابنى نوبة قاسية من الزكام الحاد ، مصحوبة بألم فى الرأس ، وعسر فى التنفس ، مع مالايمكن وصفه من أعراض سيئة . والطبيب الذى يزورنى يوميا سمح لى بالأمس أن أشترك فى الحفل البولونى . وبعـد القيام

بدورى فيه أسرعت بالعودة الى المنزل • ولكن الليل مضى دون أن تغتمض عيناى • فمع ما أشكوه من السعال أصابنى ضيق فى التنفس وألم شديد فى الرأس ••• » •

ولم تكن لشوبان طاقة بمقاومة الحياة فى هذه البلاد أكثر مما أقام بها ، فاعتزم العودة الى باريس فى أوائل عام ١٨٤٩ وقد بلغت حالته الصحية أسوأ ما يمكن أن تصل اليه • ولكن مما يثير العجب فى ذلك هو أن « شوبان » المريض العليل الذى تمادى به الأسقام وتلح عليه الأدواء لا يزال هو الفنان الأنيق الذى لا يقبل أن يعود الى باريس قبل أن يصدر تعليماته بشأن اعداد مسكنه بها ؛ على نحو ماكان يصنع وهو فى نضارة الصبا والشباب • وهاهو يكتب لصديقه فى ذلك يقول :

« اطلب الى « پلايل » أن يرسل الى بيانا كبيرا فى مساء الخميس • وأفهمه أن يغطيه بمفرش • وتول أنت شراء باقة من زهر البنفسج حتى تجعل أريج البهو عطرا • انى أريد أن أملأ جو حجراتى شعرا ؛ وألا يفارقنى الجمال فى غرفة نومى التى يخالجنى شعور عميق بأننى عما قريب سأنام فيها طويلا » •

وعندما عاد الى باريس ألزمته حالته الصحية التخلى عما كان يقوم به من دروس لتلاميذه ، وهى التى تكون الجزء الأهم من ايراده •

وفى بداية صيف هذا العام انتقل من مسكنه فى « ميدان أورليان » الى مسكن آخر من الدور الثانى بشارع « دى شايو »

وهو فى موقع أنيق يطل على منظر من مناظر باريس الجميلة .

ولما كان دخله فى هذا العام الأليم لا ينهض بأعباء نفقاته فقد كان أصدقاؤه بررة أوفياء فتعاونوا على تغطية هذه النفقات دون علم منه . وما كادت تلميذته « چين ستيرلنج » تعلم مقدار ماوصلت اليه حالته المالية من السوء حتى أرسلت الى أصدقائه مبلغ عشرين ألف فرنك لسداد العجز فى نفقاته مشترطة عليهم ألا يظهروه على شىء من ذلك ، محافظة على شعوره أن يجرح وروحه أن تتألم ؛ فحسبه مابه من آلام ممضة وسقام مضنية . وكذلك كانت احدى النبيلات البولونيات تقوم بسداد نصف أجر المسكن الذى لم يكن يعلم مقداره على حقيقته .

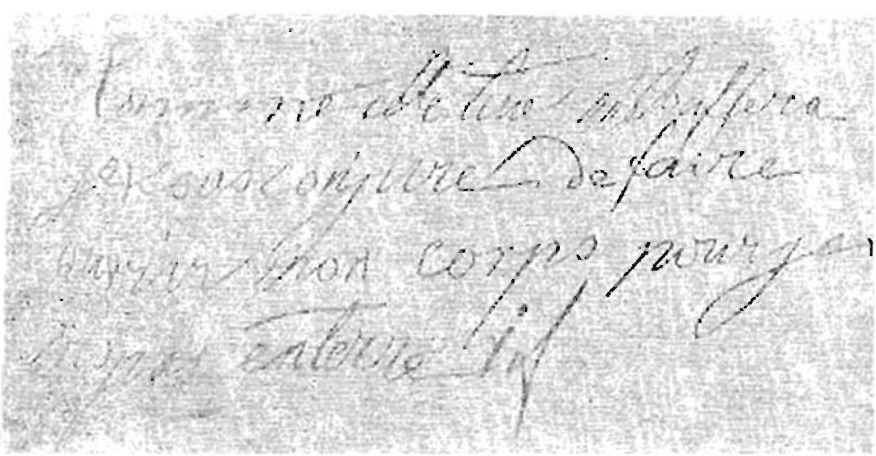
وحدث أن توفى فجأة الدكتور « مولين » طبيب « شوبان » الذى طالما سهر على علته ، وكان يرجع اليه الفضل فى تخفيف وطأة المرض عنــه وتهوين خطره عليــه طوال تلك السنين فكان لوفاته فى نفس « شوبان » أثر زاد آلامه وضاعف أسقامه .

واستحكمت أزمتــه النفسية وعلتــه الجسدية حتى لم يكن يستطيع التنقل من مكان الى آخر دون معاونة أصدقائه . وكان أكثرهم ملازمة وأصدقهم معاونة للفنان تلميذه « جوتمان » فقد كان فى ساعديه القويين ملاذ الرحمة والحنان لأستاذه « شوبان » ؛ الذى كان يجد راحته فى ألا يتعب تلميذه تخفيفا عنه واشفاقا عليه فقد كان دائم السؤال عنه فى كل لحظة .

وأحس الفنان وهو على فراش مرضه فى شهر يونيه الهاما خفيا



ید فردریك شوپان



آخر ماخطته انامل شوپان

يدفعه الى الكتابة لشقيقته الكبرى « لويزا » يطلب اليها سرعة الحضور ، فهو يشعر بأنها خير طبيب له . وقد كانت عند حسن ظن شقيقها فقدمت اليه مع قرينها وابنتها . وقد وجدت أن أسوأ ما كانت تخشاه هو الذي حدث بالفعل ؛ وأن انحلال صحة شقيقها خلال هذا الصيف أخذ فى التزايد ، فانهارت قواه ولم يعد يقوى على عزف أو تأليف .

ولم تدعه الصدمات النفسية حتى فى هذه المرحلة الأليمة فقد اتصل به أن صديقه « تيتوس » يعتزم الحضور الى حمامات « أوستند » ولكنه لايستطيع دخول باريس لكونه بولونيا مالم تسمح له السفارة الروسية فى تلك المدينة بذلك . ولما لم تفعل حاول « شوبان » أن ينتقل هو ليري صديقه وزميله القديم ، فحال الأطباء دون ذلك . فكتب اليه فى العشرين من أغسطس يبلغه تألمه لحرمانه من رؤيته ، وان كان لا يزال يرجو أن تذلل العقبات فيراه فى باريس . وختم تلك الرسالة بقوله :

« أنافى غرفتى أشرب الماء المعدنى ، ولكنى أعتقد أن وجودك الى جانبى أجدى علىّ من جميع هذه العقاقير .

صديقك حتى الموت

فردريك »

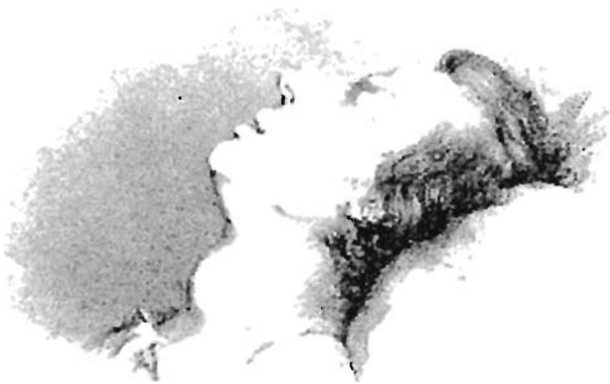
وقد بذلت محاولات فى أن يلتقى الصديقان ولكنها باءت بالفشل . وشاءت الأقدار أن يحرم « شوبان » حتى من توديع أوفى أصدقائه وأقربهم الى قلبه .

ثم ألحت العلة ، وتزايدت ، وتمادت حتى أعجزته عن النهوض الا بمساعدة شقيقته « لويزا » وتلميذه « جوتمان » • وكذلك سطرت الأقدار فى سجل الوفاء أسماء نفر من أصدقائه الخلصاء من بينهم النبيلة شارتورسكا (Czartoryska) وتلميذته اليزا چاڤار (Elise Gavard) وشقيقها « شارل چاڤار » الذى أخذ على عاتقه مداومة الحضور الى الفنان حيث كانت تسرع به العلة الى دور الاحتضار فيقرأ له فى قاموس الفلسفة لڤولتير ، وكان « شوبان » يؤثره على ماعداه من الكتب •

وولت الأيام ، وتعاقبت الليالى ، حتى أقبل شهر أكتوبر وكان « شوبان » فى ذلك الحين قد وصل الى حالة لا يستطيع فيها أن ينهض للجلوس من فراشه وحده • لقد أدرك الجميع أن العبقرية الجبارة قد أخذت تتوارى شيئا فشيئا ، وأن السراج المضىء أخذ يخفت رويدا رويدا ، وأنه لم يبق للموسيقار العظيم بين ظهرانيهم الا أياما معدودات • وأخذ أصدقاؤه وتلاميذه الأوفياء يفدون من باريس وخارجها الى منزله صباح مساء ليكونوا الى جانبه فى ساعاته الأخيرة •

واستدعى اليه الأب يلوڤيكى (Jelowicki) القسيس البولونى الذى أخذ يتردد عليه كل يوم دون انقطاع • وفى اليوم الثالث عشر من أكتوبر تمت المراسيم الدينية • وفى نهايتها كانت كلمة « شوبان » الى القسس « أشكرك ياصديقى » •

وكانت تنتابه نوبات حادة تتركه فى غيبوبة عمن حوله • ولئن



فردريك شوبان « على فراش الموت »

كان ما يزال محتفظا بقواه العقلية فى ساعاته الأخـيرة فان جسمه الذى أضناه السقم وبرته العلة أصبح ناحلا ضعيفا هزيلا ، لا يقوى على الحركة ولا يستطيع الكلام • وأصبح كل ما يتعجله أصدقاؤه المحيطون بفراشه أن يلفظ النفس الأخير ليستريح من أوصـاب المرض ، ومصائب الدنيا ، وآلام الحياة •

وهنا يأبى القدر الا أن يرسل اليه من الموسيقى رسولا يبعث فيه خفقات الحياة مرة أخرى • ففى يوم الأحد الخامس عشر من شهر أكتوبر وقد يئس الجميع من أمره مرتقبين له النهاية المحتومة من لحظـة الى أخرى قـدمت النبيلة دلفين پوتوكا (Delphine Potocka) من مدينة « نيس » وكانت من أصدقائه القـدامى ، كما أنها من مشاهير المغنيات • فما كاد يشعر بوجودها حتى صحا من غيبوبته فأومأ اليها أن تغنى • فأحضرت آلة البيان من الغـرفة المجاورة ، وأخذت ترسل الغناء فى أنين تحبسه العبرات بأنشودة « الى العذراء المقدسة » للموسيقار « ستراديللا » وكان أداؤها بالغ التأثير ، فأخلد الجميع الى سكون رهيب ، رغبة منهم ألا يزعجوا أمير النغم فى ساعة احتضاره ، وأن يدعوا له الفرصة الدامعة لتوديع حبيبته الموسيقى التى شاء القدر أن تكون رسول وداعه الى لحده ، كما كانت بشير قدومه الى مهده • وكان صوت النبيلة ملائكيـا أطلق عيون الجميع بالعبرات الدامية ، ونفذ الى قلب الفنان الذى استعاد غناءها ، وقد بدا فى غيبوبة النهاية وأحلام الرحلة الأبدية • وكان جسده الهامد قد مات ، وبقيت روحه أبية على الموت لا تريد

أن تتلاشى ما دامت الموسيقى حبيبته ترسل أنغامها الى سمعه ... ثم سكت الغناء فجأة ، وكأن المشهد الأخير قد انتهى . فأبعد البيان عن الحجرة فى جلجلة من العويل والبكاء . وتقدم القسيس الى سرير المحتضر ليقوم بطقوسه الدينية .

ولكن يشاء الله ألا يكون هذا يومه الأخير . فقد أمضى ليله ، ثم استقبل اليوم التالى فى صحوة غير مرتقبة ، الا أنها كانت صحوة الموت . ثم طلب صديقه القسيس . على أنه فقد النطق بعد ذلك ، وان كانت أنفاسه ظلت تردد فى ضعف وخفوت .

ومن دعابات القدر المحزنة أن تقدم فى هذه اللحظة المريرة مندوبة « چورج صاند » المشغولة باخراج احدى مسرحياتها للاستفسار عن صحة المريض . ولكن لم يجد أصدقاؤه ما يستدعى ازعاجه بذلك فى هذه اللحظات القدسية .

ولم يعد من دلائل الحياة فى « شوبان » الا ما به من نبض ضعيف . وعاده طبيبان فى مساء ذلك اليوم . وقد بدا على وجهه أثر الاختناق ، وفقد جميع حواسه ومشاعره . ولما سأله الطبيب عما اذا كان يشكو ألما أجاب فى نبرات واهية قائلا «Plus» (أى كلا) . وكانت هذه هى كلمته الأخيرة التى زفر بعدها زفرة عميقة أسلم عقبها جفنيه لنومة الأبد . وذلك فى الساعة الثالثة من صبيحة يوم الثلاثاء السابع عشر من أكتوبر عام ١٨٤٩ .

وما هى الا ارتدادة الطرف حتى كانت الحجرة قد ازدحمت بجمهور من أصدقائه الذين كانوا موزعين بين الغرف الأخرى



فردريك شوپان تظله الموسيقى (نحت تعبيري لشيمانوفسكي)

فى انتظار مصـيره . وقد أخـذوا يستنزفون من مآقيهم الدموع الغزيرة وهم يودعون صديقهم الوداع الذى لا لقاء بعده .

وكانت وصية « شوبان » أن ينتزع قلبه بعد وفاته ليدفن فى وارسو ، وأن تدفن رفاته بمقابر الأب « لاشيز » بباريس الى جوار صديقه الموسيقار « بلليني » الايطالى ، وكانت الصـداقة بينهما قد توثقت منذ عام ١٨٣٣ الى أن توفى « بلليني » فى الرابع والعشرين من سبتمبر عام ١٨٣٥

وهكذا أراد « شوبان » أن يترك للانسانية مع تراثه الموسيقى الخالد تركة من الوفاء للوطن وللصديق . فتوارى فى وطنه بقلبه ، والى جانب صديقه برفاته .

كما كان من وصيته أيضا ألا يطبع من مؤلفـاته أى تصنيف لم يكن قد أتمه . ثم يبلغ به وفاؤه لعقيدته فى « موتسارت » أن يمتد ذلك الى ما بعد موته ، فقد أوصى بأن يكون القداس الذى يؤدى فى الاحتفال بدفنه هو « قداس الحداد » لموتسارت .

ولم تتم مراسيم الاحتفال بمواراة جثمانه الا فى الثلاثين من أكتوبر عام ١٨٤٩ أي بعد وفاته بثلاثة عشر يوما . ويرجع هذا الى أنه حتى ذلك التاريخ لم يكن مرخصا للسيدات بدخول كنيسة « مادلين » التى ستقام بها مراسيم الجناز . وقد استغرق الحصول على الترخيص كل تلك المدة . فكانت فرصة أتاحت لجميع أصدقائه ولأعلام الموسيقى والغناء من رجال وسيدات أن يشهدوا هـذا التوديع الرائع . كما اشتركت فيه فرق كثيرة من المعاهد الموسيقية

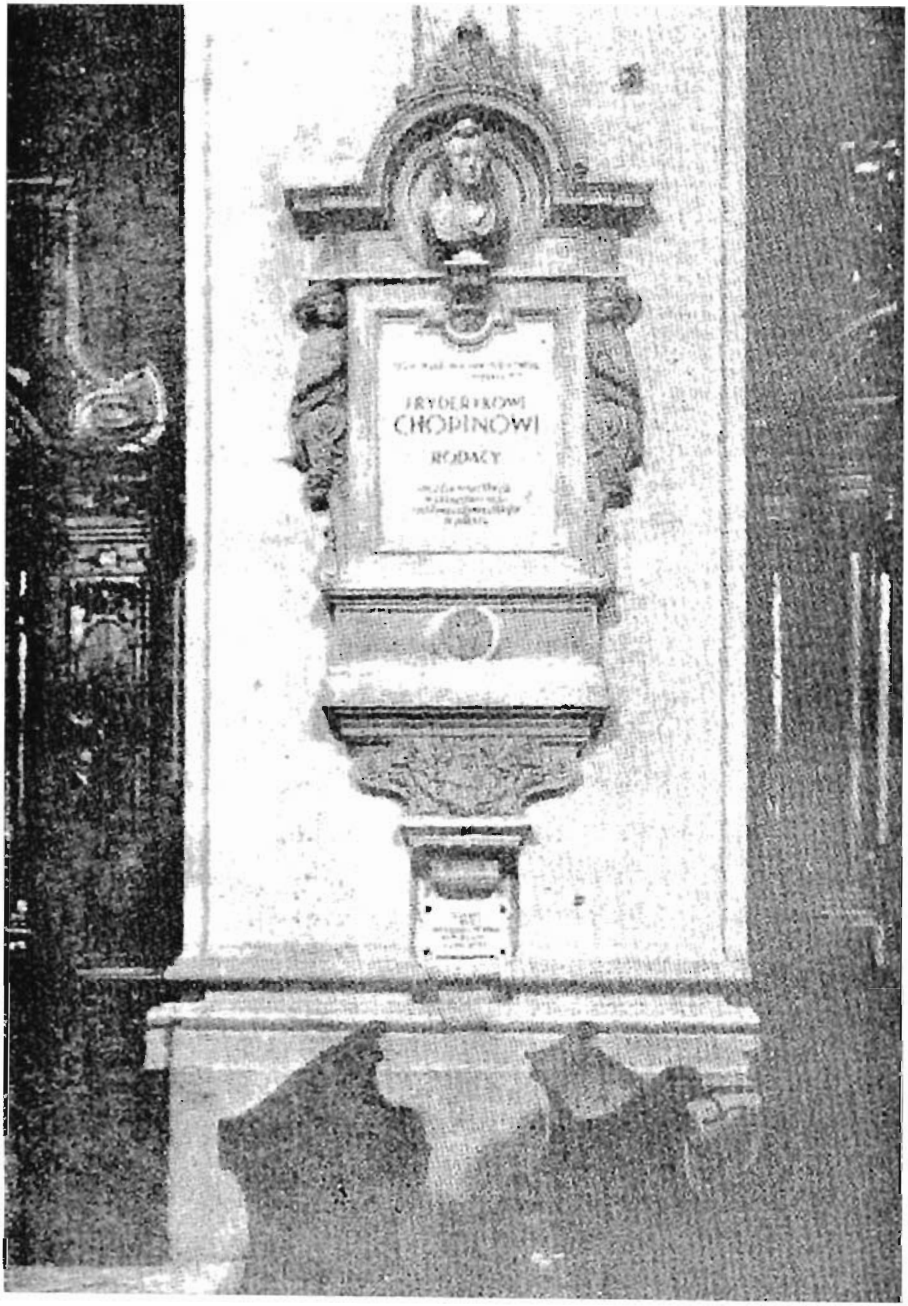
وفرق غنائية خاصة من المرتلين . وألقى فى هــذا الحفل الرهيب بعض مقطوعات الراحل ، من قداس موتسارت ، ومقطوعات أخرى لبيتهوفن .

وفى مقبرة « لاشيز » توارى جثمانه فى مقره الأخير . وهنالك تقدم أحد الأصدقاء فنثر على قبره تراب أرض بولونيا ، وهو ذلك التراب الذى كانت وارسو قد قدمته فى كأس فضية الى ابنها البار يوم رحيله عنها تذكارا لأرض الوطن الذى وهبه قلبه والذى نقل كوصيته الى بولونيا حيث دفن بكنيسة الصليب المقدس فى وارسو .

وهكذا أنفــذت الأقدار حكمها ، وقال القضــاء كلمتــه فى « شوبان » . فحبس الموت رفاته فى باريس ، وقلبه فى وارسو . أما موسيقاه فقــد أبت الا أن تنطلق الى كل مكان لتخــلد عبر الأجيال والأزمان .



قبر فردريك شوپان بمدافن الأب لاشيز بباريس حيث وورى جثمانه



لوحة تذكارية فى كنيسة الصليب المقدس بوارسو حيث
دفن قلب شوپان

اصطلاحات موسيقية

نورد فيما يلى شرحا موجزا لبعض الاصطلاحات الموسيقية فى انتاج « شوبان » مقتصرين فى ذلك على النواحى التى كان له فضل السمو بها والابتكار فيهـا ؛ أو التى اختصها بوفرة الانتـاج والتأليف . وهى :

النوكتورن

مقطوعة قصيرة تسير ألحانها فى بطء يتحول غالبا الى السرعة فى جزئها الأوسط الذى تشعر موسيقاه من حين الى حين بطابع المأساة والحزن . وهذا النوع من التأليف كان يوضع لمجموعة من الآلات النحاسية أو الوترية ، ولكن الموسيقار « فيلد » والفنان العظيم « شوبان » جعلا منه مقطوعات للبيان المنفرد حاملة الطابع لا تخضع لتركيب معين . والى أولهما يرجع الفضل فى ازدهار هذا النوع ، وقد اقتفى أثره « شوبان » فبزه فى كل ناحية فيه .

البولونيز

ابتدع هذا النوع فى منتصف القرن السادس عشر حينما أقامت بولونيا استعراضا فخما بمدينة كراكاو عام ١٥٧٤ بمناسبة استقبال « هنرى باليزى » الذى أصبح فيما بعد « هنرى الثالث » ملك فرنسا . وفى هذا العرض مرت أمامه صفوف طويلة ممتدة فى أزواج

من الفتيان والفتيات يحنون الرؤوس تحية واجلالا عندما يشارفون أريكة المحتفى به ؛ مع حركات ايقاعيــة أطلق عليهــا هنرى اسم « الرقص البولونى » • ثم انتقل هذا النوع الى باريس حيث انتشر منها الىبقية الأقطار الأوربية باسم « الپولونيز » • وهذا اللون من الحركة أشبه بالسير الوئيد المتهــادى منه بالحركات المعتادة فى الرقصات الأخرى • ويجرى لحنه على ميزان ¾ فى خطى متوسطة السرعة •

الابتكارات (Impromptus)

الأصــل فى هذه التسمية اطلاقهــا على ابتكارات موسيقية مرتجلة • ثم تطورت فأصبحت فى العصر الحديث خاضعة لنظام خاص فى تأليفها • وتتكون من ثلاثة أجزاء يكون ثالثها تكرارا للجزء الأول منها • وقد ترك « شوبان » من هذا اللون مقطوعات أربع ذات طابع خاص تعد تراثا خالدا بين مؤلفاته • وهذه التسمية كانت نادرة الاستعمال قبل « شوبان » فى التأليف الموسيقى • كما أن « شــوبرت » سبق أن وضع مقطوعات قصيرة ذات لون غنائى أطلق عليها تلك التسمية أيضا •

وهذا النوع فى مؤلفات « شوبان » يشبه فى تركيب تركيب النوكتورن • فكلاهما مؤلف من ثلاثة أجزاء ذات طابع غنائى ؛ الجزء الأول منها أهمها ، ثم يليه الثانى فى حركة مغايرة للأول • والفارق بين النوكتورن والابتكارات أن الأول — كما سبقت

الاشارة اليه — يجرى ترتيب سرعة أجزائه الثلاثة فى بطء ثم سرعة ثم بطء . أما فى الابتكارات فسرعة ثم بطء ثم سرعة .

سكرزو (Scherzo)

وضع بيتهوفن فى تأليف السوناتة جزءا نشطا مرحا أسماه « سكرزو » مكان « المينويت » الذى كان يوضع عادة فى هذا النوع من التأليف . كما جعل له أهمية خاصة فى تآليفه من الرباعيات والسيمفونيات .

ولكن « شوبان » جعل من الاسكرزو تأليفا مستقلا قائما بذاته ، وخالف سلفه فى طابع هذا اللون فلم يكثر فيه من ألوان المرح والفكاهة شأنه فى أغلب انتاجه . وقد بلغ « شوبان » القمة فى هذا النوع من التأليف .

البالاد

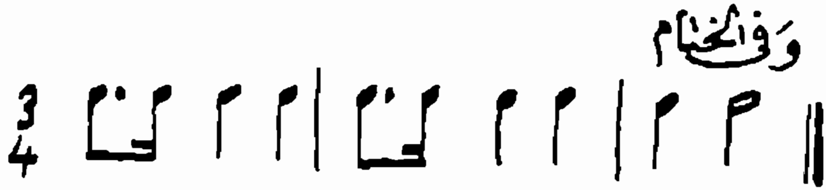
أطلقت هذه التسمية على أغنيات شعبية راقصة يشترك فيها مجموعة من المرددين . ثم تطورت فى تركيبها الفنى منذ القرن الرابع عشر فصاحبها عزف موسيقى مرتجل . ومنذ القرن الثامن عشر دخلت « البالاد » فى تطور حديث كاد يقطع صلتها بما كانت عليه قديما .

ومقطوعات « البالاد » الأربع التى خلفها « شوبان » تعد ذات طابع جديد . فهى تعبير قصصى عن موضوع شعرى تأثر به .

وهى كلها من ميزان ٦/٤ ، ٦/٨ وقد بلغ فيها من الاجادة مبلغا لم يصل اليه أحد سواه .

المازوركه

رقص بولونى شعبى من ميزان ثلاثى ، وتتعدد فى حقوله الأزمنة المنقوطة كما فى المثال الآتى :



وهو فى سرعته أكثر بطئا من مقطوعات الفالس . وهذا التأليف أكثر الأنواع التى أنتج فيها « شـوبان » اذ بلغ ما خلفـه منها أربعا وخمسين مقطوعة .

البريلود

لفظ معناه التمهيد أو التقدمة . ومنذ القرن السابع عشر أطلق على المقـدمات الموسيقية التى تسبق مقطوعات الرقص المسماة « السويت » ، وان كانت بعيدة فى ميزانها عن ايقاع الرقص .

ثم تطور هذا اللفظ فأطلق على الابتكار الموسيقى الحر . وقد أنتج « شوبان » من هذا النوع أربعا وعشرين مقطوعة للبيان وضعت ألحانها لجميع السلالم الموسيقية .

دراسات (Etude)

هى فى العادة تمرينات توضع لغرض التدريب العملى لاكتساب المهارة الفنية • وتتفاوت فى سهولة الأداء وصعوبته لتتفق ومقدرة المبتدىء ، والمتقدم ، والماهر الممتاز • كما أن منها ما هو معد لأدائه كمقطوعة موسيقية تشتمل على مواضع تتطلب من العازف مهارة وحذقا ، وتنتقل فيها الفكرة الموسيقية فتنساب ألحانها فى تنوع وتباين • ومن هذا الأخير وضع « شوبان » أربعا وعشرين مقطوعة نشرت فى المصنفين رقم ١٠ ورقم ٢٥ من مجموعة مؤلفاته • وقد وضعت ألحانها لجميع السلالم الموسيقية •

مؤلفات شوپان

نتشرف فيما يلى قائمة بالمؤلفات التى خلدها شوبان ثروة للموسيقى فخلدته بين الموسيقيين . وهى مرتبة وفق ترقيمها الذى نشرت به . وجميعها للبيان المنفرد مالم ينص أمامها على غير ذلك . وهى :

الرقم المسلسل	بيـــان المصنف
مصنف رقم ١	روندو دو مينير .
« « ٢	متنوعات بمصاحبة الفرقة .
« « ٣	مقدمـــة (Introduction) ومقطوعـــة پولونيز دو ماچير بمصاحبة الكمان الجهير (القولنسل) .
« « ٤	سوناتة دو مينير .
« « ٥	روندو على أسلوب المازوركة .
« « ٦	أربع مقطوعات مازوركة .
« « ٧	خمس مقطوعات مازوركة .
« « ٨	ثلاثى للبيـــان والـــكمان والكمان الجهير (القيولنسل) .
« « ٩	ثلاث مقطوعات نوكتورن .
« « ١٠	اثنتا عشرة دراسة (Éutdes).
« « ١١	الكونسرت الأول مى مينير بمصاحبة الفرقة .
« « ١٢	متنوعات بمصاحبة الفرقة .

الرقم المسلسل	بيان المصنف
مصنف رقم ١٣	فانتازى موضوعة على لحن بولونى .
« « ١٤	روندو كراكوفياك بمصاحبة الفرقة .
« « ١٥	ثلاث مقطوعات نوكتورن .
« « ١٦	روندو مى بيمول .
« « ١٧	أربع مقطوعات مازوركة .
« « ١٨	الفالس الكبير مى بيمول .
« « ١٩	بوليرو .
« « ٢٠	أول مقطوعة سكرزو(Scherzo) سى مينير .
« « ٢١	الكونسرت الثانى فا مينير .
« « ٢٢	بولونيز مى بيمول بمصاحبة الفرقة .
« « ٢٣	أول مقطوعة بالاد صول مينير .
« « ٢٤	أربع مقطوعات مازوركة .
« « ٢٥	اثنتا عشرة دراسة .
« « ٢٦	مقطوعتان پولونيز .
« « ٢٧	مقطوعتان نوكتورن .
« « ٢٨	أربع مقطوعات پريلود .
« « ٢٩	ابتكارات (Impromptu) من سلم لا بيمول .
« « ٣٠	أربع مقطوعات مازوركة .
« « ٣١	ثانى مقطوعة سكرزو سى بيمول مينير .
« « ٣٢	مقطوعتان نوكتورن .

الرقم المسلسل	بيان المصنف
مصنف رقم ٣٣	أربع مقطوعات مازوركة .
« « ٣٤	ثلاث مقطوعات ڤالس .
« « ٣٥	سوناتة سى بيمول مينير .
« « ٣٦	ابتكارات فا دييز .
« « ٣٧	مقطوعتان نوكتورن .
« « ٣٨	البالاد الثانى فا ماچير .
« « ٣٩	ثالث مقطوعة سكرزو دو دييز مينير .
« « ٤٠	مقطوعتان پولونيز .
« « ٤١	ثلاث مقطوعات مازوركة .
« « ٤٢	ڤالس لا بيمول .
« « ٤٣	مقطوعة تراتللا .
« « ٤٤	پولونيز فا دييز مينير .
« « ٤٥	پريلود دو دييز مينير .
« « ٤٦	الليجرو « دى كونسرت » .
« « ٤٧	البالاد الثالث لا بيمول .
« « ٤٨	مقطوعتان نوكتورن .
« « ٤٩	فانتازى فا مينير .
« « ٥٠	ثلاث مقطوعات مازوركة .
« « ٥١	ابتكارات صول بيمول .
« « ٥٢	البالاد الرابع فا مينير .

الرقم المسلسل	بيان المصنف
مصنف رقم ٥٣	پولونيز لا بيمول .
« « ٥٤	رابع مقطوعة سكرزو مى ماچير .
« « ٥٥	مقطوعتان نوكتورن .
« « ٥٦	ثلاث مقطوعات مازوركة .
« « ٥٧	أنشودة لترقيص الأطفال .
« « ٥٨	سوناتة سي مينير .
« « ٥٩	ثلاث مقطوعات مازوركة .
« « ٦٠	باركارول .
« « ٦١	فانتازى پولونيز .
« « ٦٢	مقطوعتان نوكتورن .
« « ٦٣	ثلاث مقطوعات مازوركة .
« « ٦٤	ثلاث مقطوعات ڤالس .
« « ٦٥	سوناتة صول مينير للبيان والكمان الجهير (الڤيولنسل) .
« « ٦٦	فانتازى ابتكارات .
« « ٦٧	أربع مقطوعات مازوركة .
« « ٦٨	أربع مقطوعات مازوركة .
« « ٦٩	مقطوعتان ڤالس .
« « ٧٠	ثلاث مقطوعات ڤالس .
« « ٧١	ثلاث مقطوعات پولونيز .

الرقم المسلسل	بيان المصنف
مصنف رقم ٧٢	مقطوعة نوكتورن مى مينير ومارش الجناز وثلاث مقطوعات راقصة .
« « ٧٣	روندو دو ماچير لآلتين من البيان .
« « ٧٤	سبع عشرة أغنية بولونية بمصاحبة البيان .
	مصنفات نشرت بغير ترقيم :
—	ثلاث دراسات .
—	مقطوعات مازوركة من السلالم : صول ، سى
—	بيمول ، رى ، لامينير .
—	مقطوعات پولونيز من السلالم : صول دييز مينير ،
—	سى بيمول مينير .
—	متنوعات من سلم مى (الفتى السويسرى
—	الطروب) .
—	مقطوعتان من نوع الكونسرت الصغير بمصاحبة
—	البيان والكمان الجهير (الفيولنسل) على
—	فكرة من موسيقى « روبرت الشيطان » .
—	ثلاث مقطوعات ڤالس .
—	پريلود من سلم لا بيمول ماچير .
—	متنوعات .
—	متنوعات .

مجمل مصنفات شوپان

وفقاً لتنويعها الفنى

للغناء :

عـدد	
١٧	أغنية بولونية .
١	أنشودة (Berceuse)

للآلات :

عـدد	
٢	كونسرت .
٤	سوناته .
١٢	دراسة للبيان (السلسلة الأولى) .
١٢	دراسة للبيان (السلسلة الثانية) .
٣	دراسة للبيان (غير مرقومة)
١٩	نوكتورن .
٤	بالاد .
١٢	پولونيز (منها اثنتان غير مرقومتين) .
٢٥	پريلود (منها واحدة غير مرقومة) .
١٦	ڤالس (منها ثلاث غير مرقومة) .
٤	فانتازى .
٥٤	مازوركة (منها خمس غير مرقومة) .
٥	روندو .

تابع للآلات:

	عدد	
	٥	متنوعات (منها اثنتان غير مرقومتين) •
	٤	سكرزو •
	٣	ابتكارات •
	٣	مقطوعات راقصة (Ecossaises)
	١	الليجرو دى كونسرت •
	١	مارش •
	١	بوليرو •
	١	ثلاثى •
	١	تاراتللا •
	١	باركارول •

تقويم

إجمال لأهم الحوادث فى حياة شوبان مع بيان أعلام الموسيقى من معاصريه

عام	سن شوبان	موجز حياته	أعلام الموسيقى من معاصريه
١٨١٠	—	ولد فردريك شوبان فى ٢٢ من فبراير فى زيلازوڤا وولا بالقرب من وارسو . والده نيقولاس شوبان (عمره ٣٩ سنة) وكان معلما . والدته جوستينا كرزيزا نوقسكا وانتقلت الأسرة فى نهاية هذا العام الى مدينة وارسو .	ساليرى (عمره ٦٠ سنة) . كليمنتى (٥٨) . شيروبينى (٥٠) . ميهول (٤٧) . بيتهوفن (٤٠) . پير (٣٩) . سپونتينى (٣٦) . بوالدييه (٣٥) . هوميل (٣٢) . أوبير (٢٨) . فيلد (٢٨) . ويبر (٢٦) . سپور (٢٦) . كالكبرنر (٢٢) . شرنى Czerny (١٩) . مايربير (١٩) . روسينى (١٨) . شوبرت (١٣) . دونيزيتى (١٣) . هاليفى (١١) .

عام	سن شوبان	موجز حياته	أعلام الموسيقى من معاصريه
			بلليني (٩) • بيرليوز (٧) • جلنكا (٧) • مندلسون (١) • شومان (ولد فى ٨ يونيه) •
١٨١١	١	ولدت شقيقته الثانية ايزا بيلا فى ٩ يوليه •	هيللر Hiller (ولد فى ٢٤ أكتوبر) • لست (ولد فى ٢٢ أكتوبر) • توماس (ولد فى ٥ أغسطس) •
١٨١٢	٢	نيقولاس شوبان عين أستاذا للغة الفرنسية ، فى مدرستى الطوبجية والهندسة ثم فى المدرسة الاعدادية الحربية	فلوتو (ولد فى ٢٧ ابريل) •
١٨١٣	٣	ولدت شقيقته الثالثة ايميلى •	ڤردى (ولد فى ١٠ أكتوبر) • ڤاجنار (ولد فى ٢٢ مايو) •
١٨١٤	٤	دوقية وارسو تتبع مرة أخرى للحكم الروسى •	
١٨١٥	٥		هيللر Heller (ولد فى ١٥ مايو) •
١٨١٦	٦		بينيت (ولد فى ١٣ ابريل) •
١٨١٧	٧	بدأ فى تلقى دروس العزف بالبيان على الموسيقار	جادا (ولد فى ٢٢ فبراير) •

عام	سن شوبان	موجز حيـاته	أعلام الموسيقى من معاصريه
		زيفنى (عمره ٦١ سنة) لحن ثلاث مقطوعات كانت أولى مؤلفـاته وهى قطعتان من نوع البولونيز والمـارش الحربى الذى أهـداه للأمير قسطنطين .	ميهـول (توفى فى ١٨ أكتوبر عن ٥٤ سنة) .
١٨١٨	٨	ظهوره لأول مرة فى حفل عام أقيم لمشروع خيرى فى ٢٤ من فبراير . وفى سبتمبر صنف قطعتين من نوع البولونيز .	جونو (ولد فى ١٧ يونيه) .
١٨١٩	٩		أوفنباخ (ولد فى ٢١ يونيه) .
١٨٢٠	١٠	غنت أنجيليكا كاتالانى فى وارســو واستمعت الى موسيقى شوبان وبلغ من اعجابها به أن أهدته ساعة ذهبية .	
١٨٢١	١١	أهدى قطعة بولونيز الى أستاذه زيفنى فى يوم عيد ميلاده فى ٢٣ من ابريل وقد بلغ ٦٥ سنة .	
١٨٢٢	١٢	ابتدأ يسترشد بتوجيهـات السنر الذى أسس معهدا للموسيقى فى وارسو عام ١٨٢١ . وضع	

عام	سن شوبان	موجز حياته	اعلام الموسيقى من معاصريه
		قطعة پولونيز صول دييز مينير .	
١٨٢٣	١٣	التحق طالبا بالمدرسة الثانوية بوارسو . درس كتاب كارل أنطون سيمون فى الهارمونى .	كيرشنر (ولد فى ١٠ ديسمبر) .
١٨٢٤	١٤	نال الجائزة الأولى بالمدرسة الثانوية . أصدر صحيفة فى سافارنيا أثناء العطلة المدرسية .	بروكنر (ولد فى ٤ سبتمبر) . راينيكا (ولد فى ٢٣ يونيه) . سميتانا (ولد فى ٢ مارس) .
١٨٢٥	١٥	عزف أمام القيصر اسكندر الأول فأنعم عليه بخاتم من الماس . طبع له مقطوعة روندو دو مينير مصنف رقم ١ واعتبرها عمله الأول .	ساليرى (توفى فى ٧ مايو عن ٧٥ سنة) . يوهان شتراوس الابن (ولد فى ٢٥ أكتوبر) .
١٨٢٦	١٦	التحق بمعهد الموسيقى بوارسو ، ادارة السنر ، للدراسة به طول الوقت . لحن مقطوعة پولونيز سى بيمول مينير . قضى العطلة المدرسية فى راينرز مع والدته وشقيقته ايميلى (عمرها ١٣ سنة) . حيث قام باحياء حفلين للبر	ويبر (توفى فى ٢٤ يونيه عن ٤٠ سنة) .

عام	سن شوبان	موجز حيـاته	أعلام الموسيقى من معاصريه
		ببعض الأيتام •	
١٨٢٧	١٧	توفيت شقيقته ايميلى فى ١٠ ابريل (عن١٤سنة)• لحن مقطـوعات مختلفة منها مقطـوعة من المتنوعات على لحن من أوپرا دون چـوان لموتسـارت وقد وضعهـا للبيـان والفـرقة (مصنف رقم ٢) وسوناتة دو مينير (مصنف رقم ٤) • ومقطوعات من النوكتورن والمازوركة والفالس والپولونيز •	بيتهوفن (توفى فى ٢٦ مارس عن ٥٧ سنة) •
١٨٢٨	١٨	طبع له روندو لا الكبير (مصنف رقم ٥) • ابتدأ ثلاثى صول مينير للبيان والكمان والڤيولنسل (مصنف رقم ٨) • زار برلين فى سبتمبر • وضع فانتازى على ألحان بولونية (مصنف رقم ١٣) وروندو كراكوڤياك للبيان والفرقة (مصنف رقم ١٤) • وروندو دو ماچير لآلتين	شوبرت (توفى فى ١٩ نوفمبر عن ٣١ سنة) •

عام	سن شوبان	موجز حياته	أعلام الموسيقى من معاصريه
		من البيان (مصنف رقم ٧٣) • وپولونيز • تعرف بالموسيقار هوميل (عمره ٥٠ سنة) •	
١٨٢٩	١٩	حضر پجانينى الى وارسو (عمره ٤٥ سنة) • انتهى شوبان من دراسته فى معهد الموسيقى فى شهر يوليه • وضع كونسرت فا مينير (مصنف رقم ٢١) • رحل الى ڤينا حيث أحيى حفلين فى يومى ١١ ، ١٨ أغسطس • زار پراج ونپلتز ودرسدن • عاد الى وارسو فى سبتمبر • بداية حبه لكونستانتيا جلادكوفسكا (عمرها ١٩ سنة) • شروعه فى تأليف دراسات البيان • زيارته الثانيــة للأمير رادزويل فى أنطونين حيث وضع قطعــة پولونيز للبيان والفيولنسل (مصنف رقم ٣) • كتب عــدة مقطوعات من الفالس والمازوركة •	جوسّيك (توفى فى ١٦ فبراير عن ٩٥ سنة) •

عام	سن شوبان	موجز حياته	اعلام الموسيقى من معاصريه
١٨٣٠	٢٠	أحيى أول حفل عام بوارسو فى ١٧ مارس حيث عزف كونسرت فا مينير وفانتازى على ألحان بولونية • ثم أتبعه بحفل آخر فى ٢٢ منه ، ثم حفل ثالث فى ١١ أكتوبر حيث عزف كونسرت مى مينير (مصنف رقم ١١) • أقيم له حفل وداع فى وولا احدى ضواحى وارسو حيث عزفت مقطوعة غنائية وضعها الموسيقار السنر (٦١ سنة) خصيصا لهذه المناسبة • رحل شوبان مع صديقه تيتوس فويسيكوفسكى الى ڤينا عن طريق برسلاو ودرسدن وپراج •	روبنشتاين (ولد فى ٢٨ نوفمبر) •
١٨٣١	٢١	صلة طيبة بالموسيقار هوميل (٥٣ سنة) وتاليرج (١٩) وشرنى (٤٠) • عزف كونسرت مى مينير فى ٤ ابريل • عدم جدوى الاقامة فى ڤينا • سفره الى ميونخ فى يوليه حيث أحيى بها حفلا فى ٢٨ أغسطس • ساءه باحتلال الروس	

عام	سن شوبان	موجز حياته	اعلام الموسيقى من معاصريه
		لوارسو وهو فى مدينة ستوتجارت • تاليف دراسات ثورية (مصنف رقم ١٠) • وصوله الى باريس فى منتصف سبتمبر • رغبته فى أن يتتلمذ على الموسيقار كالكبرنر • تعرفه بالموسيقار لست (٢١ سنة) وهيللر (٢١ سنة) •	
١٨٣٢	٢٢	أحيى فى باريس أول حفل له فى ٢٦ فبراير • عقد صداقة مع مندلسون (٢٣ سنة) وبرليوز (٢٩ سنة) • التعرف بأسرة روتشلد وبدء قيامه بتدريس البيان للطبقة الراقية • طبع مؤلفاته التى كان قد أنشأها فى وارسو (جمعت فى مصنفى رقم ٦ ، ورقم ٧) •	كليمنتى (توفى فى مارس عن ٨٠ سنة) • زلتر (توفى فى مايو عن ٧٤ سنة) •
١٨٣٣	٢٣	عزفه مع لست (٢٢ سنة) فى حفل عام أقيم فى ابريل • ظهوره فى كثير من الحفلات فى مجتمعات خاصة • صداقته لبللينى	برامس (ولد فى ٧ مايو) • هيرولد (توفى فى ١٩ يناير عن ٤٢ سنة) •

عام	سن شوبان	موجز حياته	أعلام الموسيقى من معاصريه
		(٢٢ سنة) • طبع مؤلفاته (من مصنف رقم ٨ الى مصنف رقم ١٢) •	
١٨٣٤	٢٤	حضور المهرجان الموسيقى فى اكس لاشاپل • رحلته مع مندلسون (٢٤ سنة) الى دسلدورف • اشتراكه فى حفل أقامه برليوز فى معهد الموسيقى بباريس فى ديسمبر • طبع من مؤلفاته (من مصنف رقم ١٣ الى مصنف رقم ١٩) • وضع فانتازى (مصنف رقم ٦٦) •	بوالدييه (توفى فى ٨ آكتوبر عن ٥٩ سنة) • بورودين (ولد فى ١٢ نوفمبر) • پونشيللى (ولد فى أول سبتمبر) •
١٨٣٥	٢٥	عدم توفيق فى الحفل الذى أحياه لمساعدة المهاجرين البولونيين فى ٥ ابريل • نجاح عظيم فى ٢٦ ابريل لمقطوعته « أنداتنى سپياناتو وپولونيز مصنف رقم ٢٢ للبيان والفرقة » • رحلته الى كارلسباد لمقابلة والديه فى يوليه • سفره فى سبتمبر الى درسدن حيث تقابل مع ماريا فودزنسكا (١٦ سنة) التي شغف	بللينى (توفى فى ٢٤ سبتمبر عن ٣٤ سنة) • سان ساينز (ولد فى ٩ آكتوبر) •

عام	سن شوبان	موجز حياته	اعلام الموسيقى من معاصريه
		بحبها • رحلته الى ليبزج حيث قابل شومان (٢٥ سنة) وكلارا ڤيك (١٦ سنة) • ظهور مصنفيه رقم ٢٠ ورقم ٢٤ • اصابته بمرض شديد فى الشتاء حتى تناقل الناس شائعات عن وفاته •	
١٨٣٦	٢٦	رحلته الى مارينباد لمقابلة أسرة ماريا فودزنسكا وعودة الجميع الى درسدن وخطبته لها على أن تظل طى الكتمان • رحلته الى ليبزج حيث تقابل مع شومان (٢٦ سنة) • طبع مؤلفاته من مصنف رقم ٢١ الى مصنف رقم ٢٣ ثم مصنفى رقم ٢٦ ورقم ٢٧ • مقابلته الأولى لجورج صاند (٣٢ سنة) فى الخريف • ابتداء مقطوعاته البريلود الأربعة والعشرين (مصنف رقم ٢٨) ، وعدد من مقطوعات المازوركة والنوكتورن والأغاني وبالاد فا ماچير	

عام	سن شوبان	موجز حياته	أعلام الموسيقى من معاصريه
١٨٣٧	٢٧	تحلل آسرة ماريا من خطبته لها لضعف صحته • رحلته الى لندن فى يوليه ، ثم عودته الى باريس • عقد صداقة مع چورج صاند (٣٣ سنة) • طبع مصنف رقم ٢٥ ثم مؤلفاته من مصنف رقم ٢٩ الى مصنف رقم ٣٢ •	فيلد (توفى فى ١١ يناير عن ٥٥ سنة) •
١٦٣٨	٢٨	احياء حفل فى البلاط الفرنسى فى مارس • رحلته الى روان حيث عزف كونسرت مى مينير • اعتزامه الرحلة مع چورج صاند لقضاء الشتاء بجزيرة مايورقة وسفرهما اليها فى نوفمبر • طبع مصنفى رقم ٣٣ ورقم ٣٤ •	بيزيه (ولد فى ٢٥ أكتوبر) •
١٨٣٩	٢٩	شتاء مرير فى مايورقة بين الغربة والمرض • اتمام پريلود مصنف رقم ٢٨ • ابتداء مقطوعته سكرزو (مصنف رقم ٣٩) • عودته الى باريس فى فبراير • قضاء الربيع فى مارسيليا والقيام برحلة الى جنوا فى مايو • الاصطياف	پير (توفى فى ٣ مايو عن ٦٨ سنة) •

عام	سن شوبان	موجز حياته	أعلام الموسيقى من معاصريه
		فى نوهان • تحسن صحته • اتمام سوناتة مصنف رقم ٣٥ • عودته الى باريس فى آكتوبر • تقابله مع موشيليس وعزفهما معا فى البلاط الفرنسى • طبع مصنف رقم ٢٨ •	
١٨٤٠	٣٠	اقامته طوال العام فى باريس مع چورج صاند (٢٦ سنة) • طبع مؤلفاته من مصنف رقم ٣٥ الى مصنف رقم ٤٢ •	تشايكوفسكى (ولد فى ٧ مايو) •
١٨٤١	٣١	احياء حفل رائع فى ٢٦ ابريل • قضاء مدة الصيف فى نوهان • العودة الى باريس مع چورج صاند (٣٧ سنة) طبع مؤلفاته من مصنف رقم ٤٣ الى مصنف رقم ٤٩ •	دفوراك (ولد فى ٨ سبتمبر) •
١٨٤٢	٣٢	احياء حفل آخر فى ٢١ فبراير • الاصطياف فى نوهان • طبع مصنف رقم ٥٠ •	شيروبينى (توفى فى ١٥ مارس عن ٨٢ سنة) • ماسينيه (ولد فى ١٢ مايو) •
١٨٤٣	٣٣	عدم ظهوره أمام الجماهير فى حفل عام حتى	جريج (ولد فى ١٥ يونيه) •

عام	سن شوبان	موجز حياته	اعلام الموسيقى من معاصريه
		سنة ١٨٤٨ • الاصطياف فى نوهان • طبع مؤلفاته من مصنف رقم ٥١ الى مصنف رقم ٥٤ •	
١٨٤٤	٣٤	وفاة والد شوبان (نيقولاس شوبان) عن ٧٣ عاما فى بولونيا • الاصطياف فى نوهان حيث زارته شقيقته لويزا • ظهر له مصنفا رقم ٥٥ ورقم ٥٦ •	رمسكى كورساكوف (ولد فى ١٨ مارس) •
١٨٤٥	٣٥	تدهور صحته • الاصطياف فى نوهان • وقوع نزاع بينه وبين چورج صاند (٤١ سنة) وولديها • ظهر له مصنفا رقم ٥٧ ورقم ٥٨ •	
١٨٤٦	٣٦	شتاء مرير ، يتلوه صيف غير هنىء فى نوهان • نزاع عائلى وظهور قصة چورج صاند « لوكريزيا فلوريانى » • مغادرته لنوهان الى الأبد • طبع مصنفى رقم ٥٩ ورقم ٦٢ •	
١٨٤٧	٣٧	اقتران صولانج ابنة چورج صاند بالحفار	مندلسون (توفى فى ٤ نوفمبر عن ٣٨ سنة)

عام	سن شوبان	موجز حياته	أعلام الموسيقى من معاصريه
		كلينزنجر فى مايو أثناء مرض شوبان فى باريس • شقاق بين شوبان واسرة چورج صاند ينتهى بالانفصال الأخير • طبع مؤلفاته من مصنف رقم ٦٣ الى مصنف رقم ٦٥ •	
١٨٤٨	٣٨	آخر حفل أحياه فى باريس فى ١٦ فبراير • رحلته الى لندن فى نهاية ابريل • عزفه أمام الملكة فيكتوريا فى ١٥ مايو • حفلتان ناجحتان فى يونيه ويوليه • تدهور صحته بحالة محزنة • الاصطياف فى سكتلندا • احياء حفلات فى منشستر وجلاسجو وادنبرة فى المدة من أغسطس الى أكتوبر • عودته الى لندن حيث أحيى بها حفلا فى ١٦ نوفمبر • العودة الى باريس فى ٢٣ منه •	دونيزيتى (توفى فى ٨ ابريل عن ٥١ سنة) •
١٨٤٩	٣٩	اضطراره الى التخلى عن الدروس الخصوصية • أسرة ستيرلنج تقدم له على سبيل الهدية	وكان أعمار معاصريه الأحياء كالآتى : سپونتيني (٧٥ سنة) • أوبير (٦٧) •

عام	سن شوبان	موجز حياته	أعلام الموسيقى من معاصريه
		عشرين ألف فرنك • قـدوم شقيقته لويزا في الصيف لتمريضه • انتقاله في الخريف الى ميدان فندوم رقم ١٢ حيث توفى في ١٧ أكتوبر	سپور (٦٥) • شرني (٥٨) • مايربير (٥٨) • روسيني (٥٧) • هاليفي (٥٠) • آدم (٤٦) • بيرليوز (٤٦) • شومان (٣٩) • هيللر Heller (٣٨) • لست (٣٨) • فلوتو (٣٧) • ڤاجنار (٣٦) • ڤردى (٣٦) • هيللر Heller (٣٤) • بينيت (٣٣) • جادا (٣٢). جونو (٣١) . أوفنباخ (٣٠) . بروكنر . (٢٥). سميتانا (٢٥) . يوهان شتراوس الابن . (٢٤). روبنشتاين (١٩) برامس (١٦). بونشيللي (١٥). سان سانز (١٤). بيزيه (١١). تشايكوفسكي (٩) دفوراك (٨). ماسينيه (٧). جريج (٦) رومسكي كورساكوف (٥) .

للمؤلف

١ — الكوميدى الحديث		المجموعة الأولى من أزجاله المسرحية طبع القاهرة سنة ١٩١٧
٢ — أشهر مشاهير الموسيقى الغربيـة		طبع برلين سنة ١٩٢٣
٣ — رسالة الكندى فى خبر تأليف الألحان		« ليبزج سنة ١٩٣١
٤ — ابن سينا وتصانيفه الموسيقية		« برلين سنة ١٩٣١
٥ — دراسة القانون		« القاهرة سنة ١٩٣٤
٦ — مجلة الموسيقى « ١٤ عددا »		« القـــاهرة سنة ١٩٣٥ — ١٩٣٦
٧ — موسيقى قدماء المصريين		« القاهرة سنة ١٩٣٦
٨ — صور التاريخ الموسيقى		طبع مصلحة المساحة بالقــاهرة سنة ١٩٣٧
٩ — الموسيقى النظرية	القاهرة	الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧ الطبعة الثانية سنة ١٩٣٩ الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٦
١٠ — موتســارت (قصة الطفــل المعجز والموسيقى العبقرى)		طبع القاهرة سنة ١٩٣٩
١١ — المجلة الموسيقية (١٣٧ عددا)		« القـــاهرة سنة ١٩٣٦ — ١٩٤١
١٢ — الموسيقى فى كلمات		طبع القاهرة سنة ١٩٤٣

١٣ ـ بيتهوفن طبع القاهرة سنة ١٩٤٤

١٤ ـ تبسيط دراسة الموسيقى « « سنة ١٩٤٥

١٥ ـ تنظيم أوقات الفراغ القاهرة { الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥ / الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦

١٦ ـ مجلة الموسيقى والمسرح (٣٥ عددا) طبع القاهرة سنة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩

١٧ ـ أعلام الغرب (من سلسلة التاريخ الموسيقى)
طبع القاهرة سنة ١٩٤٩

١٨ ـ فردريك شوبان (من سلسلة التاريخ الموسيقى)
طبع القاهرة سنة ١٩٤٩

فهرس الكتاب

مطابع سجل العرب
شركة مساهمة مصرية
القاهرة